

مجموعه رسائل موحديه

من انشاء كتاب الدولة الموضيه

حرره وعلق عليه

إ. ليفي بروفنسال

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناسر
الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25936277 / فاكس: 25938411-25922620
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مجموع رسائل موحدة من انشاء كتاب الدولة المؤمنية / حرره: ا.ثيفى بروفنسال
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010
400 ص ، 24 سم
تكمك : 8-481-341-977-978
1- الرسل العربية
ا- بروفنسال، ا.ثيفى (محرر)

لىوى: 816

رقم الايداع: 8675

مقدمة

اتفقت كلمة الباحثين المعتنين بهاضي الغرب الإسلامي على المكان الذي يشغله العهد الموحد في تاريخ القرون الوسطى.

ولا يستطيع أحد أن ينكر الآن أهمية الانقلاب المشاهد بشمال إفريقيا والأندلس حينما قام المهدي بن تومرت بدعوة التوحيد ونجحت حركته الدينية السياسية الاجتماعية وأسست دولةً مستقلة على يدي خليفته عبد المؤمن. وقد لبث تاريخ هذه الفترة الخطيرة معروفاً معرفةً إجمالية حسبما عرضته المصادر العربية العادية المستفاد منها من زمان مثل «الروض القرطاس» لابن أبي زرع و«الحلل الموشية» لمؤرخ مجهول وكتاب «العبر» لابن خلدون و«تاريخ الدولتين» المنسوب إلى الزركشي وغيرها من التواريخ المتأخرة.

أما المصادر المعاصرة للدولة نفسها فقد كانت تلفت بجميعها ما عدا كتاب وحيد وهو «المُعْجَب» لعبد الواحد المراكشي، إلا أنه تأليف أدبي أكثر من تاريخي. ولا حاجة هنا إلى التبسط فيما كان يتلقاه النقد من المصاعب كلما حاول الفرق بين الحقيقي والخرافي في مختلف تلك المصادر المختصرة.

ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت لحسن الحظ وثائق جديدة معاصرة للعهد الموحد. فمنها كتاب «أخبار المهدي» لصاحبه البيذق الذي عثرنا عليه في مكتبة الاسكوريال بأسبانيا ونشرناه وترجمناه إلى اللغة الفرنسية. ومنها جزء من كتاب «نظم الجثمان» لابن القطان مشتمل على تاريخ ابتداء الموحدين وسيطع عن قريب. ومنها سلسلة الوثائق المؤمنية التي نقدمها اليوم إلى الجمهور المثقف وبالاخص

إلى غواة ماضي المغرب التاريخي الأدبي.

تركب هذه المجموعة من سبعة وثلاثين رسالة رسمية من إنشاء مهمّي كُتاب الخليفة عبد المؤمن وبنيه، اقتبسنا جلّها من مجلد خطي مغربي مبثور الطرفين قد كان اكتسبه منذ سنوات صديقنا وزميلنا المستشرق ج.س. كولان. ونفضّل حينذاك بإعارته إيانا؛ فنسدي إليه الثناء اللائق بهذا التجميل.

لا يكاد من طالع هذه السلسلة يستصغر قيمتها من الوجهتين التاريخية والأدبية. أما من الوجهة التاريخية؛ فإنها تعرض لنا بياناً مباشراً دقيقاً منظماً لأهم الحوادث التي وقعت في أيام الموحدين من تدابير سياسية وإصلاحات اجتماعية وغزوات وانتصارات حربية. وأما من الوجهة الأخرى، فإنها ستمكّن كل من يدرس تطور الآداب بالديار الغربية الإسلامية من نماذج شتى عن فن الكتابة الرسمية في العهد الموحيدي، كما ستأذن له مقارنة تحليلية بينها وبين سائر المنتجات الثرية المسجوعة التي أنشئت في هذا المعنى، لا سيما في دواوين البلاطات الأندلسية والمغربية قبل الموحدين وبعد سقوط دولتهم.

وليس من شأننا أن نطنب هنا في الكلام على متضمن المجموعة من ناحيتي النقد التاريخي والنقد الأدبي؛ على أننا معولون على نشر درس خصوصي باللغة الفرنسية على المواد الجديدة المتحصل عليها عبّر هذه الرسائل. فمن راجع درسنا سيجد فيه برهاناً عما قدمناه من قيمتها، وكذلك بعض الإشارات على أسلوبها الاصطلاحي ومميزات التعبير والضوابط الشكلية التي كان يراعيها الكتّاب في المكاتب الرسمية.

سيرى القارئ أننا أضفنا إلى المجموعة رسالة (وهي العاشرة) لم يقع نصها في

المخطوط وإنما نقلناها من كتاب «صُبح الأعشى» للقلقشندي. فلا بأس أن ننسخ هنا ما ذكره هذا المؤلف عن الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين. قال إنها على أسلوبين؛ الأسلوب الأول أن تفتح المكاتب بلفظ «من فلان إلى فلان»، والأسلوب الثاني أن تفتح المكاتب بلفظ «أما بعد».

أما الأسلوب الأول -وهو المستعمل بالأكثر في السلسلة التي ننشرها- فقال فيه: «وكان الرسم في المكاتب أن يقال: «من أمير المؤمنين إلى فلان» ويُدعى له بما يناسبه «إلى فلان» ويُدعى له بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضية على الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود، ويختم بالسلام. والخطاب فيه بُنُون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه»^(١).

لا يحتاج المطلع على الرسائل إلى طويل بحث ليتعرف حقيقة هذا الرسم الذي حدده القلقشندي ويلاحظ أن الكتاب كانوا يحافظون عليه كل المحافظة.

ولعل من الفائدة أن نقول الآن كلمة في شخصية كل واحد من أولئك الكتاب؛ وهم حسب الترتيب الزمني أبو جعفر بن عطية، وأخوه أبو عقيل، وأبو الحسن بن عياش، وأبو الحكم بن المُرُخي، وأبو القاسم القالمي، وأبو الفضل بن محشرة، وأبو عبد الله بن عياش.

أما الأولان، فهما أبو جعفر أحمد وأبو عقيل عطية ابنا جعفر بن محمد بن عطية القضاعيان المراكشيان. وكان أصلهما القديم من قرية بناحية طرطوشة بشرق الأندلس. وقد ترجم لأبي جعفر بن عطية عددٌ من المؤلفين كعبد الواحد المراكشي في

(١) راجع «صُبح الأعشى» طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة (٦/٤٤٣).

«المُعْجِب»^(١) وابن الأَبَّار في «الحُلَّة السَّيْرَاء»^(٢) وابن الخطيب في «الإحاطة»^(٣) والمَقْرِي في «نفع الطيب»^(٤). ولد بمراكش في سنة ٥١٧ هـ وكتب للسلطانين المرابطين علي بن يوسف وابنه تاشفين. وكان على ما ذكره ابن الخطيب أحظى كُتَّابِهِمْ. ثم لما انقطعت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأخفى نفسه إلى أن استكتبه واستوزره بعد حين الخليفة عبد المؤمن في ظروف نبه عليها مترجموه. وتصفه «الإحاطة» ككاتب «بليغ سهل المأخذ منقاد القريجة سيال الطبع رائق الخط». وبعد أن أدرك المحل الأبرز عند مولاه جرت له محنة وقُتِل هو وأخوه أبو عقيل في أواخر سنة ٥٥٣ هـ.

وأما أبو الحسن بن عياش، فهو عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي وأصله من مدينة يابرة من غرب الأندلس. وذكر ابن الأَبَّار في «تكملة الصلة»^(٥) أنه صحب بني حدين بقرطبة وكتب لهم أيام قضائهم. ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك في الكتابة. قال ابن الأَبَّار: «وكان عبد الملك مع تقدمه في الآداب وتصرفه في الشر، مشاركاً في النظم من أبرع الناس خطأً وأحسنهم وراقة. وكانت له من الولاة منزلة جلييلة» وكانت وفاته سنة ٥٦٨ هـ.

وأما أبو الحكم بن المُرْخِي، فهو علي بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الأشبيلي، وشهر بمعرفة ابن المُرْخِي، ولي خطّة الكتابة للموحدين، وقد

(١) راجع طبعة دوزي ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) راجع طبعة دوزي ص ١٩٨، ٢١٥-٢١٦، ٢٢٢، ٢٣٤.

(٣) راجع «مركز الإحاطة» طبعة القاهرة (١/١٣٢، ١٣٩).

(٤) راجع طبعة بولاق (١٠١/٢-١٠٤).

(٥) راجع طبعة قديرة بمجريط رقم ١٧٢١.

ترجم له ابن الزبير في «صلة الصلبة»^(١) وابن الأبار في «التكملة»^(٢) ترجمة مختصرة، ولم يذكر تاريخ ميلاده ووفاته.

وأما أبو القاسم بن عبد الرحمن القالمي، فلم نعثر على ترجمته في معاجم أدباء هذا العصر. إلا أن عبد الواحد المراكشي أشار إليه في «المُعْجَب»^(٣) وعده من كُتَّاب عبد المؤمن وابنه الأمير أبي يعقوب يوسف. قال: «استوزر عبد المؤمن أبا جعفر أحمد بن عطية؛ فجمع بين الوزارة والكتابة وهو معدود في الكُتَّاب والوزراء؛ فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلاً من نبهاء الكُتَّاب يقال له أبو القاسم القالمي». ثم قال إنه «من أهل مدينة بجاية، من ضيعة من أعيانها تُعرف بقالم».

وأما ابن محشرة، فهو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي من أهل بجاية. وأصل بيته من قلعة بني حماد. وقد ترجمه الغُبَريني في كتابه «عنوان الدراية»^(٤) وذكر أن الخليفة ابن عبد المؤمن استدعاه إلى حضرته مراكش واستكتبه، وأنه ولد سنة ٥٤١ أو قبلها بيسير وتوفي سنة ٥٩٨.

وأما الأخير من أولئك الكُتَّاب فهو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عُبيد الله بن عياش التجيبي؛ أصله من قرية بُرْشانة من عمل ألمرية بجنوبي الأندلس، ولد بها سنة ٥٥٠. وقد ترجم له صفوان بن إدريس في «زاد المسافر»^(٥)

(١) راجع طبعتنا الزباط ١٩٣٨ رقم ٢١٦.

(٢) راجع طبعة قديرة رقم ١٨٧٢.

(٣) راجع طبعة سلا (١٣٥٧-١٩٣٨) ص ١١٩، ١٢١، ١٤٨.

(٤) راجع طبعة ابن أبي شنب (الجزائر ١٣٦٨-١٩١٠) ص ٣٠-٣٢.

(٥) راجع طبعة محداد (بيروت ١٣٥٨-١٩٣٩) رقم ٤٦ ص ٩٤-٩٥.

وابن الأَبَّار في «التكملة»^(١) وفي «إعتاب الكتَّاب»^(٢) وابن الخطيب في «الإحاطة»^(٣). فذكر ابن الأَبَّار أنه «كان عالماً بالآداب، رئيساً في صنعة الكتابة، خطيباً مضيقاً بليغاً مفوهاً، ذا حظ صالح من قرص الشعر، وأن السلطان بالمغرب استكتبه في سنة ٥٨٦؛ فنال دنيا عريضة». وتوفي بمراكش في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٦١٨.

أما ابن الخطيب، فقال في حاله، ناقلًا عن ابن عبد الملك المراكشي: «كان كاتبًا بارعًا فصيحًا، مُشرفًا على علوم اللسان، حافظًا للغات والآداب، نُجزلًا، سريًا الهمة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع، نفاعًا بجاهه وماله، كثير الاعتناء بطلبة العلم والسعي الجميل لهم وإفاضة المعروف على قُصَّاده، مستعينًا على ذلك بما نال من الثروة والحظوة والجاه عند الأمراء من بني عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى على عهد المنصور وابنه، رفيع المنزلة والمكانة لديهم، قاصدًا الإعراب في كلامه لا يخاطب أحدا من الناس على تفاريق أحوالهم إلا بكلام مُعَرَّب؛ وربما استعمل في مخاطبة خَدَمته وأُمته من حُوشي الألفاظ ما لا يكاد يستعمله ويفهمه إلا حُفَظ اللغة من أهل العلم: عادة ألفها واستمرت حاله عليها».

لا يسعنا أن نختم هذه الكليات التهديدية دون أن نقضي واجبًا. وهو أن نتقدم الشكر إلى أصدقائنا وزملائنا الشرقيين وبعض الغربيين الناطقين بالضاد^(٤)، لما تفضلوا منذ سنوات ولا يزالون من الاعتراف بسعينا الموصل لدرس المدنية

(١) راجع طبعة قديرة رقم ٩٥٢.

(٢) راجع مخطوط المكتبة الشريفة بالرباط رقم ٤٠٩، الترجمة السبعون.

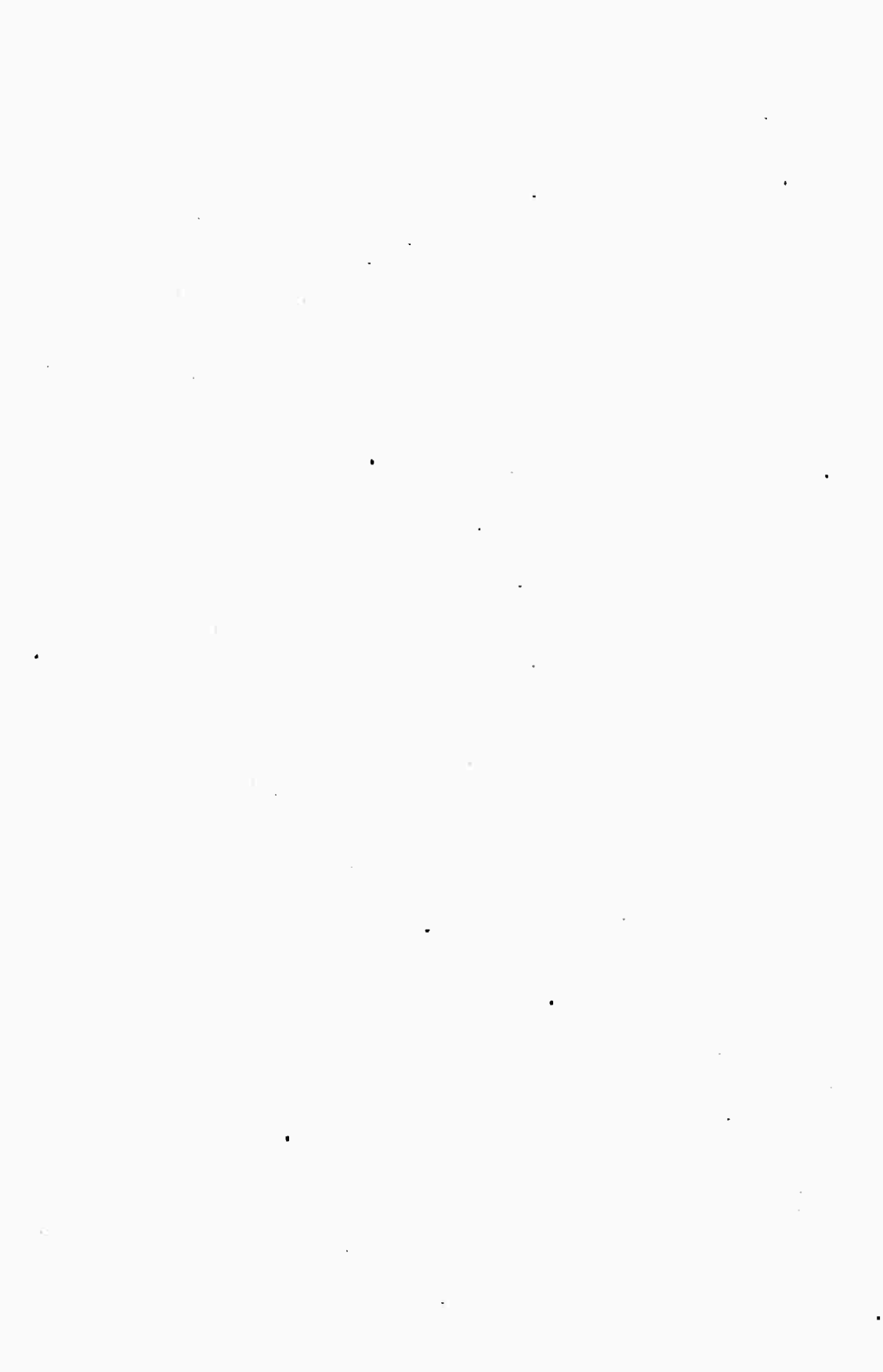
(٣) راجع مخطوط المكتبة الاسكوريالية رقم ١٦٧٣ ص ٥٠-٥٢.

(٤) ممن لا يمثل كلمة الحديث المشهور: «خالفوهم!».

الإسلامية في العصور الوسطى، وبجهدنا لاستكشاف بعض نواحيها المبهمة ونشر مصادرها التي أُتيح لنا إخراجها من زوايا النسيان؛ وبقيامنا بالدفاع عن تلك المدنية، والتقدير لمجدها، والرفع لمنازلها، والانتصاف لدورها البارز وتأثيرها المكين في نهضة الفكر الإنساني واشتراكها في ازدهار الآداب والفنون الجميلة في أوروبا. فتمنى أن يساعدنا الدهر في المستقبل، ولا يخيب أولئك الأصدقاء في مأمولهم منا، وأن لا تزال الأيام تؤهلنا لعطفهم وتشجيعهم وتحبيذهم، وتمكننا من تتبع نشاطنا الدراسي العادي، بحسب ميلنا إليه وعنايتنا بمختلف مظاهر الثقافة العربية وتجديدها الحالي المعجب.

ا.ل.ب.

الرباط في ٨ مارس ١٩٤١



بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطية:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعاونته إلى الطلبة الذين بسبته وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة وفقهم الله وسددهم سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله مولي الرغائب، ومسني الآمال والمطالب، وقابل توبة النائب، نحمده بما يتعين من حمده الواجب، ونصلي على محمد نبيه العاقب؛ وعلى آله وصحبه أولي المفاخر السنيّة والمناقب. ونصل الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المحرز شرف المبادئ والعواقب، المجلي بنوره الثاقب، حجب الظلام الواقب.

وكتبناه إليكم -كتب الله لكم شكرًا مؤالى مُعادا، وتوبةً تجعلونها قاعدةً لأعمالكم وعمادا، وصلاحًا لا يفارق بحمد الله نهاءً أو ازديادا- من حضرة مراکش حرسها الله وقد وصلنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن، وعُدنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن؛ بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها، وإطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامهما، والصاق أنوف الكفرة المرتدين برغامها، وقطع دابر القوم المجرمين في هذه الجهة وما انتظم في نظامها؛ ونال الغزاة في هذه الحركة الميمونة من الأجور، والمغنم الموفور، والفضل الذي ينشر عليهم أجنحته يوم النشور، ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال، ولا يتأتى لمخلوق نعته على استيفاء وإكمال. فطوبى ثم طوبى لمن حضر في سبيل الله فأحضر، وأخلص نيته في غزوه الميمون

بمبلغ ما استطاع وقدر، وتساعدت جوارحه في تخليص ما اكتسب من هذه الفضائل واذخر.

وإن النعمة وفقكم الله بهذه الفتوح العيمة العامة شاملةً على من أخذ بهذا الأمر العزيز ودان، وتزيا بحلته البهية فازدان؛ فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي رضي الله عنه العجبُ العُجاب، وفاض فيها من بركاته الفيضُ المنساب، ودرت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكُرم المآب. وكان أمرها مخصوصًا بالمرتدين الخاسرين؛ فمحقهم وطيسها الشديد الغلاب، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والثناء.

فاشكروا الله، عباد الله، شكرًا دائمًا مستمرًا مع الأحيان، وأحسنوا ضمايركم، وطهروا سرائركم، في مقابلة هذا الإحسان، وتوبوا إلى الله جميعًا توبةً نصوحًا غاسلةً للقلوب من الأدران؛ فالتوبة أصلٌ للأعمال الراجحة، والمتاجر الراجعة؛ ونعوذ بالله من الخسران.

وقد آن لكم، أيها المؤمنون، أن تجددوا توبتكم تجديدًا وكيدًا، وتغتتموا من هذه النصائح التي تتناولكم حظًا مفيدًا، وتشهدوا الله على التمسك بعصم الإيمان، وكفى به شهيدا. فبادروا رحمكم الله إلى طاعة الله تعالى في العلانية والنجوى، وشدوا أيديكم على هذا الحبل الأمتن الأقوى، واعلموا أنكم راحلون، فتزودوا، فإن خير الزاد التقوى؛ وحافظوا أصلحكم الله على إخلاص النيات، والتزام الصلوات، وسائر أعمال الطاعات، وتلاوة القرآن والتوحيد فهي أكرم التلاوات، واصفحوا، وأصلحوا، وتعاملوا بالخير تفلحوا، واقروا أبواب الرحمة بإيمان الأيمان تستفتحوا؛ وواظبوا على تغيير المنكر وأتمروا بينكم بمعروف تنجحوا. واشتغلوا بدينكم اشتغالًا يُخلصكم، والتزموه التزامًا يخلصكم على الدوام ويُجركم، وتزيدوا من

الأعمال الصالحة في هذه الأعمار التي لا تزال مع اللحظات تُنْقِصُكُمْ. ورحم الله امرأ
سمع النصيحة فابتدرها، وجاهد نفسه على طاعة الله فقهرها، وأخذ عليها مأخذ
الشهوات فنهاها بالحق وأمرها. أعاننا الله وإياكم على شكر نعماءه، وطلب رحمائه،
بعزته. والسلام.

الرسالة الثانية

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج أدام الله كرامته بطاعته وتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي عمت برحمته نعمه، والصلاة على محمد نبيه الذي انجابت بنوره حنادس الكفر وظلمه، وعلى آله وصحبه الذين عُرفت في هديهم أخلاقه العظيمة وشيمه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله ثابتاً في بسطه قدمه، ظاهراً في تمشيته في البسيطة سبقه وتقدمه؛ فإننا كتبناه إليكم -كتب الله لكم عقد الإيمان وربطه، ونظم لكم بطاعته سلك العمل وسمطه- من حضرة مراکش حرسها الله ونحن نشكره سبحانه على إفاضة الخير ونشره، وصلة تيسيره لأوليائه ويسره.

وقد وصلنا أخوكم الشيخ الجليل أبو محمد، وابنكم أبو الحسن، وصاحبكم الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون أكرمهم الله بتقواه فأدوا من حق هجرتهم البرة ما قلدوه، ونالوا من خير الزيارة والبيعة ما اعتمدوه؛ ثم انصرفوا مبرورين مسرورين بما ألقوه من بركة هذا الأمر الكريم ووجدوه، وقام عذرهم وفقكم الله على ساقه فقبل، ومثل ولاؤكم نائباً عن الوصول فوصل.

ولكم عندنا وفقكم الله وأكرمكم من حظوظ التقريب والإيثار، وموالة التنبيه

على سبيل الدوام لكم والاستمرار، فوق ما تؤملونه، وخير ما تستقبلونه. فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم، وتقربوا إليه بالأعمال الصالحة يضاعف قربكم، والله يحفظ إيمانكم وأمانتكم منا لكم ورتبكم؛ بيمينه. والسلام.

الرسالة الثالثة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمدّه بمعاونته إلى الطلبة الذين بصنّهاجة
تأسفرت والمشيخة والأعيان والكافة وفقهم الله وأعانهم على ما يرضاه سلامٌ عليكم
ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله على أنعمه التي أضفّاها، ورحمته التي نرجو أن تقربنا زُلّفّاها؛
والصلاة على محمد نبيه الذي قضى حقوق الأمانة ووفّاها؛ ومحا بأمر الله آثار الكفر
وعفّاها؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وليّه الذي تقبل سُبُل الهداية
واقْتَفّاها، وأقام رسوم الشريعة على رغم من جحدها ونفّاها؛ فإنّا كتبناه إليكم -
كتب الله لكم أجر من جاهد واجتهد، وتوكل على صادق وعده واعتمد - من
حضرة مراكش حرسها الله، في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين
 وخمسة، وكلمة الحق بفضل الله لا تفارق سموًا وعلوًا، وأمر الله يكبت أعداءه
عدوًّا فعدوا، وبركات إمامنا المهدي رضي الله عنه تتزيد على مر الزمان رواحًا
وغدوًّا.

وقد صدّرنا وفقكم الله على الحضرة العلية تينملل كرمها الله بعد أن قضينا
بحمد الله أوطارنا، واقتضى النظر في المصالح صرفنا وإصدارنا؛ واجتمعنا بالجماعة
الواصلة من قبلكم على أحسن حال، ووعينا جميع ما تحملوه من مقال؛ ومن قبلكم
تقفون إن شاء الله على مقتضى نظرنا ومعناه، ويتهي إليكم بحول الله ما رأيناه.
وتصلكم طيّ كتابنا هذا نسخة كتاب خاطبنا بمثلها كل جهة من جهات الموحدين

وفقههم الله فيما قرب وبعد، وحملناها من الوصايا ما نرجو أن يعين على أمر الله. ويعضد، ورأينا إنفاذها إليكم لتنالوا من بركاتها ما تجدون إثره قريباً، وتحوزون من خيره حظاً وافراً ونصيباً.

فاشكروا الله تعالى على ما وهبكم من فضله، وخصكم به من عميم طوله؛ واعلموا مقدار ما نلتموه من الأجر في صبركم وجهادكم، وإخلاصكم لهذا الأمر أعلاه الله بجميل اعتقادكم؛ وسترون من بركات ما تحمدون به آراءكم، وتجنون ثمرته لكم ولمن وراءكم يسركم الله للخير، وجعلكم ممن سار في مرضاته أكرم السير والسلام عليكم ورحمة الله.

الرسالة الرابعة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ الأجل أبي زكرياء
محبي بن علي وفقه الله ويسره لما يرضاه، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي ظهرت قدرته، وختمت بالسعادة لأهلها فطرته،
وأقامت أود الدين معونته الغالبة ونصرته؛ والصلاة على محمد نبيه صلاةً تكتنفه بها
ذاته الطاهرة وآله وعترته، وعليهم أجمعين من السلام الطيب ما ينعمهم نعيمه
ونصرته؛ والرضا على الإمام المعصوم المهدي المعلوم، الذي تهللت به قسّمات الدين
وأسرته، وانفرجت بهدايته أزمت الأمر وعسرت. وكتابنا إليكم -كتب الله لكم
أسعد الأعمار عاقبة وتماما، وأقرب الأقدار اتصالا بمنازل الأبرار والمأما، وأعوذ
الأقطار بجوامع الاختيار ربطاً لها ونظاما- من حضرة مراکش حرسها الله.

ونحن نسأل الله عوناً على ذكر أياديه التي لا يحصرها حاصر، ونعمه التي كل
لسان في وصفها قاصر، ونستنصره على القيام بحقوقها فهو وليّ وناصر؛ ونقبل بولاء
الإيمان وإخلاصه على كل من أقبل وأخلص، وتبادر بكرم الإجابة إلى كل من جنح
نحنونا وحرصن؛ ونصل في ذات الله كل وليّ وصل ووالى، وتلقاه من قبولنا بما يستمر
نماؤه ويتوالى. وما غرضنا -والله يوفقكم- إلا خيرٌ بجميع المسلمين شامل، ورشدٌ
لا يخيّب عن أمله أمل، وصفاءٌ للمصافي أخذٌ بأداب الله عامل.

وقد تواردت علينا كتب الطلبة الذين بالأندلس وفقهم الله يعلموننا بما أنتم

عليه لهذا الأمر كرمه الله من الميل، والتزوح، وبما بينكم وبينهم من الاتصال الصريح، والتعاون في ذات الله القائم على الولاء الصحيح؛ وذكروا من تحققهم لمحبتكم وصفائكم، واختبارهم لصدق عهدكم ووفائكم، ما عقده الرأي الموفق ونسده، وأوصله التحقيق موصله وأشده.

ثم وصل الشيخ أبو فلان فشافه من ذلك بأغراض جميلة مستحسنة، وآراء ظاهرة في الصلاح بينة، ووصف جانبكم الأثير، في إرادة الخير، بأوصاف مُفصّحة بكرمه مُعلنة. فلتلقينا ذلك كله تلقى الرضا والاستحسان، واستقر بنا غاية عهدكم بما استقريناه من ذلك العنوان، وسررنا أن تكون لهذه الطائفة العزيزة من أخلص الإخوة في ذات الله والإخوان.

وهذا الأمر وفقكم الله هو أمر المهدي رضي الله عنه حقّ فتأمل، ومع معالمة الجلاء فلا ظنّ ولا تخيل؛ والمهدي رضي الله عنه قد بشرّ به النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما حديث، وظهرت علاماته وآياته في قديم مزامره وحديث؛ ودل على اسمه وزمانه، وفعله ومكانه، بأدلة رفعت الإشكال والتعسف؛ فأتى رضي الله عنه كما نعت النبي عليه السلام ووصف؛ وقال صلى الله عليه وسلم فيه وفي طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهور الإشاعة والإذاعة، وقضى بوجوب الايتام والايتهام والطاعة، وأخبر في جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة.

والأمر في ذلك كله في الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بيان، ولا يفتقر إلى إقامة برهان، فهو معلوم كما أنبأ به الخبر الصحيح في العرب والعجم والبدو والحضر في كل ديوان وإوان. وقد تبين الصبح لذي عينين، وجدع الحق أنف الكذب والمين، وجلت الهداية ضد الضلال والرّين.

وأنتم وفقكم الله أولى من شد على هذا الأمر كرمه الله يد المتمسك، وأحل نفسه بحبوة هذا المنسك، وأقام دينه على هذه القاعدة التي هي نجاة المؤمن ومهواة المشرك.

والذي لكم عندنا وفقكم الله من إرادة الخير واعتقاده، وإسعاف أملككم فيه وإسعاده، ما تميل إليه الأفئدة، وتجنح نحوه النفوس المسترشدة. فاعلموا ذلك علم اليقين، واعقدوا عليه عقد المغتبط الضنين.

وإنما ينبغي أن يقع موقع السرور المتمكن، ويتخلل جذلة جوانحك تحلل المبالغ الممعن، ما خص الله به مسوفة أكرمهم الله الذين هم من قبيلتكم وفصيلتكم، فإن حبهم ثبت لهذا الأمر على تحقيقه وتثبته، وقام ودهم له في موطن الصفاء وقبلته، وهانجروا إليه وهجروا سواه، وكانوا إلّفاً على من أراده بسوء ونواه؛ وظهر ولاؤهم ظهوراً أغنى عن وصفه اشتهاره، وصفا أديمه فاتضح نهاره؛ واشتمل عليهم منه بفضل الله أكرم مشتمل، وعاد عليهم بكل متمنى ومتأمل.

وكذلك الشيخ أبو زكرياء يحيى بن إسحاق بن إبراهيم أعزه الله وبنوه وقرابته رعاهم الله قد تمكنوا من محبته في أعلى الرتب؛ واعتقدوه لما وجدوه كما قصدوه غاية المطلب؛ فاتسعت لهم ولسواهم من أعيان القبائل المذكورين كافة أكنافه، واستقر بهم إلى منازل البر والترقيع استدناؤه واستعطافه، فهو ألقهم بفضل الله عليهم وهم ألقه. وإن كُتِب جماعتهم لترد من صحرائهم، وتقرر ما لديهم، من حسن أغراضهم وسداد آرائهم.

ومثلكم وفقكم الله اقتطع لنفسه من هذه الحظوظ المباركة بأوفائها، وأخذها عن أحفل وجوهها وأحفاها، فدنا ببركتها وقرب زلفاها. جعلنا الله وإياكم ممن نورت

الحكمة قلبه بنورها، وملأت المحبة جوانحه ببشراها وسرورها، وأتته آمال الصلاح
بمنقادها وميسورها، بمن الله وعونه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ فِي التَّاسِعِ مِنْ ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

الرسالة الخامسة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمه بمعونته إلى الطلبة الذين بسبته وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه سلاماً عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله فاتح الفتوح، وواهب الخير الممنوح؛ والصلاة على محمد نبيه الأمين النصيح، وعلى آله وصحبه الأخذين بأخذه المحض وقصده الصريح؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القاطع بأمر الله آثار الكفرة من الأقطار المعمورة والمهامه الفيح.

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم في طاعته سعيًا متقبلاً، وجعل الصلاح متبعًا لكم ومتقبلاً - من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نوالي بشكره سبحانه على ما يواليه سبحانه بأمره العظيم من إظهار دائم، وعضد بنصر أوليائه قائم، وإرداف حزب ظافر بحزب غانم.

وقد وصلنا أكرمكم الله بمخاطبتكم الأثيرة. فوقفنا على ما سنى الله تعالى لصاحبكم أبي محمد عبد الله بن سليمان وأصحابه النافذين معه في القطائع عمرها الله حين ركبوا ثبج البحر غزاةً في سبيل الله، مستمطرين من ماء الرحمة على متون تلك الأمواه.

فكان من تسهيل الله لهم ما كان، وظهر صنعه الكريم لأوليائه وبان؛ واجتازوا بأهل مالقة والمنكب فأظهروا لهم من أحوال الامتناع، والاستعداد للدفاع، ما

أظهروا، وأبدوا سبلهم مجاهدين وشمروا.

ثم استخاروا الله على قصد المريّة فألفوها قد أخذت بأشعار أولئك الأشقياء حذرهم، وجمعت على دفع ما لا يدافع من أمر الله أمرها. فصحبها أولياء الله بكرة باكرتها بحتفها، وقطعت دون المدافعة ما قطعت من سيوفها وأكفها؛ والكفرة الذين بها يرون ما لم يستطيعوا من ضم شخايرهم وتحصيلها، وتفريقها من وسقها ومحمولها.

فلما أظلت عليهم تلك القطائع المباركة قاطعة برومهم، قارعة لقلوبهم الخبيثة بهول صباحهم ذلك ويومهم، راموا التحصن بالشخاير المذكورة فملئوها سلاحًا ورجالا، وتخيّلوا من رد أمر الله خيالًا فاسدًا وضلالًا.

فبادر من بادر من الموحدين أعانهم الله إلى الحبال التي وثقوها بها شخايرهم المذكورة في البر، واعتقدوا الإسناد إليه بها جنة من ذلك الأمر؛ فقطعوها قطعًا بتا، وفتوا بصرمها عن البر أعضاء الكافرين فتا. فلما عاين أعداء الله حبالهم أنكاثا، ولم يجدوا دون شفار الموحدين غياثا، بادروا التراسي في الماء، واغتنموا الفرار طمعًا في الإبقاء على ذلك الذماء.

فاقتفى الموحدون بالقتل آثارهم، ووصلوا باللحاق المستأصل فرارهم؛ ودخلوا عليهم الباب آمنين، وتخللوا أثناء القطر المذكور أعاده الله لاستفادهم طالين. فلما اخترقوا من أقطاره ما اخترقوا، وحرقوا من منشئات الكافرين ما حرقوا، استأصلوا بالقتل كل ما أدركوا منهم ولحقوا، ورأوا أن وصولهم إلى المسجد الجامع هناك مدرئ ما ابتدروا واستبقوا.

ثم أخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطائعهم، والعود إلى مواضعهم

واحتشوا على ما كان بالمرسى المذكور من الغُراب والشخاتير وحرقوا ما لم يمكنهم جلبه، ولا توجه لديهم طلبه؛ وغنموا من تلك الآلات الحرييات ما أتى الوصف على ذكره، وأحاط الأعلام بقدره. وعادوا بفضل الله ظافرين بأرباح تجارة، ظاهرين بأوضح علامة للنصر وإمارة. فالحمد لله الذي أيد وأسعد، ومد لأوليائه من أكناف أعدائه ما مهد.

ووقفنا على سائر ما ذكرتموه وأعلمتم به من سؤال ذلك الوعد، والخروج به عن سبيل القصد، إلى غير ذلك مما يتبين من ذلك المضمهر الفاسد والعقد، والله كفيل بقهر من خادع، وقاطع.

ووقفنا على ما ذكرتموه من وصول ابن مقدم إلى ما ذكر لكم من التعاون معكم في تلك الغزوة المباركة فالفاكم بحمد الله قد فُزْتُمْ بربحها، واختصصتم بمنحها، إلى سائر ما يشتمل عليه كتابكم من الأنباء الجامعة لفصول السراء. فاشكروا الله تعالى على ذلك شكراً يكون لفضله مستزيداً، ورددوا ذكر آلائه ترديداً، واستديموا ببركة المهدي رضي الله عنه حظاً من التوفيق سعيداً.

وأما ما ذكرتموه أكرمكم الله من أمر أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها فلتنظروا نظراً أكيداً في قطعهم، وردعهم؛ ولا سبيل لأحد من خلق الله أن يمد أحداً من تلك الأصناف بيادة حتى يتضح وجه ما ادعوه وتعرفونا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه. وكل من أخذ حاملاً إليهم مادة، فالسيف جزاؤه، والقتل من تلك العادة، دواؤه. فاعتمدوا وفقكم الله على ما ذكرناه، واجتهدوا فيما أمرناكم به قبل هذا وألزمناه؛ وكونوا على قدم الاستعداد والمستعان الله. والسلام.

الرسالة السادسة

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ أبي فلان وجماعة
الشيخة بقرطبة حرسها الله وأدام كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى
وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إلكم الله الذي يصل الفتوح لأوليائه بفتوح، ويلهم
الراشدين من عباده إلى كل رأي نجيح، ويقرب للمتقربين بالتوبة النصوح، وكل آم
شاسع ومأمول نزوح، ويشفي بدواء الإقالة، من مرض البطالة، كل كبد ذات كبد،
وقريحة ذات قروح.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من علم وحدانيته على جلاء
من آياته ووضوح، واستنفذ جهده في شكر مآله من خير موهوب وفضل ممنوح؛
ونصلي على محمد نبيه المصطفى صلاةً يستقبل بها من رحمته شطر باب مفتوح؛
ونستنزل ببركتها على جنابه الأنضر كل سحاب سفوح، وعلى آله الأكرمين
وأصحابه الظافرين من هدها بحظ ربيع، الجائلين في ميادين حقائقه، وأتباع طرائقه،
مدى أجل فسيح.

ونصل الرضوان المستدام، على من وجب الله الاقتداء بها والاتباع. الإمام المعصوم،
المهدي المعلوم، القائم بأمر الله قيام من كان لله ولرسوله ولكافة المؤمنين خير نصيح؛
والداعي إلى ما أمر الله بالدعاء إليه على ما جبله عليه من صحة بالهداية وتصحيح.

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم بطاعته من مقامات المغفرة خير مقامة، وأدام لكم نصرة ما استقبلتموه، ونصرة ما أملتكموه، أكرم إدامه، وأقام لكم في العالمين من شواهد الإخلاص آيين إمامة وأوضح علامة - من حضرة مراکش حرسها الله ويفضله جلت قدرته ما استفاض ببركة هذا الأمر المبارك من نور قدسي، وخير معنوي وحي، وما قر به بيمينه من أمل قصي، ولينه من شديد قسي، وأسمعه أوليائه من نبا إنسي، حتى انتشرت في الآفاق مطارح أشعته، وابتدرت عشائر الإيوان ما ابتدرته من تعزز بعزته الأبدية ومنعته، واستنار شرف سنته الطاهرة وشرعته، وأقبل كل موفق إلى ما وفق له من فيته إلى الله تعالى ورجعته؛ واستمسك الراشدون منه بعروة لا تنفصم، واعتصموا بها لا ينجلي من دعوته الربانية ويعصم، وخاب عن هذه الرحمة الواسعة الناكض المتأخر والألد الخصم.

وقد وافانا أدام الله كرامتكم كتابكم الأثير؛ فكان عن عقيدتكم لساناً مبيناً، وأخذ في وصف انقطاعكم إلى هذا الأمر العظيم، واعتلاقكم بجانبه الرحيم، مأخذاً سهلاً بيناً، ونبأنا بما تطوqتموه من رفقة حين فرض التوفيق عليكم منها واجباً متعيناً.

وانتهت إلينا بيعتكم التي ضمتموها بما اشتملت عليه من عهودها وموائيقها، والتزامكم لما أوجه الله تعالى من شرائطها والقيام بحقوقها؛ والله يمنُّ عليكم بثبوتها في مواطن الخلد وتحقيقها، ويوجدكم بركة ما أشمتموه من بروقها. وليس لكم وفقكم الله عن هذه الطائفة العزيزة إلا ما يطابق أملككم من إسعاف وإجابة، واحتلال قرار من لديها ومتابة، وولاية تنوب في تنويه جانبكم وإطلاع مطالبكم أكرم إنابة، ووصلة تربط لكم بفضل الله موات أخوة إيمانية وقرابة؛ فاشكروا الله تعالى على عظيم هذه المنة شكراً تصيبون به شاكلة التناهي خير إصابة، وتستدعون

ببركة الله ولاء هذه العصابة، التي جعلها الله من خير أمة أخرجت للناس خير عصابة.

واستقبلوا أكرمكم الله بالأعمال البرّة عمراً جديداً، وأحيوا أنفسكم بنور الحكمة إحياء سعيداً، وعضوا على طاعة الله ورسوله ومهديه بالنواجذ عضاً مسكباً لإباحتها مفيداً، وأشهدوا الله تعالى على التزامها، والدخول تحت إحكامها، وكفى بالله شهيداً؛ واسألوا الله أن يطهركم بالثلج والبرد والماء الأبرد سؤالاً مستكثرًا من رحمته مستزيدا.

واستبشروا فقد نفحتكم البشري بعاطر نفحها، وتلقنكم الكرامة بريحانها وروحها، وأجلتكم الأمانة أجوان كثبانها ودوحها؛ واستمسكوا بأمر المهدي رضي الله عنه فهو سبب النجاة والخلاص، والمأمن من نوائب الانتكاس والانتقاص، والموعود بالظهور والاستيلاء والانتقام من عداته والاقتصاص؛ هو أمر الله الذي أتمه صدقاً وعدلاً، هو ستره الذي أصفاه على أوليائه سترًا وسدلاً، هو رحمته التي شملت المؤمنين فكانت لهم أهلاً، وكانوا لها أهلاً، وبه إن شاء الله تأمنون من كل ما خامركم نبل روعه، وتصلون إلى ما حال دونه صرم الزمن وقطعه، وتجدون عما قريب في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ما يظهر لكم بركته ونفعه، والنظر بعون الله يكنف تلك الأقطار ويتنظمها حتى تبل أرحامها، ويؤمن حرماها، ويكون على سواء السبيل أمها، ويتحى الجادة طوائفها وأممها.

وقد وفد لنا أكرمكم الله أصحابكم الشيوخ أبو محمد وأبو الحسن وأبو عبد الله وفقهم الله فآلفوا بهذه الحضرة حرسها الله عصا تسيارهم، ونالوا من الزيارة المبرورة والبيعة الكريمة منتهى طلبهم واختيارهم، وبلغوا ما تحمّلوه من أخبارهم.

ونرجو أن الله تعالى يعيد تلك الأحوال إلى أفضل عوائده من الصنع الكريم،
ويسقيها ما ينعمها به من ماء النعيم، ويوجد لها من لطائف الرحمة ما كان قبل هذا
الأمر المبارك في حكم المعدوم، بمنه. والسلام.

كُتِبَ في الثاني من صفر عام أربعة وأربعين وخمسمائة.

الرسالة السابعة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمله بمعونته إلى الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة وفقهم الله لما يرضاه، وتولى بهم سبيل هداة. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله الذي أيد بنصره المؤمنين، وفتح لأوليائه الفتح المين، وجعل هذا الأمر المبارك التبشير والتيسير والتأمين؛ والصلاة على محمد نبيه الذي اختاره لإبلاغ رسالته، وحمل أمانته، فكان القوي الأمين، وقرن به من آله الطاهرين وأصحابه الطيبين الغر الميامين؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى مقيمًا دينه المتين، موضحًا من آيات ربه، في قطع الباطل وجبه، ما أراد به الإيضاح والتبيين.

وهذا كتابنا إليكم - كتبكم الله - من نور قلبه بنور الإيمان، وكره إليه ما يكرهه من الكفر والعصيان، وقضى له بالخاتمة الحسنة، في تيسير السلامة والأمنة، والانقياد والإذعان - من حضرة بجاية حرسها الله وبحبل الله نتمسك ونعتصم، وإلى مرضاته نقصد ما نقصد ونيمم ما نيمم، وهو المستعان على أداء ما يتعين من واجباته ويلزم.

ولما قضى الله سبحانه. في فتح هذه البلاد الشرقية بخير قضائه، وأجرى لهذه الطائفة المباركة في الإظهار والإيثار معهود اختياره وارتضائه، وبسط لهذا الأمر العزيز في أكناف هذه الأنحاء والأذراء بساط غلبته واستيلائه، وأصار من كان فيها

من الجبايرة والطغاة والكفرة، إلى غايات إبعاده وإقصائه، وغيايات إعدامه وإفناؤه؛ فأراهم أن الإعراض عن إجابة دعائه، والاعتراض عن محكمات سور الحق وآيه، والانتهاض إلى إطفاء نوره وضيائه، ممحقة لا تبقي ولا تذر، وبطشة لا تمهل ولا تؤخر، ونقمة تحرق بصواعقها من يتحرق في سبيل الغواية ويستعر، رأينا أن نخطبكم أرشدكم الله داعين إلى الله ورسوله، بما أوجه سبحانه من الدعاء إلى سبيله، والتحريض على اعتماد الحق وقبوله، والتحذير من التوقف في مواقف إغواء الشيطان وتضليله.

وكما أوجب جلّت قدرته على الداعي بدعوته العالية ما أوجب، وأندب أن ينادي إليه كل من عسى أن ينادي ويندب؛ فكذلك أمر المدعو بالإجابة والإنابة، وخصه من القبول والبدار الجميل على إتيان باب الإحسان والإصابة، وحذره من إهمال الامتثال، وإهمال الإقبال، ما يعدل به عن قرار الأمن والمثابة.

فبادروا وفقكم الله إلى إجابة منادي الحق وداعيه، واسعوا إلى الخير بأعماله المزلفة ومساعيه، وسارعوا بالتوبة النصوح تسارع الراغب بدينه المقبل إلى ما يعنيه، الصارف نفسه عن ما كانت تكسب من الإثم وتجنّيه. واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه، وهجر الأوطان والقطان لطلب الرضوان به واغتنامه.

فكيف به وقد أظلتكم في عقر دياركم رايته، وتجلّت بين أظهركم آيته، وتأكدت في الوجوب عليكم واللزوم لكم ولايته وولايته. واستغفروا الله إنه كان غفارا، وتوبوا إلى الله توبة تظهر تعويلكم عليها إظهارا، واحذروا ثم احذروا تماذيا على الخطيئات وإصرارا، واحرصوا على ما ينجيكم وقوا أنفسكم وأهليكم نارا. وكونوا

أرشدكم الله عن سار على الواضحة أحسن سيره، وسارع إلى نعيم هذا الأمر وخيره،
واذكروا ما حاق بالمتوقف عنه من سوء مآله وصيره، واتعظوا بغيركم فالسعيد من
وعظ بغيره.

وقد علم من علم ما من الله به من فتح هذه الأقطار، أن من كان بها من زعماء
الخسار والبوار، ورؤساء الاستعلاء الجاهلي والاستكبار، إما حقت عليه كلمة
العذاب والدمار، بعد تقديم الإنذار إليهم والإعذار، والتريص عليهم أمداً طويلاً
رجاء الاستبصار.

فلما أبوا ما دُعوا إليه من الحق، واغتروا بما عاينوه من اللطف والرفق، واختاروا
لأنفسهم الأمارة بالسوء ما اختاروه من المروق عن دين الله والفسق، أحلّ الله بهم
من ضروب الانتقام ما صيّرهم عبرة لمن يعتبر، ومزدجرًا لمن يزدجر، وآية كبرى
يتأملها من يتأمل ويبصرها من يبصر.

وتلك سنة الله فيمن صدف عن آياته، وانصرف عقب سيئاته، وتصرف في زوايا
ضلالاته وغواياته، وتوقف عن أن يستمد من مواد هذا الأمر السعيد الممدود مادة
حياته. وإن الله من تخصيص من يخصصه بإرشاده، ويخلصه لإسعاده، سرّاً بيديه
فيمن شاء من عباده، ويظهره فيمن يؤثره بحسن طويته وصفاء ضميره واعتقاده.

وقد كان الشيخ القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون أكرمه الله في هذه
البلاد المفتحة على ما عرفتموه، وألفيتموه. وكان الحديث عنه خيراً يُذكر، وجنوحاً
إلى هذا الأمر المبارك يتكتم به ويتستر.

وكان أكثر الواردين على هذه الحضرة والصادرين عنها من صنف الطلبة
وغيرهم من التجار، المتصرفين في هذه الأقطار، يصفونه بهذه الصفات الحميدة،

ويروون عنه آثار هذه الطوية الصالحة والعقيدة، وتستفيض أخبارهم فيما لديه من الإرادة الحسنة والنصيحة الأكيدة، إلى أن يسر الله ويشر له حسنه بالانتظام في هذا السلك النظيم، والاعتصام بهذا الأمر العظيم.

فصار بفضل الله عليه من أشياعه وأوليائه، وحمة أياديه وآلائه. وها هو الآن وأخوه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدون وسائر من بينهم وإخوتهم وقرباتهم - وفق الله جميعهم - يتفيئون إلى ظلاله الممدودة، ويتصرفون بأعماله السعيدة، ويردون ما يأملونه من زواله في حياضه المورودة. وذلك من فضل الله على من أهله له، وإحسانه على من أمّ إحسانه وأمله.

وأنتم - وفقكم الله - مدعون إلى الله سبحانه فلبوا، ومعنيّ بإيقاظكم من نوم الغفلة فهبوا، ومحبوب لكم الخير فأحبوا. ولن تعدموا إن شاء الله بالمسارعة الحسنة، والتوبة المتمكنة، أماناً يشملكم، وصلاً يستقبلكم، وكرامة تحلّكم في محالها وتنزلكم.

والله يسركم لما يزلف غده، ويعرفكم هُده ورشده، بمنه. ولتعلموا - وفقكم الله وسلك بكم سبيل هده - أن قصد هذا الأمر الكريم، في الخصوص والعموم، إظهار دين الله تعالى على ما أوجب وفرض، وجهاد من نكب عن سبيله وأعرض، وقطع آثار الظلمة كثيرها وقليلها، وإجراء الأمور كلها على منهجها الشرعي وسبيلها.

وقد كان بهذه الأصقاع، من آثار أهل الاختلاق والابتداع، ما علمتموه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع. وكان الأشقياء من ولائها يرون إيجابها والزامها شرعاً يلتزمون، وواجباً يقدمونه؛ ولا يلتفتون إلى ما أوجب الله من

الزكوات والأعشار، بل كانوا يطرحون ذلك اطراح أمثالهم من الفجار.

وقد قطع الله بفضله أصولهم وفروعهم، وأزاح عن عباده جوهرهم ونزوعهم ورُدَّ الأمرُ إلى أصله الأكرم ونصابه، وأجري الشرعُ بالإمام المهدي رضي الله عنه على بابهِ؛ وأراح جميع أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم، ويعرفونه من أسباب المظالم.

ولما منَّ الله على أهل البلد بما منَّ به من التسليم والتأمين، وأحلهم بفضله ورحمته كنف هذا الأمر المكين الأمين، انقطعت عنهم أسباب الظلم بانقطاع أهله، وسُدَّت عنهم أبواب الباطل كثره وقلة. فلا يُطلبون إلا بما توجبه السنة وتطلبه، ولا يُلزمون -ومعاذ الله- مكسًا ولا مغرمًا ولا قبالة ولا سبيلًا مما تسميه الظلمة بأسائها وتلقبُه. ولكن في علم ذلك ومعرفته دليلٌ على ما سواه، والله يهدي يده من اختاره وارتضاه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسة.

الرسالة الثامنة

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل عطية بن عطية في فتح قسطنطينة وإنابة يحيى بن العزيز صاحب بجاية إلى التوحيد:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بتلمسان وجميع من فيها من الموحدين أدام الله كرامتهم بتقواه سلاماً عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء على العموم والإطلاق، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق، وتمت نعمته تماماً على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق؛ والصلاة على محمد نبيه المبعث لتتميم مكارم الأخلاق، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازين أولي البواء إلى مرضاته والاستباق؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، علم الأعلام، وذخيرة الإيمان والإسلام، وبدر الكمال والتمام، الطالع بأشرف مطالع الإشراق، الفارع عند تطاول الرءوس والأعناق، الجامع أشتات الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق.

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة، ومكن في تمكينكم وإصلاح شئونكم الإنالة والإفادة، وبسط في أرجائكم ومتعلقات رجائكم اليمن والسعادة - من حضرة بجاية حرسها الله عن أحوال ترتب صلاحها على أفضل وجوده، وفتوح تتابع افتتاحها في قريب المعمور ويعيده، ويشائر ينزه بشرها وسماحها عن الجري على معتاد الدأب المألوف ومعهوده، وآيات بينات أغنى تخليها واتصاحها عن كل برهان ووجوده، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها في المستولية محصى العادة ومعدوده. نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر، وعمي

الأبصار والبصائر، تعظيم ما نشاهد ونعاين عونًا يعين وينهض، وعملاً يتخلص بشكر آلائه الباهرة ويمحض، وقوة لا تنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنتقض.

وقد تقدم إعلامكم وصل الله سروركم، وضاعف شكوركم بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسر مرامها بحوله واقتداره، ونور ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره، وصير أباطحها وآكامها من مواطي أوليائه وأنصاره؛ وكيف كانت صورة الحال في درجها. وتصرف الانتقال من محصبها إلى عرجها.

وأن أبا زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور وجميع إخوته وقرابته وخووله حين أتاهم الذائد الذي لا يكذب أهله، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتحى وسهله؛ لم يكن لهم بدٌّ عن التولي عن قرارهم، والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم؛ لأمر قضى الله فيه لهذا الأمر المبارك بخير قضائه، وشأن طوى الخيرة درج تضمنه واقتضائه، فكان مأمهم الذي اعتقدوا منعته وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته، بلد قسطنطينة عمره الله لكونه بحيث لا يُنال بقدرة مخلوق، وأين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق.

وكانت جملٌ من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه، واعتدادهم في عداد من يحويه ويؤويه، بجهة القلعة حرسها الله على أثر فتحها الميسر، ونيل أجرها على الوجه المتخفي، فأنهض منهم بعون الله إلى تلك الجهة من رُجي الخير في إنهاضه، وحُض على خدمة هذا الأمر وإعراضه. فحين أُمّ الناهضون المذكورون وفقهم الله بجهات قسطنطينة حرسها الله فُتح لهم الفتح الذي تقدم إليكم بيان القول فيه وإعرابه، وأورد عليكم إبداع القدر في تقريبه وإغرابه، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال وأحزابه؛ وحلّ الموحدون هناك وفقهم الله بساحة ذلك القطر وذراه، وغشيه منهم ما غشيه وغراه، وما ترك القطابه أن يقطع كراه.

وكان التخييم الملاصق، والتدويم المراهق؛ والحق يتجلى، والنصر يتولى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولى، إلى أن صرف الله ألباب القوم المذكورين إلى قبة الإصابة، واراهم أن النجاة في جانب هذه العصابة، والحياة في قرارها الذي هو مقرّ قرار اليمن والمثابة؛ فاتفق رأيهم على إنقاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صنهاجة وقسنطينة معتصمين بهذه العروة الوثقى، مستسلمين للأمر الذي لا يقابل بعناد ولا يلقي، سائلين من التأمين والإبقاء ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى.

ووصلت الجماعة المذكورة إلى هذه الحضرة المخروسة، يسعى أملها بين يديها، ويعرف القصد عما لديها، وأنهت ما تحملته من المخاطبة، وأمّته لها ولن وراءها من حسن العاقبة؛ فمنّ الله على جميعهم بتيسير مطلبهم، وإجمال منقلبهم؛ وصدروا إلى مُرسلهم تتهلل أسرّتهم، وتحمل بحلل العافية والنعمة الصافية كرّتهم. فأتوا قومهم على تطلّع إلى بشراهم، وتمتّع بطيب ذكراهم، وأعلموهم بالصنع الذي عرفهم تعظيم صنع الله وأدراهم. فرأوا أجمعين أن الله سبحانه سنّى لهم بفضل غاية ما طلبوه. ورزقهم من حيث لم يحتسبوه؛ ووهبهم من إيواء الفضل وقبوله فوق ما استوهبوا، حين لم يكن لهم منجأ إلا الذي نزعوا عنه وغربوا.

وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الأمر وتحققه، وتعرّف سنة هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه؛ وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل الله ورحمته الواسعة، مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة. ودخل القطر من أمانء الموحدين وغزاتهم وفقهم الله من أمر بعمارتها، والاستقرار في قرارته. واستقبل أبو زكرياء المذكور ومن معهم وفقهم الله هذه الجهة حرسها الله على أحسن حال، وأكرم إقبال.

وأتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط، والصنع المبسوط، إتماماً بلغ الأمل غاية مأموله، والسائل كافة مسئوله. فذلك القطر هو الطرف الأعلى، والرابط الأحق

الأولي، ورأس الجسد الذي استتبع بعضه بعضًا واستلّ؛ وبه انعقدت روابط هذا الإقليم العظيم وقواعده، وفقدت ضرر من كان ينوي الضرر فواقده، ومعه متأتى جمع شمله وضمه، وإمساك شأنه كله وعزمه، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه. والله نسأله بشكر هذه النعم المتظاهرة عونًا ممدودًا، وحولاً بمعاهد المعونة الربانية معقودًا، وقوة تلقى من حمدّها إلى كل جديد منها جديدًا؛ بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في العاشر من شعبان سنة سبع وأربعين وخمسة.

الرسالة التاسعة

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الشيخ أبي محمد وسنار،
وجاعة أصحابه الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة من أهل مراكش أكرمهم الله
بتقواه، وأعانهم على شكر نعماءه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي تكفل بوعد الصادق إتمامه وإنجازه، وتحصّل لحزبه
الآخر السابق إعلاؤه وإعزازه، وتقلقل في عدوه الفاسق المارق قهره وأعجازه؛
والصلاة على محمد نبيه الأمين، الذي أظهر على حقه المبين، إظهاره وإبرازه، والتفت
على أمره المكين، صدور العلاء وأعجازه، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، الذي تجلّى
بهم تعيّن الإسلام وامتيازُه؛ والرضوان المستدام عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم،
موضح سبيل الرشاد حين عم استغواء الشيطان واستفزازه، ومُنْجِح أسباب الارتداد
إذ تيسر اغتنام المطلوب وانتهازه.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله من عباده الشاكرين في الرعيل الأول، وعرفكم
عوارف الصنع المنيف بكم على المحبوب المؤمّل، ولا أعدمكم بوصل الاستيلاء،
وإدامة الإظهار والإعلاء، وعزّة حاملة على سنامها المذلّل، شاملة بغماتها المضللّ،
عاملة على تمامها المكمل - من حضرة تلمسان حرسها الله وقد تعالى فتح الله أن تحيط
به الأقوال، وتجاوز ما تطمح نحوه الآمال، ويتناهى إليه الطلب والسؤال، وعلى
الروية والمرؤى فما البديهة والارتجال، وانتشر على البلاغة والإدراك فلا التقسيم ولا
الحصر ولا التفصيل ولا الإجمال؛ ومع اعتماد التحقيق، وارتداد التصديق، فما الأمر

مما يدرك بنعت ولا ينال .

وقد تقدم إليكم وفقكم الله وأعانكم على شكر ما آتاه من ذكر ما تحملته الإشارة والإلماع، ولهذا الكتاب التالي، الذي من شأنه برزت الأيام والليالي، بُدِّ قررها الأصفاق والإجماع، وبِشْر انتهت عند أولها الأمانى والأطماع.

فقد كان صنع الله في افتتاح هذه البلاد الشرقية على ما تقدم ذكره من التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع، وإراحة النفوس بإزاحة القواطع والموانع؛ وهذا الأمر العظيم في درجاتها يستعلى، وعلى غاياتها ونهاياتها يستولى؛ وبركات باسطة في الوجود، وحائطة على الرسوم الشرعية والحدود، يستتبع نواشئ النماء المزيد ويستلئى؛ حتى جمعها بجوامع القهر، وأنطق فيها لسان الإيمان إنطاق الإعلان والجهر، وصير غرائب التفسير فيها آيات بينات على باقيات الدهر؛ ومن يرتضع أشطرها من الأعراب، ويودع أعمارها دواعي الجلاء والخراب، قد قذفهم الغلبة حيثئذ إلى صحرائها. ونبذتهم الروعة بعرائها، وحدثتهم حال الكرة المهدية عن كماتها وضرائها.

فصاروا بين تدافع الحيرة والتهيه، وتراجع التخيل والتمويه، مظهرين الإنابة إلى المتاب، متكررين في أكثر الأحيان على مراتب الشك والارتياب. وعساكر الموحدين المتقدمة إلى فتح القلعة وقسنطينة حرسهما الله مخيمون على إشعال تلك الجهات بإزائهم، حريصون على غزوهم في عقر مواقعهم ومراقب انتزائهم، راغبون في الإذن لهم بمسئولهم، ناظرون إلى منشآت خيال الضالين وتخيلهم.

وهم آخذهم الله في خلال ذلك يوالون المراسلة على معنى المخادعة، ويخافون عقبى المصارمة والمقاطعة، ويترددون في التقدم والتأخر مع الانقياد والمنازعة؛

واضطرابهم في أحوالهم تلك مستوضح، وارتياهم مع ظهور الجلاء ممقوت مستقبح؛ والأمن مع ذلك يتفقد الموحدين المذكورين بالتأكيد عليهم في الإضراب عنهم وإن سفهوا، والألباب على تنبيههم ليتبهوا.

ورسائلهم ورُسُلهم أثناء ذلك تقابل عندنا؛ فعادة هذا الأمر العزيز هي الاحتمال والإجمال، والرفق بالجهال، ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والإسهال؛ لتشملهم التوبة بحسناتها، وتقابلهم الرحمة بأكرم وجوها وأسناها، وتتناولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها؛ إذ لا مراد من أهل الدنيا إلا توبةٌ يصدقونها، وعقيدةٌ بالإيمان يحققونها، ويدُّ بالطاعة يمدونها إلى الشريعة ويلقونها.

فلم يرد الله إلا أن يكون هؤلاء الأشقياء ممن تقذفه الهلكة إلى سحيقها، وتتقسمه النعمة بأيدي تبديدها وتمزيقها، وتنصبه العبرة على منزوحة سبيلها وطريقها، لأنهم كانوا خلال ما ذكرناه لكم من أحوال استئلافهم، والتصبر على حفاتهم وأحلافهم، وإمساك الموحدين عن مقدورهم من تدميرهم وانتسافهم؛ يخاطبون جميع من ببلاد إفريقية وما يتصل بها إلى جهات الإسكندرية من العرب المغمورين بغوامر الجهالة، المغرورين بأوامر الضلالة، مخاطبة الاستصراخ والاستنجاد، ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد.

فحين شاء الله أن نحق عليهم كلمة العذاب، ونشق إليهم مهامة ذلك اليباب، عند العزم على هذه الحركة الميمونة لمعنى الانصراف والإياب، أتت بالحائمين أرجلهم، وعجل إليهم بالدمار تعجلهم، وأسرع به الويل لا يؤخرهم عن ميقاتهم ولا يؤجلهم. وأقبل جميع من ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بن عامر من عرب اليمن، وشعوب الحروب والفتن، بقضهم وقضيضهم، عاملين

على إغواء إخوانهم الضالين وتحريضهم، نافرين أفواجًا بعد أفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهم، حتى التقى المصرخ والمستصرخ.

وقعد الشيطان على نحورهم أجمعين يتبن وينفخ، وألقى في قلوبهم المظلمة أن يكون جيشهم الذي يدوخ، وأراهم أن الجميع مروعٌ بهم روعًا لا يسكن ولا يفرخ؛ وزين لهم سوء أعمالهم والله يكتب ما يعملون ويستنسَخ. فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد، وكتائبهم تتعاقد على الاعترام وتتعاقد، وأمدادهم التي غصت لها تلك المِشارع المعينة والموارد، تتناصر على رايها الخاسرة وتتعاقد، إلى أن انتهوا ما لا يتهيء العد خيلًا ورجلا، وعمَّروا أنجاد تلك الأرض وأغوارها وعرا وسهلاً؛ فما استطاعتهم جملا، ولا وسعت أن تكون لهم قرازا ولا أن يكون لها أهلا.

والموحدون الكائنون إذ ذاك هناك مقبلون على ما أمروا به من ارتحالهم إلى العرب وانتقالهم، والكف عن معارضة أولئك الخاسرين وقتالهم؛ فزادت تلك الحال الظاهرة اغترارا، واقتضت عندهم عفوكا على الطغيان وإصرارا، والأقدار تجرهم برسن الإهمال إجرارا، وتطوى في صدر الزمن مخبئات من الامتحان وأسرارا.

فكلما رحل الموحدون المذكورون إلى مآقهم مرحلة رُحل الضالون على أثرهم، وعملوا على شاكلة تخيلهم الذميم وتصويرهم، واعتقدوا مصابقتهم في المحال، وتمكنهم من ذلك السعي الضال، قدرة من قدرهم، ونتيجة من نتائج آرائهم ونظرهم، بوادي الأقواس بجهات سطيف عمَّرها الله ورأوا أن الأشقياء المذكورين يلازمونهم ملازمة الظل، ويرادفونهم على الترحال والحل. وأن الحال تقتضي مناجزتهم ومفاصلتهم، وتوجب مقارعتهم على دين الله ومقاتلتهم.

ولم يجدوا دواءً يشفي من دائهم العضال، ويستوفي الإراجة منهم في تلك الحال، إلا العزم على جهادهم بعد الاعتماد على ربهم والاتكال؛ فخطبونا بعزمهم على ذلك، وأعلموا بصورة أحوالهم هنالك، وعرفوا بكونهم عند مخاطبتهم المذكورة ناظرين في غزوهم، مجيلين في لقائهم بعون الله تعالى أعنةً عدوهم.

فكان من التوفيق الممنوح، والرأي السالك إلى السداد سبيل البيان والوضوح، وإنفاذُ جُملِ مباركة وأعداد مسددة من عساكر الموحدين أعانهم الله إلى الجهات المذكورة على وجه الاستظهار بحركتها، والاستكثار من بركتها؛ ونحن إذ ذاك بمتيجة عمّرها الله على سبيل الصدر، وحالة المعلن المقدر.

فبذل الموحدون الناهضون إلى إخوانهم جدهم في السير، ورجوا نيل حظوظهم من ذلك الخير؛ فلحقوا بهم أعان الله جميعهم على المرغوب والمرجو، وأطلوا على جنابهم إطلال الظهور والعلو، وكان الاتصال بفضل الله قبل مناجزة ذلك العدو. وألفوا آجالهم أعانهم الله على غاية من الاستشراء، ونهاية من الاسترسال على تلك الأذراء؛ واجتمعوا على بركة الله اجتماعاً أحمدوا عاقبته، وقصدوا ملاحظة أمر الله تعالى ومراقبته، ودارت بين الموحدين أعانهم الله مواعظ التذكير والتذكر، وتقررت عزائمهم على نصر كلمة الله كل التقرر، وحسن المتاب ورُجي الثواب للأمد المضروب والميقات المقدر، وقصدوا أعداءهم بعد الاستعانة بالله والتوكل على نصره المؤزر، عندما أشرقت شمس الضحى، ونُصبت رحي الحرب فكانوا قطب الرحي، وانتحى من نصر الله وفتح القريب من حزيه المظفر ما انتحى.

ولحين ما عاين أعداء الله قصد الموحدين على مضاء الاعتزام، وباشروا آثار الارتباط الإيماني والالتزام، راموا فحيل بينهم وبين المرام، وتخيلوا الإقدام على ثبت الأقدام، من مدارك أمثالهم من الطعام، وأشكالهم من الأوباش الليثام، فلم يُغن

عنهم عمل الأوهام، من هول ذلك المقام، وأحْدق نصر الله بأوليائه إحداقاً جمعهم على أقطاب الالتئام، وأودعهم خلال البرّة الكرام؛ وكانت للكافرين دفعات جاهلية عادت بها عليهم عوائد الانتقام، والتقمّتهم الحرب الزبون عندها أوحى الانتقام؛ وكابد ذلك الهول الكبار جميع فرسانهم وأعيانهم، ومن يدعي البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم، فالتقت عليهم حلقتا البطان، واستقبلت بهم تلك الهزيمة الشنعاء جهات تلك المراحات والأعطان.

فاختلطوا بمواشيهم اختلاط الأنعام بالأنعام، وأزعجت أوساطهم إلى حواشيهم إزعاج الإرهاق والإرغام، وفَرَّقُوا ولا حول ولا قوة إلا بالله تفريقاً بعد الاجتماع ونثرًا بعد الانتظام؛ وأخذت المنايا تلتقطهم، فتشرهم على الأرض وتبسطهم، وتُرِيهم أن الغواية توقع الغاوين وتورطهم.

واستمر القتل فيهم والاتباع لهم من أول ذلك اليوم المبارك إلى آخره، ولم يسر الموحدون فيه على ما ذكره إلا بين إبل راتعة وسائمة، وخدورٍ على عمدتها منصوبة قائمة، وأبقار وأغنام لم تُحِطْ بها الأبصار، ولا قيدها في عيون الناظرين التناهي والانحصار، وغير ذلك من أنواع الأنفال، وضروب المغنم التي لا تجري على حكم التمثيل ولا الأمثال، حيٌّ إلى جنب حي، وشيءٌ متصلٌ بشيء، مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال.

فبأعداء الله بما بهم من قتلٍ مُقْنٍ، وانهمام مُبْعِدٍ وحام مُدْنٍ، وانصرامٍ بكل صارمٍ ماضٍ وانتظامٍ بكل ناقدٍ لذنٍ؛ غشيتهم تلك الغواشي الغوامر، فذل لها المأمور منهم والأمر، وحق الويلُ بهلال بن عامر، أقلّ الهلال وخرب العامر، ولم يحل بين سيوف الموحدين، ورقاب الفل من أولئك المفسدين، إلا ليلٌ أجته بغسقه، وطواه على أخريات رmqه.

ثم انقسمت جيوش الموحدين وفرها الله صبيحة اليوم الثاني إلى أقسام أخذ كل قسم منها سبيلاً غير سبيل غيره، واستقبل ما يستقبله الطالب المجد من قصد مرامه وإعداد سيره؛ فمنهم من غاب عن المجتمع، وجدَّ في ذلك الاتباع والتبع، أربعة أيام وأكثر وأقلَّ كلُّ يغزو ويغنم، ويجول في تلك المهامه الفيح لا يضني ولا يتلوم، حتى انتهوا إلى أوائل بلاد إفريقية وما يجاورها، لا يرون لبقية المارقين أثراً، ولا يجدون محدثاً عنهم ولا مخبراً.

ثم آبوا بفضل الله ورحمته ومعهم من الأنفال المضافة إلى ما تقدم ذكره، والغنائم التي يتضاءل لها عدُّ كلِّ عادٍّ وحصره، ما لا يعبر عنه بعبارة تحديد، ولا يتوهم متوهم أن وراءه في الكثرة من مزيد. وأخذ الموحدون أعانهم الله بعد اجتماعهم على مركزهم، وظفرهم بمحبيهم وبمنجزهم، يضمنون من سبي الكافرين وغنائمهم وما أوبقته الحرب من خيلهم وسلاحهم ما لا يستطيع الضم، ولا يتناوله الكثير الجم. ثم أخذوا في الحركة بما أقدروا على سوقه من ذلك إلى هذه الجهات حرسها الله بعد أن لم يتمكن لهم بوجوه من الوجوه عد ما تحملوه، ولا استولت إحاطتهم على ما نقلوه. وهم الآن رعاهم الله مقبلون بها على أتم ما تتعلق به الآمال البالغة، وتقتضيه الكرامة السابعة.

وأعلمناكم بذلك أعزكم الله ليعظم منالكم من هذا الفتح الذي طبَّق الآفاق حديثه، وملاً الأبصار والأقطار منشوره ومبثوثه؛ ولتشكروا الله عليه شكرًا يستنفذ غاية استطاعتكم، ويستنجد عزائم نشركم له وإذاعتكم. والحمد لله الذي عمَّنَّا وإياكم ببركاته، ونصب على حقيقة هذا الأمر الحق إلا من أدلة آياته، وجعل العاقبة لأولياء دينه المتين وولاته. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب مستهل ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسة.

الرسالة العاشرة

لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور^(١):

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، ويسره لما يرضاه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العونُ لأوليائه والإقدار، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستتار؛ والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بحجته الكفر والكفار؛ وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرين والأنصار؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار، وتقدم الامتعاظ له والانتصار. وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم نظرًا يريكم المنهج، ويُلقيكم الأبهج فالأبهج؛ وآتاكم الله من نعمة الإيمان، وعصمة الانقياد له والإذعان، ما تجدون به اليقين والثلج - من حضرة مراکش حرسها الله تعالى ولا استظهار إلا بقوته وحوله، ولا استكثار إلا من إحسانه وطوله.

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمةً لخلقه، ومطيةً لرقبه وقرارة لإقامة حقه؛ وحمل حملته الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه؛ وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبة، وأحكامه المرتبة، ومنجاته المخلصة من الخطوب المهلكة والأحوال المُعطبة؛ رأينا أن نُخاطبكم بكتابنا هذا أخذًا

(١) راجع كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي، ط مصر، (٦/ ٤٤٣-٤٤٥).

بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتوصيله.

فأجيبوا رفعكم الله داعي الله تسعدوا، وتمسكوا بأمر المهدي رضي الله عنه في اتباع سبيله تهتدوا؛ واصرفوا أعنة العناية إلى النظر في المآل، والتفكر في نواشئ التغير والزوال، وتدبروا جري هذه الأمور وتصرف هذه الأحوال، واعلموا أنه لا عزة إلا بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال؛ ولا يغرنكم بالله الغرور، فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال، وليس لكم في قبول النصيحة، وابتداء التوبة الصحيحة، والعمل بثبوت الإيثار في هذه العاجلة الفسيحة، إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمانة والدعة، والكرامة المتسعة، والمكانة المرفعة، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة. فنحن لا نريد لكم ولا لسائر من نرجو إنايته، ونستدعي قبوله وإجابته، إلا الصلاح الأعم، والنجاح الأتم.

وتأملوا سددكم الله من كان بتلك الجزيرة حرسها الله من أعيانها، وزعماء شائها؛ هل تخلص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويعدّه، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأديم الأبقى، وتنعم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقى. وأما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه، فقد علم بضروري المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنقل منه حادث الانتقام أخسر ما تنقل به.

وحق عليكم وفقكم الله ويسركم لما يرضاه أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا الادكار والاعتبار، وتبتدروا الابتدار. وما حق من انقطع إلى هذا الأمر الموصول الواصل، وأزمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل، أن يناله منكم شاغل يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوبه ومودوده؛ فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية

حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، ما كان.

ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في أمر أهل لورقة وفقهم الله حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم؛ وليس لذلك وأمثاله عاقبة يُحمد، فالخير خير ما يُقصد، والنجاة فيما يُنزع عن الشر ويُبعد. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظرٌ موفق، ومتاعٌ محقق؛ ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذبٌ يُسعد، وسائقٌ يُرشد. والله يمتنُّ عليكم بما ينجيكم، ويمكّن لكم في طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم؛ بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسةائة.

الرسالة الحادية عشرة

وهي عديمة الرأس لبتر وقع في المخطوط المنقول عنه، ولعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

وهذا كتابنا - كتب الله لكم ملء القلوب، من الإضاءة والتنوير، وكفاء الظواهر والغيوب، من التلخيص والتطهير، وأعاذكم بعصمته من تقلبات التبديل والتغيير، ونجاكم برحمته من موبقات التفكير والتقدير - من حضرة مراکش حرسها الله ونحن نشكره سبحانه على ما وطأ أمره العزيز ومكّنه، وأضعف به كيد الشيطان وأوهنه، ومهد بإثارته هذا القرار الأمين وأمنه؛ فلله عز وجل في كلاءة هذا الأمر المحفوظ وحراسته أسرارٌ يمكن الإيثار تصفحها واجتلاؤها، وأقدارٌ ييسط الدعوة والأمان اختيارها وابتلاؤها، وآثارٌ يبعد بها عن مبلغ الأعداء ومدارك الأشقياء سمو هذه الدعوة واعتلاؤها؛ وهو أمر الله الذي لا يضره مناوئه ومخاذله، وعهده القوي الذي لا يتاله أوباش الظلم وأراذله، وكلمة الله التي لا يثني المؤمن عنها عاتبه العتيّ وعاذله.

وقد تجدد الآن من نصر الله وفتحته، ما تعجز القوى البشرية عن شرحه، وتظهر العناية الربانية في بذله ومنحه؛ وإن كانت العبارة بأوائل ذكره مستنفدة، والنعوت والأوصاف في حقه منحطة إلى أرض القصور مخلدة؛ ففي إلقاء الممكن من حديثه مجالٌ للاعتبار، ومثالٌ لعزیز الآمال والأوطار، ومآلٌ لناشئ التيقن والاستبصار؛ وما هي إلا آيات بينات غشي العالم نورها، وحقائق جليات اضمحل لها إفك الكفرة وزورها، وجنود معناويات برز لنصر هذا المحسوس النفيس محجوبها ومستورها.

وذلكم أن الأشقياء فلانًا وفلانًا وأصحابها كانت نفوسهم الخبيثة كامنة على أذاها، وعيونهم السخينة نائمة على قذاها، وفطرهم الفضة ناشئة بها مدها من الغلظة وآذاها؛ ولم نزل بعد الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه من أول هذا الزمن نحملهم في حجر الكفالة والكفاية، ونجريهم بمجاري العناية والخفاية، ونسعى في تدريجهم على مدارج المعرفة والدراية، ونأخذ بأيديهم وهم يخرجون على وجوههم الغاية بعد الغاية، ونرى وصل أرحامهم التي قطعتها شقاوتهم من جملة ما يجب لحرمة المهدي رضي الله عنه من الحفظ والرعاية؛ وهم خلال ذلك أغمارًا لا يفهمون، وسوائبٌ لا يقفون عند حد ولا ينتهون، وهمّل يريدون التصرف في المنكرات بما يشاءون ويشتهون؛ دأبهم استخلاصُ الفسقة، واستصحابُ الخونة من حثالة الناس والسرقة، والاسترسال في مذاهب الأنعام المرسلّة المطلقّة.

ونحن مع الأخذ بأيديهم، وكفهم عما يردّهم، نرجو أن شعب الجنون من شبابهم تسكن، ومستأنف الأحوال من قبيح آدابهم يحسن، ودائب الرفق في عتبهم وإعتابهم يدرب ويمرن؛ وسابقُ الشقاء مع ذلك يستتبع فيهم لواحقه، وينصب بينهم وبين السعادة قواطعه وعوائقه، ويحمل آراءهم المنقومة، وحوادثهم المذمومة، حوادثه وبوائقه.

فلا يلحظون جهةً من جهات التقوى بطرف، ولا ينتفعون من كلمات التذكير وحروف التنبيه بكلمة ولا حرف، ولا يتعرضون لقبول الله بشيء من أعمالهم في عدل ولا صرف، حتى انتبذوا عن أمر المهدي رضي الله عنه بالغراء، واتخذوه وراءهم ظهرًا بجانب الإبعاد والإقصاء، وصارت حرّماته عندهم متهكّة، وأماناته مستهلكة، بيد الغضب والاعتداء، وأظهروا عورةً ما استطاع سترها بوجه من وجوه الستر الشرعي والإغضاء؛ وكلما ارتفعت أسنانهم إلى أطوار الكهول، وخيلت

هيئاتهم وأبدانهم أنهم في حد أولي الفهم والعقول، هوى بهم حرمانهم في غيابات الغفلة والذهول، واجتاز بهم شيطانهم إلى حضيض الجور والنكول.

واقترن بهم من قرناء الرجس، وشيطان الإنس، من كان يلقي إليهم زخرف القول غرورا، وَيَعِدُّهُمْ بِمَا يُوْهَلُونَ له جذلاً بنيله وسرورا، وَيُرِيهِمْ نُجُومَ الْغَفَلَاتِ، ذهاباً بهم إلى المهلكات، ومرورا.

ومنع ما كان الأمر يتوسع لهم من الأرزاق المنعمة، والخيرات المتممة، والمنازل المكرمة، والخيال المسومة، فلم يكن مستطابهم إلا غلوّاً يحترقون بناره، ويتطوقون بعاره، وينطلقون في أنجاده من تهاوشه وأغواره؛ والنصائح أثناء أحوالهم، وإزاء أهوالهم، تروم إحصاءهم من سكرتهم، وإقالتهم من عثراتهم؛ فلا يزيد الإرشاد إلا غيًّا، ولا تسمع الموعظة من حيهم ليًّا، حتى تفاحش منكرهم، وتطابق مظهرهم الخاسر ومضمرهم، ولم يَقِفْهم عن محارم الله تعالى ما يَقِفْ أهل المروات ويزجرهم.

فلما أشرف على دائهم الإعياء، وتجاوزهم الاستهتار والإغواء، ولم يردِّهم من خباثت إرادتهم الخوف ولا الحياء، هجروا قصد التأديب بالهجر، ووقفوا موقف الردع والزجر، واحتملت المشقة في التماس ما عسر من تعليمهم وتقويمهم رغبة في المثوبة والأجر؛ ثم لَوَحِظَتْ رعاية ذمامهم، وثبتت القلوب على جانب استعطافهم واسترحامهم، واعتقدوا الصديق فيما ادعوه من التوبة لاحتقار آثامهم، ويؤمن لهم أن الذي يثبت به شرفهم، ويرعى معه أولهم السابق وسلفهم، إنما هو الاستمسك بعروة الدين، واتباع أمر المهدي رضي الله عنه على الثلج واليقين، والتأديب بآداب الطائفة الصالحات في كل الأعمال والشئون.

وَنُهِوا عن مخالطة الأوباش، ومداخلة أهل الانزواء إلى باطنهم والانحياش؛

فأظهروا الاعتزال عما كان المتاب منه، ثم عادوا على إثر ذلك لما نُهوا عنه، وتردد الردع لهم والزجر وتريد الشرك والقرع، وتمكّن في تعريفهم، لتبديلهم وتحريفهم، الإيضاح والصدع، وهجروا مرة بعد مرة، فعادوا إلى سيئاتهم كرة على كرة، واستبطنوا من سحرتهم وكهانهم شرفة وأسوأ عترة، وترددت عقولهم المعقولة بين نفائة في عُقدها، وعاكف على ارتكاب القرانات وترصدها، وحاكم على غيب الله بخروج الاشكال من الاشكال وتولدها.

فاستمر تخبطهم في مسالك العطب، وتورطهم في طلب وعدهم المرتقب، وزين لهم ما في استهواء الناس بمنصبهم، ودعائهم في السر إلى اعتقاد مذهبهم؛ وناجاهم على ذلك من شيطانهم جمع، وألقى إلى حديثهم المفترى نصرًا من المذنبين وسمع، والأمرُ إذ ذاك عندهم على استتار واحتجاب، وهم من العثور عليهم وتوجّه النقمة إليهم في شك وإرتياب؛ وعندنا من تحسين الظن بالكافة غاية ما يمكن، ومن معاملة الجمع بالجميل ما يجب لله تعالى ويتعين؛ والأشقياء المذكورون لا يرون الإحسان إحسانا، ولا يتزيدون مع الرفق بهم ورجاء الخير فيهم إلا نفاقًا وطغيانا، والآيات تُسمع وتتجلى فلا تلقى منهم إلا صمًا وعميانا؛ ونار الحقد في جوانحهم تتأجج، وسموم الغل تتمشى في أعضائهم وتندرج، وهم من تزيد الكرب وتأكد لهم بما يسرّ هذا الأمر العزيز ويهيج.

فلما كانت الغزوة التي فُتحت فيها بجاية وسائر تلك البلاد الشرقية وظهر من نصر الله هناك العجب العجائب، وتأتى بها من غرائب التسهيل والتيسير ما بهر العقول والألباب، ثارت كوامنُ حسدهم تطرق وتتاب، وأنفرت حياتُ إذايتهم تنسلّ وتنساب، وسلكوا في التحريب والتخريب مسلكًا لا يُشكُّ فيه ولا يرتاب.

وكان لهم في الشقي فلان عمدةٌ كبرى، وعدةٌ أجرى لها القدر من حكمه

المستأصل ما أجرى؛ فاطلع الله على مَرّه الخبيث قَبْلَهُمْ، وصَرَّم بانتقاله حبله وحَبْلَهُمْ، وتعجل إليه النظر المتدارك فقيده وعقله، وطرقه الأمر المعاجل فاستاقه ونقله؛ وأقام في السجن إلى أن كان الإياب إلى هذه الأقطار، بحكم الاستحسان والاختيار؛ وأوضح الله عند ذلك من بواطن أولئك العادين الماكرين، وسائر أولئك المنافقين الكافرين، ما توالى على وضوحه وظهوره خمدُ الحامدين وشكر الشاكرين.

فَنُظِرَ بَعُونَ الله في إطفاء نورهم قبل اشتعالها، وقطع موادهم قبل تسربها واتصالها، وجزَّ رؤوس الفتنة عند صراخها واستهلاكها. وقُتِلَ فلان بن فلان ومن جرى مجراه في الشقاق والنفاق، وأُخِذَتْ على الكفرة والفجرة مخارج الجهات وثنايا الآفاق، وتقبضت على الباقيين منهم يد الأسر بعد الإثخان وشد الوثاق، واقتضى الإبقاء والإملاء في الشقيين الباقيين فلان وفلان وتأخيرهما بقدر الله عن ذلك المهلك، والعدول بهما إلى سبيل النجاة من ذلك المسلك، على تيقن من فسادهما، وخبث اعتقادهما، وانبعاثهما إلى أسباب نفاقهما وارتدادهما. وأقاما بهذه الحضرة حرسها الله في قيد الغفلة، وفترة المهلة.

ثم ظهر أن الغاية القصوى في التجاوز عن عظيم ما اجترحا، والتغافل عن مؤلم ما تمنيا واقترحا، أن يُرْسَلَ من عقاب الاعتقال ويسرحا؛ واختير لهما سكنى فاس حرسها الله بجميع أهليهما وبنيهما ليتزلوا بقرارتها خير منزل، ويكونوا لتمييز أحوالهم هناك بمعزل؛ وأمر لهم بما يقوم بهم من المؤاسات، والمحترث والجنان، والتفت فيهم جانب الرحمة والجنان كل الالتفات، ليلغ الحجة عليهم منقطع الآماد وغاية الغايات. فكانوا هنالك تتجافى جنوبهم عن مضاجعها، وتترامى قلوبهم إلى مساقطها المردية ومواقعها، وتترامى غيوبهم في محالها من الافتتان ومواضعها. وتسلى إليهم من أشقيائهم متكهنٌ جرى منهم مجرى الدم، ولاصقهم في عقر

ديارهم ملاصقة الألصق الألزم، وزادهم خبالاً إلى خبالهم في روم الهجوم والتحم.

فلما سار الموحدون أعزهم الله إلى رباط الفتح عمره الله واتفق هنالك من عقد هذه البيعة السعيدة ما اتفق، وتم أمرها بحمد الله على ما أجمع عليها الملأ وأصفق، طرق الأشقياء المذكورين من قاصمة ظهورهم ما طرق، واشتعلت لها نار الحسد بين ضلوعهم فالتهب شواظها واحترق؛ وأتاهم من حلولها في نصابها، وقطع آمالهم من اختلاسها واغتصابها، ما أراهم سقوط أرواحهم الخبيثة بمركز قيامها وانتصابها، وحلول القارعة بأفئدتهم الفانية بالآلام الحسرة وأوصابها.

وكان لهم من أوليائهم في الغي من يريهم الفرصة في هذه الحضرة حرسها الله بمعرض الانتهاز، ويمد إلى وعدهم المكذوب أكف الاقتضاء والاستخبار، ويروم الخروج بهم عن خموله وذلته إلى حين الظهور والاعتذار. وكانت المكاتبه بينهم وبين كثير من المنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر، ويستبطنون الغوائل والغوائر، بأن يكون ورودهم على هذه الحضرة حرسها الله بغتة تفجأها، وعلى حين غفلة لا تمهلها بزعمهم ولا ترحبها؛ ولم يعلموا وقمهم الله أن وقاية الله هي التي تعصم، وأن عروته الوثقى لا تفصل ولا تفصم.

فسار إليها الأشقياء المذكورون من فاس، والحين يريهم كل تخيل فاسد وقياس، ويوهمهم وقد طبع على حواسهم أن ليس في مغالبة الله من باس؛ ومروا بنظير وما يؤازره على تلك السبيل من بلاد صنهاجة فوجدوا هنالك من أعداء الله من أضافهم وزودهم، وأجراهم من البر بهم على ما عودهم.

فتمكّن اغترارهم، وتوجه استعجالهم وابتدأؤهم، ووصلوا خارج هذا القطر حرسه الله وقد تعلق بأهداب الليل نهارهم، وتأتي احتجابهم بظلامه واستتارهم؛

فدخلوا عندما مضى منه هده، وغشيه من زمانه بدء؛ فقصدوا الديار التي كانت لهم ولقرباتهم فاحتالوا أوساطها، واستغشوا أوباشها وأخلاطها، وتوخواً لتوصل غدرهم مربطها بهذه الحضرة حرسها الله ومناطها؛ وباتوا ليلتهم تلك واثقين على ترتيب أمرهم المختل، متوكلين على أولئك المنافقين بذلك الربط المنحل، ورأوا بما اعتقدوه من تيسير الفتك وتأتيه، أن النهار أبسط لقصده وتوخيه.

. وعلموا أن الشيخ الشهيد أبا حفص عمر بن تفرجين رحمه الله كان العامل على هذا القطر والناظر فيه؛ فقصدوه عند خروجه إلى الجامع وقد أعد لصلاة الصبح عدة المُنخبت الخاشع، وأجاب الثوب إجابة السامع الطائع، وارتدى من الطمأنينة رداء الساكن بقرارها الراجع؛ فهجموا عليه فاغتالوه بأيديهم عند لقائه، وتركوه مقتولا في سبيل الله بحياته الدائمة وبقائه؛ وركبوا خيلهم التي تسابقت بهم إلى مصارعهم، وأوردتهم على قواصمهم وقوارعهم.

فجالوا بها خلال الديار، ونادوا أثناءها بالأعوان والأنصار، وألقوا إلى مواعدهم الأخسرين أبصار الارتقاب والانتظار؛ فعاجلتهم بواطش الاقتدار، وفضحهم بمراى البوار والخسار ضياء النهار.

ورأى الناس أنهم الأشقياء الذين تبين اعتقادهم، وتراءى لهم قيامهم بالليل واستبدادهم، وتبرأ منهم الشيطان إذ تحصل لهم كفرهم وارتدادهم. فالتفت إلى قتلهم العامة، وجلّت به الصاخة والصامة، وأسلمتهم لعواقب الحين الشيعة والحامة، وقتلهم من جنود الله من لا يُعرف وحق بهم من بأسه سبحانه ما لا يرد عن القوم المسرفين ولا يُصرف، وأطفأ الله نارهم في مثل ارتداد الطرف، وصرف بأسهم عن الذين آمنوا بالطف وجوه الصرف؛ ولم يكن بين رويتهم على متون السوابح، ووقوع نحورهم وحلوقهم على غروب النواحر والذباح، إلا مقدار نظرة

الناظر ولمحة اللامح.

وأبرزوا هنالك خارج المدينة بقاع قرقر، تلفح وجوههم من عذاب الله كل ريح صرصر، مرتنين بأثامهم، مسلمين بإسلامهم لإسلامهم، منكوسة ذوائب هامهم بين أقدامهم، تخطب العبر بأفنية إفنائهم وإعدامهم؛ ويفصح الحق أنهم المفردون يوم يدعى كل أناس بإمامهم؛ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، وآية تجردت في محو آثارهم عن ظواهر الأسباب، وفاتحة طرحت أشعة نورها وأبقت آثار تطهيرها على أخريات الأحقاب والأعقاب.

ولما اجتمعنا وفقكم الله بهذا القطر الذي نفى الله خبيثه، وخلصه بما ألقاه الشيطان ونفته، نُظر بعون الله في موجب البحث والتنقيب، ونيطت بأنقاب الأمر طلائع الأرصاد والترقيب؛ فأعثر الله على غواة الأشقياء ودُعائهم، وأطلع على غيوب المنافقين وطوياتهم، وانبعث إليهم طوائف الانتقام من خواصهم وذوائبهم؛ وتقبّض على من عُرف بأذاهم قواعد الفتنة وأصولها، ورءوسها التي تمكن بها وجود الغرة وحصولها. وكان حكم الله فيهم حز رءوسهم من أجسادها، وتصيير نفوسهم إلى سوء مصيرها ومهادها؛ والغزو فيهم متصل مع الأيام، والبحث قائم على جانب الظن والاثم.

والحمد لله الذي جعل لأوليائه عقبى الزمان، وظلل عليهم غمام الإنعام والإحسان، وحى بحمايتهم قبة الإسلام والإيمان، وأوقع مُحالفهم ومُخاذليهم في حبال الخلاف والخذلان، وأولى من هذه النعم الممدودة، والحظوظ المجدودة، ما شكره فرض على الأعيان. فسارعوا إلى شكرها رحمكم الله مسارعة الأصفياء الخلصان، واستبشروا فقد مُدّت عليكم أجنحة الدعة والأمان، وإياكم من عباده العارفين بمواقع النعم، العاكفين على انتهاز فضله المغتنم، الواقفين بطاعته موافق أمره الملتزم؛ إنه وليّ الطول والكرم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة الثانية عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين بتلمسان أدام الله كرامتهم بتقواه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه؛ ونصلي على محمد نبيه ورسوله.

والحمد لله الذي أحل هذا الأمر العزيز من عنايته بالمحل الأعلى، وخصه بدعاء الخلق إلى ركوب السبيل الواضحة والطريقة المثلى، وأقام كفّلتَه وحَمَلَتَه لإذكار القلوب الساهية، وتنبه النفوس اللاهية، بسور من آياته تُتلى، وعِبَر من مجتلياته تُعرض في أوقات الغفلة وتُجلى؛ وخطم بخزائم حدوده، وضم إلى حصر قيوده، من تبسط على الاسترسال وتلّى، واستفاء بحكمته وبيانه، وحالٍ شده وليانه، من أعرض وقاءً بجانبه وتولى، وأصحابه من تمشية المقاصد، وتصفية المصادر والموارد، بما يكون له عند كل معتمد، وفي كل مقتصد، ردةً مكينًا وكفلاً، وأودعه من عطفات الرضوان، ونفحات الرحمة والغفران، ما يضع عن القلوب من متوقع مؤيقات الذنوب آصرًا شديدًا وثقلًا.

والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله الذي وسم الله برسالته زمانًا غفلاً، وشرع به من الدين ما نهج لمن جار أو حار مسالك وسبلا، وجعله صلى الله عليه وسلم بين الحق والباطل حجبًا مضروبًا وفصلاً، وأتم به النعمة، وأعم به الرحمة،

إحسانًا غميرًا وعطاءً جزلاً، وتعريفًا أنه الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمةً وعلمًا وفضلًا، وعلى آله وصحبه الذين تبوءوا بالهجرة والنصرة محلاً عاليًا ونزلاً، وكانوا لما تُخف لهم من الرضا، والثواب المقتضى، مستحقًا وأهلاً.

والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مطلع أنواره، ومتبع آثاره، يقرؤها فرعًا فرعًا وأصلًا أصلًا، ويقرؤها على مثل مثلاً، وعلى شكل شكلًا، القائم بأمر الله وقد تغشت البسيطة ضلالًا منطبقًا وجهلاً، وأشربت النفوس من خبط العشواء، وغلبت الأهواء، إمراجًا وخبالًا، واعتاضت برفع العلم وطموس الحق من رقي هويًا ومن علو سفلاً؛ فانتحتة البشرى التي لا تتوقف، ووعد الوحي الذي لا يخلف، أنه يملؤها قسطًا وعدلاً، ويجزي في أمره إلى غاية هي ختم الوجود، وانقراض أمد الدنيا المحدود، مخصوصًا من التأيد، وسنيات التمكين والتمهيد، بالأخلق منها فالأخلق والأولى فالأولى.

فإنا كتبناه إليكم -كتبكم الله ممن أحسن لقبول ما يعتمده، وتلقي ما يرده، استعداداً، وأجاد لأعز المطالب، وأفضل المكاسب، انتجاعه وارتياذه، وتدريب على عمل البرّ فألفه واعتاده، وارتاح لوارد التذكير، ووافد التبصير، فقوم به معوجه وثقف منآده- من حضرة مراكش حرسها الله ونحن نحمد الله على دينه الذي رفع علمه، وجمع معاقده وعصمه، وأمد له ببركة هذا الأمر العزيز من متين العقود، ومكين العهود، مما سراه وألحمه، فلا خلال والحمد لله يعرف مبرمه، ولا نقض يعتوره محكمه، ولا مائل عن مبدرجه، عائج عن منهجه، إلا صادّره التعديل وصدمه؛ فمدعو أقلع وأقصر، وعم كشف له الغطاء فأبصر وتبصر، ومريخ شمّر عن ساعد الجد وحسر؛ وراكب رُدع لحاجه، ومتمد في غلواء تنكبه عن السبيل وعياجه، ومُنطوي على دخيل داء قد نقل بعلاجه؛ كلّ يوفي قسطه، ويمضي عليه من

ثواب أو عقاب ما أثبتته الكتاب وخطه، وحدود له تتعدى، وحقوق لا يتجاوز بها الأمد المشروح والمدى.

وكلُّ بما أسرَّ من سريرة، أو أحتقَب من صغيرة وكبيرة، ملبس ومردى؛ لا هوادة يحتمل، ولا وسيلة سوى التقوي يُدلي بها ويُدل، ولا قرْبى بغير العمل الصالح توصل، وتبُلُّ ميزان القسط عدل وأمال، ورجح وأشال، وكال لكل ما اكتال.

والله بعد نفحات من رحمته يصيب بها من عباده من استفتحها، ويصل أبواب التوصل إليها من قرعها بالمتاب واستفتحها، ويستقبل بها عثرات الزلة، وفترات الغفلة؛ ومن أعتق نفسه من ملكة الهوى وسرحها؛ أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنَى، وانقادوا بزمَام العقل فما استمالت لهم دواعي النفس طرفاً ولا استهوت منهم أذنًا، وكلما ذهبت سِنَّةٌ بأجفانهم، أو عرض عارضٌ في ميدانهم، قرعوا عليه من ندم سنًا، واستشعروا لما أصابهم أسفًا وحزنًا، ثم تابوا إلى الفِئْثَةِ، وتعلقوا بأهداب تلك الحالة الأولى وتلك الهيْثَةِ، وكانوا من التطلب لتلك الأذواق المستملاة، والمناظرة الحسنة المجتلاة، بين ذهاب وجيئة. والله يلهم كلاً إلى ما قصد به مما هو حظه الأجمع، وركنه الأشد الأمتع، وعلق قضيته التي تُهمَل ولا تضيع.

وقد كنا -أعزكم الله بتقواه- عند ما أنسنا من فترات الأعمال، وحنول الأحوال، والاستئناس في أمر الله بالإنهك والانهاك، والتدرج في مناقل التغيير بما لان له مركب الاستهانة والاستسهال، رأينا ما لا يسع الاحتمال فيه، ولا يبرأ من درك التخرج في أرجاء تداركه وتلافيه، ولا يؤدي حق الاستحفاظ والاسترعاء بإقرار ما يبطله الحق وينفيه، وإن المباشرة في ذلك وهنٌ لا يقبله الله في دينه ولا يرتضيه؛ وإذا نصب الله معالم الهدى، ولم يخلق الأمة عبثاً ولا تركهم سُدى، بل جعل كلاً بما وجه إليه من أمر ونهي مكلفاً متعبداً، وأقام لهم فيما يأتونه ويذرونه رسماً لا

يحيل ولا يستحيل مذلاً بسلوكه معبداً، فما هم والتخلي مع الأهواء ومخالفة الأفئدة الهوى والرضا لهم بما رضوا من الإقامة بدار المضيفة والندا.

وأمر الله لا يدع، وحكمه يكفّ ويفرع، وله جل جلاله قومةً بدينه يزع بهم ما يزع، يسوون ويُعدلون، ويقضون بالحق وبه يعدلون، وما زلنا نعرض الذكرى بينة، ونهدي الكلمة لينة، وندعو إلى سبيل الله بمقتضى المدعاة الواجبة المتعينة، وننتظر بالمسوف ارعواء عن الغي، وانشاءً عن مدارج الملل واللي، وتحولاً من القلب الميت إلى القلب الحي، النفوس بزمام هواها منقادة، وعلى ما ألفته قدمًا من أسوء عادة، تنحط في شعب حياحها، وتطغى وقد أرخى لها الاغترار من شكيم مراحها، وترك لإيثار الفساد جانب صلاحها، وتصمّ أسماعها وقد قرعتها بما شاء التذكير أقوال إنصاحها؛ فتقضى أمر الله أن تقوم بحقه، واستدعى عهده الوفاء به في خلقه، وجمل هذه السائمة الهائمة على سبل الاعتدال وطرقه، وأبطأها مركب الطاعة على ما لا بد فيه من عنف الأخذ أو رفق، فتحركت بواعث الاعتزام، واستقلّت باستعانة الله دواعي الاستغرام، وأخلص له جل جلاله مجرد القصد والإمام، واستوبق بما استقبل وتوجيه ما أمل تجديد مراسم الإيمان ومعالم الإسلام، وأن تورد موارد الشرع صافية النطاق رزق الجمام.

ولما انقسم الناس في المراد من إصلاح فسادهم وتقويم منآدهم إلى من استأثر بالمشاهدة عيانه، وإلى من بعد من المباشرة مكانه، وكان لكل من مساواة الحظ، وتقسم التفات اللحظ، ما يتوجه إليه بيانه، ويشنيه إلى ما يقصده من هذا الغرض ويتحيه زمام التناول وعنانه، أودعت أغراض هذا المقصد الكريم، ومناجي الدعاء إلى الصراط المستقيم، الكتب الواصلة إليكم وإلى سواهم من أهل الأقطار بما تضمنته من الأحوال، وضرب الأشكال والأمثال، وتبين متروك الحرام ومأتى

الحلال، وتنزيل القضايا الشرعية منازلهم من الأحكام والأعمال، وتعريف مواقع الثواب لأهل الثواب، ومواقع النكال لأهل النكال، بما استوفى فيه الأداء، وتقصى الإبلاغ والإنهاء، ووقف عند غايته الركض والإجراء، وخفت بذلك عن كاهل الأمانة وتقلد أمر الديانة والاثقال والاعياء، وأقيمت الحجة، وأوضحت المحجة، فلا مترد من القول يستلحق فيه الدرك والاستثناء، أو يحاول فيه التعقب الاستفحاص والاستقصاء.

ولما قضيت تلك الوضيعة بحالها، وسقطت عهدة احتمالها، أقبلنا الاشتغال على من إلينا وحوالينا من الموحدين وجميع القبائل لناخذهم بماخذ ذلكم التعديل، ونحملهم على نهج تلكم السبيل، ونساوي بين من بعد ودنا في الفعل والقيـل، ونمضي مسطور تلكم الأحكام على مساوقة الفرض لها والتنزيل، ونعدم بسيف الحق آثار أهل التغيير والتبديل.

ولما حللنا هذه الحضرة حرسها الله وهذا الغرض المبارك يتمكن مع مطالعة الأحوال سببه، ويتقعد مذهبه، ويتطور في كيفية مآله، وموقف مجاله، نسبه ونصبه، ابتدأنا بالنظر في أحوال الموحدين وإحضر الجميع منهم بهذه الحضرة عمرها الله واستوفدناهم قبلاً قبلاً وشعباً شعباً وقد تأكد العزم على القيام بأمر الله وإعادته على إدلاله وإحياء دراسه وإقامة عموده ونفي الخبث عن أرجائه وتصفيته من الشرب وإنشائه خلقاً جديداً ولا يكون ذلك إلا بإخلاص المقصد وإظهار الفعل وإمضاء الحكم وترك التلفت إلى الأقوال ووسائل الألسنة فشد ما ارتهنت بها لا وفاء عنده ولا ثمرة له.

والتحق بهذا الأصل استدعاءً جل من كل قبيل من المصامدة وغيرهم ليقع العمل في الجميع وتصفى الموارد وترحض الأدناس، إذ كان الفساد قد خالط

النفوس ومازج القلوب ووقع به الاستئناس، وألفته الأهواء وحبّت المناصحة فيه الأسباع ونسى كلّ ربه فأنساه نفسه وسقط رعي الحرّيات وتنوسيت الذم لأهلها والسوابق لأربابها. وفي أثناء هذا الاستدعاء أقبل أهل التوحيد على الاشتغال بنفوسهم والعكوف على قراءة توحيدهم وملازمة وظائفهم وأفصحت لهم نصب الحال عن أمور من مثلها يأخذ الفطن حرزه ويستحضر إشفاقه ويتوقع يومه وعندها ويتراءى الناظر مكان سقطاته، وموضع فرطاته، وتتخشى له منسيات ذكراته.

ولم تنزل القبائل ترد أفواجاً وتفد أقواماً؛ وخلال التلوم باكتمالهم أخذوا بالقراءة والتعلم ومدارسة التوحيد وتحفظ ما تقام الصلاة به من القرآن، وكان لهذا الأخذ من كل طبقة وصنف عملٌ علّت به الأصوات، وعظم الأثر وقد ظهر من مبادئ هذه المنازع وانفراض هذه المقدمات، ما شخصت له الأبصار، وجدّ فيه الاعتبار، وخامر منه النفوس الخوف المقلق والحدار، وسرى في قلوب الخاصة والعامة الایحاس لأمر من أمور الله والاستشعار؛ وتوقع ظهور آية تفرق بين المحقق والمبطل، وتميز الخبيث من الطيب، وتلبس كلّ رداء سريره، وجلباب طوبته، وما ذاك ببعيد عمن أعرض عن الحق واتبع هواه، وأحل بعهد الذي عاهد عليه، واستبطن غير ما أظهر. والله في هذا الأمر العزيز أسرارٌ مخبوءة، وودائع مكتومة، يمحض الله بها المؤمن ويمحق الكافر.

ولما تكاملت أعداد الواصلين، وقد غصت بهم السبل، وعضل بهم الفضاء، افتتح باب العمل، واستُعين الله تعالى، وأبتدئ بتطوير الناس على طبقات الثلاث يعرف بها كل واحد قدره، ويقف بها عند حده، ويعلم أين هو من مضماره، وتأخره أو بداره.

فالطبقة الأولى هم السابقون الأولون الذين بايعوا الإمام المهدي رضي الله عنه

وصحبوه، وغزوا معه، وصلّوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباءوا بفضلها، واشتملوا ببردة شرفها، وارتقوا إلى ذروة الخطوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يؤاذى والرتبة التي لا تعادل.

ويتلو هذه الطبقة من آمن بهذا الأمر، ودخل في هذا الحزب، وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثالثة من فتح وهران إلى هلم جرا.

وجرى وفقكم الله هذا التطوير على نظام أحكم فيه الوصف، ورُتب فيه الوضع، وروعت فيه الزلف والقرب، والمنازل المعلومة والرتب؛ والتفت إلى أحوال أهل الثبوت والنكوص، ومن تقاصر عن الكمال بالخط المنقوص، على تحرير من النظر ووزن من العدل، عرّف الناس بسيماهم، ووقف بهم عند غاياتهم، وعلم كلّ مركزه، واحتل بمحطه، ووجد نفسه حيث وضعها العمل وأهلها السعي.

(هنا انتهى أحسن فصل في هذه الرسالة).

الرسالة الثالثة عشرة

في ولاية الأمي أبي عبد الله بن الخليفة، وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونه إلى الطلبة الذين بسبته وطنجة حرسهما الله وجميع من بهما من الموحدين والأشياخ والأعيان والخاصة والعامة وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماء سلامّ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على إعلاء دينه وتمكينه، وإجراء هذا الأمر العزيز على أفضل أساليبه وقرائنه، وإمضاء آراء أهل الحق في صوب إسعاده وتميينه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى وأمينه، ومبلغ رسالته على أكمل حالاته من بيانه الباهر وتبيينه، وعلى آله وصحبه الذين ألقوا صفقة أيماهم يمينه، ولولوا عهد إيمانه من ارتضوه لإمامة مفروضه ومسئونه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى في كافة أحواله وشئونه، العامل بإظهاره، وبث أنواره، على معارج آياته وبراهينه، المؤيد بأخذ الغاية، وحوز النهاية، بصفات تخصيصه وعلامات تعيينه.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله ممن اتخذ عند الرحمن عهداً، واستمد في صلة أمره واستدامة خيره عزماً صادقاً وجداً، واستعد من الباقيات الصالحات بما هو خير ثواباً وخير مردداً، واستنجد للوفاء بأمانته، والصفاء في حفظ العهد وصيانته، حباً خالصاً ووداً- من رباط الفتح عمره الله، وفي كنف الله ورعايته من يصيخ لنبات الخير أسماعه، ويربط بمقاعد الصلاح إصفاقه وإجماعه، ويمضي على مناهج الفوز والفلاح عزمه وإزماعه.

ولله بكم، معشر المخاطبين أكرمكم الله عنايةً وصلّت بحبله المتين، حبّالكم، ومكّنّت في أمره المكين، آمالكم، وأكرمت بالطفاف الرحمة، في أكناف النعمة، إقراركم وإحلالكم، وأرتكم أن العاقبة الحسنة باتباع هذه الواضحة البينة حالكم ومنالكم.

فأنتم برعاية الله وكلايته في جوانب الأمانة راتعون، وإلى عواقب الخير راجعون، تستدرون أخلاف النعم استدرا، وتستمتطرون من بركات هذا الأمر المبارك سماء مدرار، وتحتلون من مشارق آياته وطوالع بيناته أضواءً باهرة وأنواراً، وحق من منح من حظوظ النعم ما منحتم، وأمسى وأصبح فيما أمسيتم فيه من الخيرات وأصبحتم، أن يسعى بمبلغ جهده في تقييدها، ويحرص بالتزام الشكر على مزيدها، ويستنفذ الوسع في طلب أسباب تقريرها وتأكيدّها، وينظر في استدامة نعيمها، والاستقامة على مقيمها، لقريب أوقاتها وبعيدها.

ولما كنتم أكرمكم الله عن اعتصم في هذا الأمر العظيم بحبله وعروته، واقتدى بوجوب الاتباع بأسرته الهادية وقدوته، رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان، والتموه بأتم ارتضاء واستحسان، وابتدوه ولهم التوفيق والإصابة على يسر وإمكان؛ وذلكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها، من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر آخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها، وكانت هذه العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل إقليمها، وذوي ألباها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انتزاحهم ويُعلمون بأنه غاية اقتراحهم، ومادة نفوسهم وأرواحهم؛ ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين، ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين.

فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفاة، للأخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم

على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقائهم بما أضمره، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه، وأعلموا أن محمداً وفقه الله الذي أرتضوه لحمل عبثهم وتخيره، ورجبوا في تقديمه على بلادهم، وإنفاذه معهم على قصده في توليته ومرادهم.

وكان استدعائنا لهم في هذه الوجهة المذكورة، والحركة المبرورة، لأمر قُصِدَتْ فيها مذاكرتهم، ونويت بها مباشرتهم، لم تكن مما ذكره في ورد ولا صدر، ولا كان ما سايره القدر جارياً معها في نظر.

وكان التماسهم للجواب على سؤالهم، وبغاية اقتضائهم ونهاية استعجالهم، يتردد ذكره في صدور أقوالهم، ويتأزر أمره بشواهد عباراتهم وأحوالهم، ونحن بين ذلك كله على غير قصد ننويه، وما نظهره منه مثل الذي نبطنه ونطويه.

ولما احتلنا جميعاً هذا الرابط الميمون، واستلنا بفضل الله خيره المعهود ونصره المضمون، وكان الوفد المذكور بمدرجة الأياب، ومرقب الالتفات والارتقاب، تأكد اقتضاؤهم للجواب، وتمكّن حديثهم في معنى التقدم المذكور والاستصحاب، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجتمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم وتذاكر معهم في ذلك الأمر المستول، وعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقى إليهم حديث القوم المذكورين بأنهم وجوه الإلقاء والتوصيل، فكان ذلك على ما قُصِد، وذُكروا في الأمر على ما توخّى فيه واعتمد، وعُرفوا بأن ذلك ليس مما بُني عليه ولا مما اعتُقد، فثارت منهم السواكن، وغلبت على الظواهر والبواطن، وعُويّن من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يُعاین.

وتقدمهم الشيخ الأجلُّ أخونا أبو حفص عمر بن يحيى أعزه الله بتقواه فقال:

هذا أمرٌ نحن بتقديمه، وأعلمُ بوجوبه ولزومه، وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه؛ فهو مختارنا للدين والدنيا، ومثولنا المأمول للحياطة والرعايا. وأتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أن يمكنه، وأراد أن يوضح به عزمه عليه ويبيّنه.

وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمرٌ في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيداً! واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك من تجديد أمر الإمام المهدي رضي الله عنه وتقويته، وبسط شأنه المعظم وتسويته، ما لا يجوز تأخيره عن ذلك المقام، ولا يحلُّ الخلو عن التقليد له والالتزام، وأن فيه من إبقاء الأمر في نصابه، وإتيان الحق من أبوابه، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وإرتيابه، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ويضمُّ شمل المؤمنين بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابه، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم.

فاعلموا وفقكم الله بأن ذلك ليس له في نفوسنا عقدٌ سابق، ولا نظر لاحق، ولا طرق الضمير من أنبائه طارق. وإنما كان هذا القصد إلى ذكر السؤال المتقدم الذكر، والكلام فيه على مقتضيات هذا الأمر. وانقضى مجلس اليوم، ومجالس بعده في ذلك الروم، لا عن إجابة في ذلك المطلوب، ولا عزم على وجه من وجوه التأي والتسيب.

واجتمع الشيخ الأجل أبو حفص المذكور ومن تقدم ذكره من الطلبة والعمال بجميع من هنا من أشياخ الموحدين وأعيانهم، وقدموا أهل النظر في أمرهم ذلك وشأنهم، وعرفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم.

فاجتمع الملائكة من آخره، وظهر الأمر العجب لشاهده وحاضره، وانتشر القول في ماكن الوجوب وتظاهره. وأصفق الموحدون وجميع من معهم على تجمل العهد فيه وتقلدوه، وأعربوا عما اعتقدوا به من تقوى الأمر وتأيدته، ورد إلى أصله ومستنده، وصار الجميع منهم في حد من موالاته الاقتضاء، على أتم وجوه الاختيار والارتضاء، لم يتقدم فيه عهد، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بد.

ولما رأينا اتفاق كلمتهم على ربط هذا الأمر وعقده، وإجماع جمهورهم على ما فيه من نصر الدين وعضده، استخرنا الله تعالى في الاتفاق معهم على إنفاذه، وسألنا لهم السعادة الدائمة في بيعتهم هذه، ورُجي لهم من الله تعالى إجراء ذلك على ما عودهم من الإصابة في المقاصد، والنجح في طلب المصالح والمرشد.

وانعقدت البيعة المذكورة باتفاق جميعنا على الشمل والعموم، وقامت بأمر الله ورسوله في التفويض والتسليم، وأتى الأمر فيها على أوفى شروط التكميل والتسميم؛ وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمينه، قصدا إلى اعتقادها على أكرم وجه وأسناه؛ وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم، وسرى النعيم بها في أبشارهم ومنحاتهم وياشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل، على أتم وجه وأنهج سبيل؛ وظهر من تألف القلوب على ذلك وتعاضدها، واجتماع النفوس ونواردها وترابط الأفتدة وتعاقدها، ما ملك جوانح الكافة غبطة وأوسع أمر الموحدين بفضل الله عليهم مدّاً وبسطة، وتم ذلك بعون الله على أوثق مبانیه، وأطلق معانيه.

والله يعرفكم أجمعين، وسائر إخوانكم من المؤمنين، بركة هذا الاجتماع والإجماع، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والإمتاع، وينهضكم في فروض الدين بواجب الاقتداء والاتباع بمتنه. والسلام.

الرسالة الرابعة عشرة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر عطية المذكور:

من أمير المؤمنين، أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبته وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله على تمكين أسباب الاجتماع والانتظام، وتقريب مدارك الانتفاع بأعطياته؛ والصلاة على محمد نبيه المبتعث رحمةً للأنام، وعصمةً لأولي التمسك والاعتصام، وعلى آله وصحبه الكرام، الجارين في انتهاز خيراته وإحراز بركاته إلى أبعد غايات الاغتنام، وأقصى نهايات الالتزام؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، قبله الاهتداء والالتزام، وخاتمة الختم النبوي في الكمال والتمام، وموضع البشرى على آخر الزمان وعقبى الأيام.

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم من تجدد الأنعام، وتوفر الحظوظ المسعدة والاقسام، ما ينور بصائركم في الاعتناء والاهتمام، ويصحب أوائلكم وأواخركم من الافتتاح وسعادة الاختتام - من رباط الفتح عمره الله، وفي سبيل الله ما يربط بروابط هذا الأمر العزيز ويعقد، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرد، ولا فستعان سواه فهو الذي يعين بفضله ويؤيد.

وقد تقدم إليكم وصل الله إكرامكم، وإلى تعريفكم بالمسار وإعلامكم ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة وأن ذلك لم يكن له عندنا قصدٌ متقدم، ولا عهدٌ متوهم، لكنه أمرٌ أراد الله

فأتمه، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه؛ ونرجو أن الخير التامة في انعقاده، والسعادة العامة في التزامه واعتقاده.

ولما استوى بفضل الله بنيانه المرصوص، وثبت على الصدق والثلج حديثها المنصوص، وتعين في سوابقه ولواحقه الصفاء والخلوص، وكان من هذه العشائر الهلالية والوفود المشرقية إياها الميمون، وتأهل لها بتوفيق الله وتسديده خيره الموعد ونصره المضمون، ورأت أن الذي أملت في معنى الاختصاص بمحمد وفقه الله قد تأتى في درج العموم، وصار بمجمع الآمال في قرارة البيوت واللزوم، رغبت رغبة مستأنفة في استصحاب أحد إخوته وفقهم الله على التعيين، وبينت ما في ذلك من جمع الكلمة وضم أشتات المصالح المقدمة بأتم وجوه التبيين، وأصفقت على أن ذلك يقطع أسباب الاختلاف، ويفتح أبواب الائتلاف، ويعمر جوانب تلك الأرجاء والأكناف، بأحوال الدعة والسكون.

واتصل ذلك بشيوخ الموحدين وطلبهم وعمالهم وفق الله جميعهم فتيبنوا فيه من وجوه المنافع، ومقاصد المصالح والجوامع، ما اعتقدوا وجوب سؤاله، ورأوا قبل الخير في مبادي استقباله؛ واتفقوا على أن يصحبهم المرغوب، في استصحابه لدفع دواعي الشغوب، وإجراء الأمر في تفاصيله وحمله هناك على هذا القانون المبارك والأسلوب، وانبعثت خواطر أهل البلاد كلها إلى التماس مثل هذا المستول المرغوب، وأملوا ترتيب آمالهم للذين والدنيا على هذا الترتيب.

فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضر من أهل حواضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الأمر المتجرد، والشأن المسعد، حظٌّ يفوزون بنعماءه، ويحوزون منه أركى قسمة وأنها، بأن يستصحبوا من الإخوة المذكورين من يكون إليه استنادهم، ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم، ويتمكن به استعانتهم واعتضادهم، ويتم بالاتفاق معه

أملهم من رفع الخلاف ومرادهم، فتلقى ذلك من قبول الموحدين وتبينه، وتقرره في نفوس جميعهم وتمكنه، ما أراهم طلبه فرضاً، وكونه كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضاً. وكانت المذاكرة فيه فتين وجه المصلحة في تلقيه، وسبيل السداد في تيسره وتأتيه.

واشتغل بالنظر فيما يصلح بذلك، والاستعداد بما هنا وهناك؛ وكانت بعض أيام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمال ومن حضر ذلك الغرب الوسط في ترتيبه وتهذيبه. وضمه إلى قوانين النظر السديد وأساليبه، فأوا أن الذي يُعقد أمره بمعاقد السداد، ويُبنى بنيانه على قواعد الاتصال والاطراد، ويُقضى له من الاغتباط ما تقدم ذكره بأوفر حظوظ التوفيق والإسعاد، أن يكون في وسطه من الإخوة المذكورين من تسكن إليه قلوبهم، ويتأتى به مسئولهم من الاتفاق ومطلوبهم، ويستريحون بالاجتماع عليه ما كان يغريهم من التنازع والتهالك ويغويهم؛ وأن يكون أمر غمارة وما اتصل بهم من عمل سبته وجهاتها راجعا إلى العمل المذكور، مرتبطاً به في سائر الشئون والأمور. وكان في ذلك من إعادة القول وتكريره، وتفصيل الذكر وتفسيره، ما أظهر سبيله على مظاهر البيان، وأبرز مكنون الاستقامة به العيان.

ثم تذاكر الطلبة العاملون على سبته وأعمالها وفقهم الله مع إخوانهم في معنى البحر ومجازه، واتساع النظر في مراسيه وأحوازه، وكونه رابطاً بين العدوتين، جامعاً إلى إصلاح الجهتين، عائدًا راجعاً، وأنه إذا أبقى معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل التي إلى سبته وطنجة والجزيرتين ومالقة وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط، وتجتمع إليه هذا النظر المؤيد البسيط، وينزاح به عن أشغاله المهمة التقصير والتفريط؛ وأنه الآن فيما يُرام لهذه الغزوة الكبرى، من إنشاء الأسطول عمّره الله في جميع البلاد الصالحة للإنشاء، وغزو أعداء الله برًا وبحرًا، في كافة

الأنحاء والأرجاء، أحقّ بالعناية والاهتبال، وأسبق إلى التماس الارتباط والاتصال.

وأنه إن كان هنالك من الإخوة المذكورين من يُساعد ويُساعد، ويُعاضد في ذات الله ويُعاضد، ويستدعي ما يجب استدعاؤه فلا يكابر في ذلك ولا يُجاحد، اتصلت المواد، وانفصلت القواطع الحواد، وتمكن التصافي من خدمته والتواد، وارتبط البحر بالبر، فكانت المعاملة فيه بين العاملين عليها بما يجب من المساعدة والبر.

وأنت هذه الأمور وفقكم الله أمراً بعد أمر، على غير قصد منا ولا ذكر، بل على وجوه يُعلم بالضرورة أنها نشأت لأحيائها، وظهرت دون مقدمة لأعيانها. ولما رأينا اتفاق الشيوخ والطلبة والعمال وفق الله جميعهم على ترتيب هذه الأمور، وإصفاقهم على ما فيه من صلاح الجمهور، وظهور أنوار المهدي رضي الله عنه في مشارق الوضوح والظهور، استخرنا الله تعالى في إنفاذ ما رأوه، ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم في تيسير ما أملوه ونووه، وتذاكرنا معهم في أن الذي تُكمل به هذه الإرادة، وتُرجى بالتعاون عليه البركة والسعادة، أن يكون مع كل واحد من المذكورين من ينتهي إليه الاستحسان، ويقوم على خيره وفضله الجلاء والبيان.

فعُين لهم من كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة ونخبة الأمناء والثقة، وخيار الأنجاد من الغزاة، من يُعينهم في جمع العساكر وتمييز القبائل وتأليف الكتائب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كافة المقاصد والمذاهب، وأخذ الناس بالتفقه في دينهم وتعلم ما يتعين تعلمه باللازم الواجب، والعدل بين الأحكام، والقضاء بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على الحاضر والعام؛ واستخراج ما لله من وجوه السائغة الطيبة على غاية استطاعهم من الترتيب والأحكام، ومياسرة الجمهور، في سائر الأمور، بما يجري على مقتضيات الإيمان والإسلام، وانتُخبت لكل جهة من الجهات المذكورة من دُعاة الموحدين وأوليائهم

بقدر ما احتيج إليه؛ فاشتركت في هذا الخير قبائلهم، وتقدمت إلى أوائله أوائلهم، واستقبل منه الموحدون كافة ما يواليهم بفضل الله ويواصلهم؛ واستقامت هذه الأحوال بحمد الله على ما أُمِّل من استقامتها، واعتمد من إظهارها على قواعد الحق وإقامتها.

وأعلمناكم وفقكم الله بها على الإجمال لتكونوا بسامع أنبائها، والوقوف على جلائها، كالمشاهدين لإيعازها وإمضائها. والمشاركين في استحسانها وارتبضائها. وليس لنا في ذلك كله إلا بها يجري بطاعة الله ورسوله في تيسير آمال الموحدين وموافقتهم، ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم. والله يجعلنا وإياكم من شكر الاله إسراراً وإعلاناً، واستدام بفضلله ورعايته يمتناً وأماناً، واستصحب في التزام طاعته واغتنام مرضاته أعواناً وإخواناً، بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسةائة.

الرسالة الخامسة عشرة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره وأمده بمعرفته- إلى الطلبة الذين بسبته والأشياخ والأعيان والكافة بها، وفقهم الله وأعانهم على شكر نعماءه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله أهل التقوى والمغفرة، وذلي الرحمة الشاملة والرافة الواصلة والميسرة، الذي نور أفئدة المهتدين بأنوار التبصرة، وأقبل بقلوب الراشدين قبل التنبيه والتذكرة، وأعلن بعصم محبته علق النفوس التوبة المتطهرة؛ والصلاة على محمد نبيه المبتعث بالحجة الغراء المبصرة، والدعوة الظاهرة المظهرة، والسنة الواضحة النيرة، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المختصة المؤثرة؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى على رغم الفرق الجاحدة المنكرة، المؤيد في رفع أسباب الشنآن، والحماية عن ترعات الشيطان، بمواد المعونة المنهضة المقدرة.

وهذا كتابنا إليكم -عرّفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون، وسقاكم من معين حكيمته بما لا تصدعون عنه ولا تنزفون، وأولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون، وجعل لكم بالإيمان والعمل الصالح ودًا لا تصدقون عن رعايته، وحفظ غايته، ولا تصرفون- من حضرة مراکش حرسها الله، ونحن نشكره سبحانه أن جعل هذا الأمر المبارك قطب المصالح، وملقى الفواتح، ومرتقى المطامح؛ فالخيرات بمحيطة، محصورة، والمسرات على عمدة بسيطه مقصورة،

والقوى في خدمة مقاصده معضودة منصورة؛ وما تجريه الأقدار، ويأتي به الليل والنهار، فيلى ثمينه يستبق، ومن عجائب مكنونه ينطق.

وقد كان في الأمر الذي عرّفناكم بثلجه، وأطلعناكم على ساره ومبهجه، ما اجتليتموه من مستوضح الفتح ومجتلاه، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق وتلاه، ورأى به الكافة أن عدو هذا الأمر السعيد تولى ما تولاه، وتلقى سعي شره وتصلاه؛ واستمر البحث بعد ذلك على أوليته، وأشرف الفحص على يقين المطلب وجليته؛ ويكون ذلك المستطير من غباه، المستدير على مسقطه ومكياه، إلى جانب الموحدين انتسابه، وعليه لا عليهم معيه واكتسابه، نشأت لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاتب، ووحشة التباحث والتطالب.

وإن كانت موداتهم الوثيقة موصولة الحبال، مبتولة الفلال، مجبولة على الالتحام والاتصال، لها الوفاء والصفاء، والقديم الذي لا يلمُّ به الدروس والعفاء؛ فُدعت هواديم فما تطاول، ومضت سوابقهم فما يُرام إدراكها ولا يُحاول، وملاً الزمن حديث فخرهم فهو المردد المتداول؛ فحبهم لهذا الأمر وأهله مكيُّ الاستحكام، ثابت القضايا والأحكام، منشورٌ على صدور الليالي ووجوه الأيام، وإن عاج عن سَنَةِ إخلاصهم عائج، وهاج عزمهم عن حماية أمرهم هائج، ولو الحائن من وجهته لفقوره، وأسلموا الحائر بمرديات جوره، وتميز كلُّ بمقامه وطوره؛ ذلك مما يسرون له من طهارة التمحيص والتخليص، وخصّوا به من أثر الإيثار والتخصيص.

ولما عمّرت بادكار الموعظة محاضرهم، وأخطرت على مجاري التنبيه خواطرهم، ونورت بأبصار التذكير بصائرهم، وأجري النعت فيمن درج عليه دارجهم وصار إليه صائرهم، وأتى البيان على ذكر هذا الأمر العظيم شرحاً وتفصيلاً، وجمعت سوابقه ولواحقه في معرض التعوين جمعاً وتحصيلاً، ووصل القول في تنزل الأشياء

منازلها توصيلاً، وبديت مقامات الإمام المهدي رضي الله عنه في استصحاب طائفته
تقعيداً بها وتأصلياً، حصحص الحق الذي لا يُدفع، وظهرت الأصول التي يُبنى
عليها ويُرفع، وترددت المخاطبات والعبارات فيما يفيد من ذلك وينفع.

والموحدون أكرمهم الله خلال ذلك في اعتراف دائم، وإنصاف لازم واستعطاف
ماثل بمثابة الخضوع قائم، والأيام تمر يوم بعد يوم، والأقوال تتوجه في عتب ولوم،
والكل يعرض في مواقف التوبة ناس بعد ناس وقوم بعد قوم.

وبعد أزمنة متطاولة، واجتماعات متواصلة، أردنا مباشرة أحوالهم، وسماع
أقوالهم؛ فاستُحضر شيوخهم وأعيانهم وطلبتهم وعيالهم في محفل التقت على الصدق
أطرافه، واحتوى على مقاصد الحق اشتماله والتفافه، وجرت على أهل التقدم والسبق
نعوته وأوصافه.

فعند انبعاث الموعظة إلى الجمع وعرض أحوالهم وأقوالهم بين البصر والسمع،
تضعدت زفرتهم من الذكرى وفاضت أعينهم من الدمع؛ وكلما أُعيد عليهم
خطاب، أو تُوجه إليهم عتاب، أو التمس منهم على فصل من الفصول المقررة
جواب، تضالت أشخاصهم خجلاً، وابتغوا إلى جانب المغفرة حولاً؛ فمن أصوات
مرفوعة بالمتاب، ومن عبرات دائمة الانهال والانسكاب، ومن تطارح على جهة
الصفح والإعتاب، واستعاذة من أسباب الشك والارتياب، حتى تمثلت صور
الإخلاص في الإبشار، وتحلى صفاء الضمائر في قرائن الأحوال والآثار.

وأوقع الله عند ذلك في النفوس أن الذي يتطرق به القول إلى بعض، ويفضي
بقوم في قوم إلى الكراهية والبغض، من يتخلل قبائلهم من مشى بنميمة، وساع في
ذميمة، ومقلّب من صور الاعتياب في كل معقوفة منقومة. ولما بُتّن لهم ذلك من

وجوه تحقّقه، وأُطلّعوا على موجبات تسببه وتطرّقه، وعرفوا بها في الأذهان فيه من اتصالهم به وتعلّقه، أقرّوا بالصدق فيه أتم إقرار، واستعادوا له ولما تقدّمه كل استقالة واستغفار.

فأمروا بتجديد المتاب وتحقيقه، وحُضُّوا على تأكيد الخلوّص وتوثيقه، وحُذِّروا من ملابسة من يسعى على اتصالهم واجتماعهم بقطعه وتفريقه؛ فعاهدوا الله تعالى على ذلك أوثق معاهدة، وشوهدت دلائل اليقين وأماراة الصدق منهم أوضح مشاهدة، فتنزلت ملائكة الرحمة من آفاقها، وفاض على القلوب فيض جناها وإشفاقها، وعممت المغفرة بفضل الله على أتم وجوه تعميمها وإطلاقها، وملئت الجوانح تفريجا وتبشيرا، ووطئت الأحوال تسهيلا وتيسيرا؛ وانجابت عن النفوس ظلم التوحش، وانحلت عن العقول عقل الدهش.

وأمر الموحّدون عن آخره بالتصالح والتغافر، واستئناف أحوال التعاون والتظافر، وقطع أسباب التباعد والتنافر؛ فاجتمعوا لذلك أفضل اجتماع، وتمتعوا من نعماء بأكرم متاع، واستعيدت أحوال تواخيهم وتصافيتهم بأحسن استعادة واسترجاع، وصارت أيامهم أيام مصافحة بإيمان، ومفاتيح بإحسان، وتأسيس بنيان على تقوى من الله ورضوان.

وأعلمناكم وفقكم الله بهذه الرّجى، والمسرة العظمى، لتأخذوا من ذلك بأوفر الحظوظ والأقسام، وتكونوا على ثلج هذا التعريف والأعلام وتشكروا الله على طوّله وإنعامه فهو أهل الطّول والإنعام، وتبادروا إلى انتهاز هذا الباب المفتوح مبادرة الاغتنام، وتقتضوا في التغافر والتصافح وصلة الأرحام، بهذه الآداب الكرام، وتفعلوا مثل ما فعله إخوانكم الموحّدون على قصد الاعتقاد له والالتزام. جعلنا الله وإياكم من عباده الشّاكرين لما أولاه، العاملين بأحق مقصوده وأولاه؛ بمنه وفضله،

لا رب سواه. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في الخامس لجهادي الآخرة من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

الرسالة السادسة عشرة

في فتح المرية وبياسة وأبذة وموت السليطين أمير النصارى:

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل عطية بن عطية:

من أمير المؤمنين -أيده الله بنصره وأمدّه بمعونته- إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة من أهل بجاية أدام الله كرامتهم بتقواه، وأعانهم على شكر نعماءه؛ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي تمت كلماته، صدقا وعدلا، وعمت هيئاته، طولاً وفضلاً، وأوسعت غزاته، بما سبقت به عُداته، أسراً وقتلاً، وظهرت آياته، وبيناته، على رغم من رام إخفاءها كفرا وجهلاً، وتفرقت حماة أمره الأعظم وولاته، في جانب الفتح الذي انفتحت جنباته، رحباً وسهلاً؛ والصلاة على محمد نبيه المرفوعة مقاماته، المورودة كراماته، نهلاً وعلاً، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى، وجائزي الهدى، سبقاً وخصلاً؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المبتعث لتمكين ما عاد لمتفرع السعد المكين أصلاً، والمختب لإعلاء الدين المتين، وإبداء الحق المبين، قولاً وفعلاً.

وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم صلة الرحمى، وإدامة النعمى، وأراكم مواقع العبر، ومطالع الآتي الكبر، من هذا الأمر العزيز الأسنى الأسمى، وأظهر لكم من صوائب السعود ما يصيب شاكلة الرأي على بعد المرمى- من حضرة مراکش حرسها الله، وكلّ فتح بحمد الله قد تفتحت أبوابه، وتيسرت أسبابه، وخرج به عن الإمكان وجوبه وإيجابه، وكل شك بفضل الله قد ارتفع حجاب، وانصدع بنور اليقين منجابه.

فهاكم الآيات الربانية قد تجلت للعيان، وأشرقت في مطالع البيان، وتوضحت بنداؤها المسمع وورائها المشرق للصم والعميان، والحمد لله الذي جعل هذا الأمر الكريم رافعا لأصداده، طالعا بمظهر سعده وإسعاده، وفَتْ في سواعد حزب الشيطان وأنداده، بصواعق براقه وإرعاده، ويسر فيهم غرائب الفتوح، وعجائب الصنع المنوح، من مستنجز وعده وإيعاده؛ ولا ناشئ وفقكم الله من الآمال، ولا طارئ من تنازع القبول والإقبال، إلا وبرية هذا الأمر إلا على متكلفة بإيجاده، متخلفة في مده وإمداده.

وقد كانت الأندلس وفقكم الله هذه المدة كلها تستدعي من صرف العناية إليها، والإقبال بكنهِ المهمة عليها، ما ترتب فضله على الوجوب، وأخذ حقه بمجامع النفوس والقلوب، وكان عدوها المجاور، وأرقمها المشاور، قد لجَّ في غلوائه، وركب إلى المطامع ظهور أهوائه، وأخذت وساوس الشيطان تتصل في إجراءاته وإغوائه، وتخيل له أن ميامين الأقدار تتصرف بلوائه، وتتعرف من ظعنه وثوائه؛ فصار أحر من محففة الذباب، وأحرى إلى انتهاز الفرص من المذكيات على القلاب، وكلما أجرى بالخلاء، ونال غاية على جهة الإمهال والإملاء، سمت نفسه إلى الاستيلاء، وارتمت إلى أبعد مرامي الظهور والاعتلاء.

ولما توجه النظر إلى جهاده وغزوه، واستحضر العزم في قطع اعتدائه وعدّوه، وابتدر الرأي إلى تقييده عن مسرح بأوه، ومطمح شأوه، رأينا أن أمر المريّة حرسها الله من أهم الأمور، وآكدها في هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور، لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية.

واتفق عند ذلك نفوذ الطلبة الذين بغرناطة أعزهم الله إلى جهاتهم وانصرافهم، لحماية أكنافهم وأطرافهم، فلما وصلوا إليها، ووردوا عليها، فلم يلقوا عصا التسيار،

ولم تركهم دواعي البساط والانبساط للمكث والاستقرار؛ وعندما انتظموا على هذا القصد والتاموا، وركبوا الخيل للجهاد واستلاموا، وساروا على بركة الله واليمن يقدمهم، والسعد يخدمهم، والعناية تصحبهم وتلزمهم، ووافوا المرية حرسها الله وقد انتشر من كان فيها من الكفرة على تلك الربي والأباطح، واختلط المرعي بالمهمل في تلك المراحات والمسارح؛ فابتدرهم جنود الله بطعنهم مغلوجة وسلكى، وتريق دمهم الهدر سفحًا وسفكا، وحازوا هنالك من النفل الكريم، والخير العميم، ما ملأ عيونهم قُرَّة، ونفوسهم مسرة.

واقترحوا على بقية الكافرين أبواب المرية حرسها الله فانتجز لهم الوعد الموعد، وتيسر لهم الفتح المعهود، وتساقط دماء أساود الكفرة تلك الأسود، واستولوا عليها استيلاء من عضدته السعود، وأيدته الجيوش الباطنة والجنود، فلله ما ظهر هناك من آيات باهرة، وبيانات ظاهرة، لا تنسب إلا لبركة أمره، ولا تعتري إلا لمعونته المقدرة ونصره.

ولم يبق للمشركين في تلك الطمحة الهاجمة، والنقمة الداهية، إلا من انحصر في القصبة، فرارًا من الغلبة، وحذرًا من تلك الصوارم المرهفة واللهاذم المذرية. وأقام المحدثون أعزهم الله بظاهرها المَطْل، وشرفها المَقْل، مسرورين برفعة الحال والمحل، مستبشرين بانتشار ذلك النظم المنحل.

ولما اتصل بابن مردنيش ما هاله من هذا النبأ المفلق رأى أن ينهض بجملته البائسة على نية الغياث، ومبادرة خيله قبل الانتقاض والانتكاث، وأن يتناول الاستنصار بالاستنصار تطاول البغاث؛ فاستصرخ بالسليطين استصراخ الملهوف، تقويةً لأمره المضعوف، ورجاء في استنقاذه من الخوف.

ولما حس بندائه، ورأى ما أخذوا عليه من دائه، وبادوا إليه من غذائه، بادر بنفسه، واعتقد نصرته في كفالة بأسه. وتضافرت جموعهم البائدة، وجنودهم الحائدة، على المريّة حرسها الله في أحفل عدد، وأوفر مدد؛ فلم يزد الموحدين ذلك إلا شهامة وصرامة، ولا تعرّفوا بنزول الكفرة إلا عدّة وكرامة، واستمروا على حصر القصة المذكورة والكافرون يرون إخوانهم في قبضة الأسر، وحالة العسرة؛ فيخترقون فناء الحسرة، ويشرقون بعد العبرة والزفرة؛ وسلط الله عليهم في أثناء ذلك من الرغب، بمقاساة ذلك المنظر الكريه الصعب، ما زلزل أقدامهم عن مواقفها، وغم نفوسهم برواجفها، وأراهم مساقط هامهم في معارك تلك الصدمة ومزاحفها؛ فولوا على الأدبار وهلا ووجلا، وتنافست أقدامهم في الفرار سرعة وعجلا، إذا رأوا غير شيء ظنوه رجلا، وإن نعب ناعبٌ رأوه حيناً مرتحلا، وأجلاً معجلاً.

وقد كان الطلبة أعزهم الله خاطبونا باجتماع الكفرة واتلافهم، ومحاولتهم الثبوت في محل انقراعهم وانجعافهم؛ فرأينا أن الله تعالى قد يسّر ما كان يؤمل من انتسافهم، ويحاول من هلاكهم وتلافهم.

فسرنا على بركة الله وعونه وقد تحرك الوجود بأسره، ووثق الجميع بفتح الله ونصره، وفدح الكافة بما يتجز في ذلك من الوعد الصادق لأمره.

ولما نزلنا على مرحلة من هذه الحضرة حرسها الله وقد انبسطت النفوس لذلك الجهاد المبرور، والغزو المشكور، وعمها من الفرح والسرور، ما كادت تسبق به الجسم لمباطشة ذلك العدو المقهور، وافى البشير بنكوصهم على الأعقاب؛ ورجوعهم بهول المطلع وكأبة الانقلاب، وإجفاهم في ذلك المهمة واليباب، بحالة الذهاب والتباب.

فرجع الموحدون على بركة الله وقد نالوا الأجر والغنيمة، واكتفت لهم الفتوح هذه الغزوة العميمة، والحركة العظيمة؛ وكانت أعزكم الله على قرب مأخذها ويسر مقصدها أبلغ في إهلاك الأعداء من غزوهم في عقر ديارهم، وقتلهم عند محمى حماهم وذمارهم، ولقد ظهر في ذلك لأولي البصائر والأبصار، ما وضح وضح النهار، وصار عبرة لأولي الاعتبار.

ولما جدَّ أولئك الأشقون في الهرب، وشدوا حيازيمهم للقاء الموت والعطب، أخذ الموحدون أعزهم الله بمختق أولئك الكفرة المحصورين، أخذًا قذف في قلوبهم السلا، ولسهم بالكريمة وهل يبقى على البثر الخلا؟ فتيسر أمر تلك القصبة حرسها الله على أحسن وجه وأجله، وأتم صنع وأكمله، وتحصل الموحدون فيها على غاية الظهور، ونهاية الوفور؛ فارتفعت أصواتهم بالحمد والشكور، وسطعت آياتهم في مطلع الضياء المشرق والنور، ويُدل خوف تلك المدينة حرسها الله أمانا، وكفرها إيمانًا، ونطقت البيئة التهليل، بذلك الصنع الجميل، إفصاحًا وإعلانًا، وتيسرت عوارف الآمال، ولطائف الأجمال، تمكنا وإمكانًا.

ولما اتصل بالكفرة المنهزمين هذا النبا المهلك، والحتف المدرك، عاجلهم الأمر الوحي، وداخلهم الداء الدوي، وأراهم عاقبة الخسار والبوار رأيهم الدبري، ثم وصلوا إلى ساحة غرناطة حرسها الله منجزين ببقية ذماء، ومحيلين بأثر حمية واحتماء، ويواطنهم قد عصت بالفرق، ونفوسهم تفيض من الغصص والشرق؛ وكلما لاح بأفقهم لائح، وصاح بعقرهم صائح، تلهم للجبين، وأفهمهم بسرعة الفتح المبين؛ فهُم بين أحوال تعترض، وأوجال لا تنقرض؛ وشاهدوا مدة إقامتهم من تلك الأسوار، المجللة بالحماة، المكلفة بالكماة، المتوغلة في تلك الرماة والمسماة، ما زادهم خبالًا، وأورثهم ويالا، وأراهم وقع المكاره حسًا وخيالًا؛ والموحدون الذين بها

أعزهم الله يغيرون على أكنافهم، وينقصون من أطرافهم، ويتربصون بهم دائرة السوء في إحفالمهم وإيجافهم.

ولما رأى الشّليطين ما غمره من تلك الأهوال، وتضاف عليه من الخزي والنكال، وأفضى إليه من ذلك المآب الخاسر والمآل، فر من الموت وفي الموت وقع، واتسع الخرق على الراقع فما رفا ولا رقع، وألقى في آلاته المتتدبة، ومجانيقه المتتصبية، ما تصلى به ناره من النار الحامية الملتهبة؛ ثم استبجع ما جمع من تلك الجنود المنهزمة، ونثر ما أُلّف وحشر من تلك الجموع الملتزمة، وسار يجود بنفسه، ويتطارح على رسمه، ويندب في يوم تعسه، ما أسلف في أمسه؛ ولما وصل من مقربة من بيّاسة حرسها الله قيده المنية بقيدها، وأودعته مظلم حفرتها وضيق لحدّها، واقتضت نفسه الخبيثة اقتضاء العزم عجل على النسيئة بنقدّها.

وصدر فرط من معه هنالك من أشياعه وأتباعه بذلك المرأى الهائل، والمنحى الجائل، أجفل من النعام الشائل. وعند إحباس الطلبة الذين فتح الله لهم في المريّة حرسها الله بهذا الأمر الطارق، والفتح الخارق، بأدروا للفرور مسرعين، وجدّوا للحين مهطعين، يصلون التأويب بالأساد، واثقين بنجح الاجتهاد، وحامدين عاقبة الغزو والجهاد، حتى انتهوا إلى بيّاسة حرسها الله فتلقتهم هنالك عجائب الفتوح، وبرقتهم غرائب الفضل الممنوح، في مراقي الظهور والوضوح؛ وخرج إليهم أهل القطر حرسه الله جمًّا غفيرا، ونشرا متشرا كثيرا، كلهم يعلن بالدعاء تعظيما وتكبرا، ويسأل بركة الوعي والاسترعاء تمكينا وتقديرا؛ فلم يألوهم تسهلا وتيسيرا، ولا تعرّفوا من قبلهم إلا بشرى وتبشيرا.

وساروا إلى المدينة حرسها الله مفتحة لهم الأبواب، ميسرة لهم الأمانى الرغاب، تتهلل بهم وجوه الآمال، وتقبل وفود الإقبال، على ما اقتضاء ذلك العجب

العجاب. وقد كان انحصر بقصبتها من لم ير الأمر من وجهه، ولا تصوره على كنهه. ولما أبصروا تلك الغاشية قد لحقتهم، ورأوا تلك الآزقة قد أرهقتهم، بادروا إلى أئدة حرسها الله مبادرة الفلّ المنهزم، والقل المصطلم.

ولما اتصل بالطلبة أعزهم الله نبوهم قاموا بتتقيف تلك القصة الأشبه والمدينة الحصينة، وملثوا نفوس الناس بما سكّنها من الأمتة والطمأنينة، وساروا على الفور طالبين أثر أولئك الهاربين، حتى أفضوا إلى أئدة حرسها الله فتيسر لهم الفتح الجميل، والمنح الجزيل، ودخلوها بحمد الله أسرع من طرفة العين، ولم يسلموا البدار والابتدار لمشط الأناة والأين، بل صمموا تصميم الأجد، وتمموا ذلك الصنع الكريم بمقتضى الرأي الأسد، والأمر الأشد.

وانفتح أثناء ذلك من الحصون الممتنعة، والمعاقل المرتفعة، ما كان يعزب عن الأوهام، ولا يقرب لتناول الجيش اللهام، أتلاع تَزاحم أعنان السماء بمناكبها، وتُصادم فدوع النجوم بذوائبها. وبياسة وأئدة حرسها الله قطران عظميا المنافع، متسعا المسارح والمزارع، ممرعا الجوانب والأجارع، وعلى بياسة منها كانت عمدة الفار في شن المغار، والإلحاح في الأضرار، وبث السرايا في تلك الجهات والأنظار، والانسحاب على ما يَمُمّوه من الأصقاع والأقطار؛ وقد كانوا إتخذوها أصلاً يستندون إليه، ويعتمدون عليه، فشحنوها بالآلات المعلقة، والأقوات الممددة، تحصيناً لأُمّ مثواهم، وتمكيناً لأُمّ عدواهم.

وكانت بين بلادهم وبين بلاد الأندلس وفقهم الله في العهد المتقادم مسيرة أيام للشديد المذبذب، والسريع المُقرب، في مهامه طامسة الصوى، متصلة المنازل المستوبلة المحتوى، وكانوا إذا راموا الخروج طالت عليهم الشقة، وكثرت المشقة، فلا يصلون إلا بعد التقليل والتحذير، واتصال البرد بينهم والتنوير، فيرجعون عن

الخيبة والعناء، كارين من ذلك السبب والدهماء، إلى أن تمكن لهم أخذ بيّاسة حرسها الله فحصلوا منها بالجامع الرابط، والمانع الحائط، لا يعزب عنه محاول، ولا يبعد عنهم متناول؛ فأحلوا العباد، وأخلوا البلاد، وأخافوا الأغوار والأنجاد.

والآن وفقكم الله قد استراحت الأندلس من دائها العضال، واستباححت حمى الكفرة بمرهب القراع والنضال، وأراحت بنور الإيوان ظلمة الكفر والضلال، وارتاحت بنفائس اليمن والأمان في ملابس الحسن والإحسان والإفضال.

وخاطب الطلبة أعزهم الله معلمين على الجملة والإجمال، بتلك الفتوح التي تسنت على غاية الإجمال، على ما شاءت سنيات الآمال، ومبينين بأنها والحمد لله متصلة في عفوانها، جارية في ميدانها، ملء عنانها.

وأعلمناكم وفقكم الله بما تسنى من هذه المسرات المتوارة، والخيرات المتظاهرة، والآيات الظاهرة الباهرة، لتشيّموا بروق الرحمة، أين مصابها، ومستقر في نفوسكم محل هذه النعمة، ومصابها؛ فكم تيسر في هذه المكاتب العظمى من فتح اندرج على بواهر الفتوح، ومنح اتصل بسنيات المنوح، ونصر تُصرف في نيله بمدد الملائكة والروح. ألم يكن هذا الكافر الخاسر عبّّل الله بنفسه إلى النار، وأحله متبوأه من دار البوار، يشمخ بأنفه، ويعرض تأني عطفه؛ وها هو مجدل بحتفه، ومبدل من حياته ونجاته بنفسه وخسفه.

هذه وفقكم الله آيات بينات، وبراهين متعينات، قد سمرت عن مناظرها الرائقة، وأفصحت بعبرها الناطقة، وأنجزت والحمد لله مقدمات الوعود ومتممات السعود السابقة، والحمد لله الذي وصل المنحة السنية بكماها، وأطلع هذه الدعوة العلية في مظاهر جمالها وإجمالها، وجعل العاقبة الحسنى بمبدئها الأكرم الأسنى

ومآها. والله يجعلكم من الشاكرين لتعمه المتصلة الإمداد، المشملة الإسعاد، الجارية على أبعد الغايات والآماد؛ بمنه وكرمه. والسلام.

كُتب في العشر الأول من شعبان المكرم سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة.

الرسالة السابعة عشرة

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي عقيل عطية بن عطية المذكور:

يذكر وفود القبائل الذين ببلاد السوس والتماسهم الأمر وتوحيدهم وما
انضاف إلى ذلك من الوصول إلى تينملل وزيارة قبر المهدي بن تومرت:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى الطلبة والأشياخ والأعيان
والكافة بفلانة وأنظارها أدام الله كرامتهم بتقواه، وأمتعهم بعوارف نعماء وحماة سلام
عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله أهل التقوى والمغفرة، ذي الرحمة الميسرة، والمعونة المظهرة
المقدرة، مُقيم قواعد هذا الأمر العزيز على قواعد الخير والخيرة، ومُديم نضرة النعيم
للولجوه الضاحكة المستبشرة؛ والصلاة على محمد نبيه المؤتى بجوامع الكلم وبوالغ
الحكم، المتقررة. المتجلى في كشف الظلم، وإتارة القصد الأمم، بمطالعه المشرقة
النيرة؛ وعلى آله وصحبه الكرام البررة، أولى النفوس المتنورة، والقلوب القابلة
الثابرة؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، ذي الوعود المظفرة، والسعود
المسفرة، المبتعث بالبصائر المبصرة، والسرائر الطاهرة المطهرة.

وهذا كتابنا إليكم -كتبكم الله ممن أبصر آيات الحق المبين تُظهر وتُبرز، وغايات
السعد المكين تُحار وتُحز، وحرَمات الدين المتين تُحرس وتُحز، ومقدمات هذا الأمر
اليمون الأمين تستنجز فتُنجز - من حضرة مراکش حرسها الله، وقد كُرم بفضل الله
الورد والصدّر، ونيل المنح المتنظر والفتح المبندر، وجرى في استنائه، ملء عنانه،

القضاء المسعد والقدر، فاقتضت النفوس والحمد لله أحوالها السنية، وآمالها الجنية، وجمعت في منال أجرها، ومآل يسرها، العمل والنية، ونالت بسعادتها المستفادة، ووفادتها المستجادة، الأمن والأمنية.

وكل ما يطرأ بحمد الله من المنح الباهرة، والمنن الباطنة والظاهرة، فعن بركات الإمام المهدي رضي الله عنه منشأة ومنبعة، ومن مقاصده الشريفة، ومشاهده المنيفة، مشرقة ومطلعة. والحمد لله الذي تيسر به الخير أجمعه، وتحصل لأولياء أمره الأعظم وأهله ما يبهر مرآه ومسمعه؛ وإليه يحمد المرء ما تقدم بين يديه مما يحظيه وينفعه.

وقد كنا رأينا أعزكم الله أن نهض على بركة الله وعونه إلى جهات بلاد الموحدين أعانهم الله على قصد الاجتماع بجمعهم ليتجدد عهدهم بالذكرى، وتشافهم السنة البشرية، وتتمكن من نفوسهم مقاصد الحسنى واليسرى، وانضاف إلى ذلك من القصود المكرمة، والغايات الميممة، ما تيمن به، ورُجي الخير بسببه، واستحضر العزم في ابتغائه وطلبه. فسرنا بمن أمرنا بالنهوض من مشيخة الموحدين أعانهم الله وأعيانهم وطلبتهم وحفاظهم لا يقطعون واديا، ولا يتزلون ناديا، إلا وكُتب لهم به عملٌ صالح، وأملٌ سانح.

واجتمع هنالك بمن تجاوز تلك المسالك، من قبائل جدميوة ومضمودة وجنيفة ورجاجة، وحاحة، كل قبيل منهم في مستقرها، ومصاف ممرها، قد أغصبت الأباطح والرئى، واستروحت النصر بمناوحة تلك الصبا، وقد أعدوا لقبول الموعظة، ولادكار الموقظة، أسماعاً واعية، وقلوباً راعية؛ فأخذ معهم على وجهة التذكير والتبصير، في التعريف بمقاصد هذا الأمر المشرق المنير، وتقدير ما يسر لهم من مطالب التيسير، ومذاهب التبشير، وشمل جميعهم الحنان والامتنان، رحمةً للكبير، وشفقةً على الصغير، ورققاً بالقوارير؛ فطار بهم الفرح كل مطار،

وتحصل لنفوسهم كل استبصار واستبشار.

واستمر الأمر على هذه الصورة المجلوة، والسورة المتلوة، منقلبةً منقلبةً، ومرحلةً مرحلةً، وكلها تمكث فيها بحسب ما تقتضيه الحالات المحاولة، والأمور المزاولة؛ والموحدون أعانهم الله ينالون في أثناء ذلك من الخيرات المنهملة، والبركات المكتملة، ما عظم حسناً ومعنى، وبهر حسناً وحسناً.

ولما وصلنا أحواز بلد حاحة عمّره الله تلقينا هنالك جماعةً من قبائل جزولة الكششت وفقهم الله وهم يؤثّون هذه الحضرة حرسها الله راغبين في الأمان بالإيمان، وطالبيين عموم الفضل والامتنان، وشوغوا ما أملوه من المن والألطاف، وأعلموا بها في الخلاف، من الهلكة والتلاف، ويّين له أن المؤمن كالنخلة طيبة القطاف، والكافر كالأرزة مريقية الانعجاف.

فنطقت قرائن أحوالهم، على مطابقة أقوالهم، بما عندهم من صدق الرغبة، وحسن التوبة، وتمكّن القبيّة إلى أمر الله والأوية؛ وهم يتذمّون من إصرارهم، ويتوسلون بخلوص إعلانهم وإصرارهم، ويصرحون بأن ما سلف من أعمارهم، ليس من إعمارهم. وكان الاجتماع بهم على أحسن ما أملوه، وأيمن ما سألوه، وتقلدوا بتقليد البيعة عهد الله الذي احتملوه، ثم صدروا على بركة الله وقد ظفروا بالرحمة آثبهم وتائبهم، وشكرت مواقع النعمة ألسنتهم وحقائبهم.

وكانت في هذه الموافقة أكرمهم الله عبرةً من العبر، وآية من آيات الله الكبر، فإنها كانت على غير علمٍ من الجهتين، ولا ارتباط من الطرفين، بل كان ذلك بأمر إلهي، وتسخير رباني، واستمر سير الموحدين أعزهم الله لإتمام مقصدهم الأتم، والاهتمام بغرضهم الأهم.

ولما وصلنا إلى السوس عمره الله، تجدد للنفوس أعزكم الله، هنالك من العمل على التقوى والبر، ومراقبة حدود الله في العلن والسر، ما أسترسل على العموم والخصوص، وتبين في مقامات الإخلاص والخلوص؛ وظهر هنالك من آثار تلك البداية، وأنوار شمس الهداية، ما صار أوضح في النفس، وأبين للحس، من نور الشمس، وكان الوصول إليها أول يوم من شهر رمضان المعظم من هذا العام المبارك يمتنه الله فنيا سُحب النعمة اسكبي، ويا خيل الرحمة اركبي! خلّله ما ظهر هناك أظهركم الله من آيات جليلة، ومقامات منية عليّة، وكرامات معناوية وحسية.

ولما جدّ الموحّدون أعانهم الله في السير، وتجلّت لهم في البدار صورة الخيرة والخير، وصلوا إلى تارودانت عمرها الله فألقوا فيها من قبائل السوس عمره الله جموعاً غَشَتْ أديم أرضها، وامتدت مع طولها الممتد وعرضها، كلهم ينافس في البركة، ويرغب في الاختصاص بحظه من تلك الرحمة المشتركة، فاجتمع بهم قبيلًا بعد قبيل، وجيلًا إثر جيل؛ وصدروا عن مواقف التسليم وقد نالتهم الرحمة على السواء، وطارت الفرحة بجثتهم في الهواء؛ وظفّر هنالك أعزكم الله من خلوص أنفسهم بالطاعة، وبلوغهم في العمل بهذا الأمر الأكمل إلى غاية الاستطاعة، ما شهد لهم بالسعادة، وخرق في حقهم معهود العادة. والحمد لله الذي يسر ببركة أمره الأمور، وشرح الصدور، ووصل لأوليائه العلو والظهور، والفرح والسرور.

واستعدت النفوس أعزكم الله عند تمام ذلك وكماله، وبلوغ الجميع غاية مستناله، من آماله؛ لزيارة الإمام المهدي رضي الله عنه في مطالع نوره، وموضع ظهوره، حيث طلعت شمس الدين، وتبلجت أنوار اليقين، وسطعت آيات الحق المبين، ورجونا أكرمكم الله بمشاهدة تلك المشاهد المكرمة، والمعاهد المعظمة، تجددًا لهذا الأمر الجديد، وتيمناً بذلك المُرضي الميمون السعيد، وتبركًا بلمس المنازل

المكرمة من ذلك الصعيد، وتمكّنّا لمقاصد هذه الدعوة العلية في محال التّأصيل والتّقييد؛ فسرنا بمشيئة الله وبركته رضي الله عنه متكفلة بتقريب البعيد، وتدليل المسلك الأوعر في حالة التصويب والتّصعيد. فكانها رويت الأرض ليؤدى ذلك القفر.

ووصلنا على بركة الله إلى إيجليز بمئة الله فلو حظ ما هنالك من الآثار بعين الإكبار، ورأينا البركة في تلك الأنجاد والأغوار، متضحة للبصائر والأبصار؛ وغص ذلك الجو المشرق، والأفق المحدث، بما سطع فيه من الأضواء والأنوار. ثم صعد إلى منتهى العصمة، ومهبط مليكة الرحمة؛ فنزل عن الأكوار، وتبرّك بذلك المسجد المعظم والغار، ودين بتعظيم ذلك المشهد الكريم في الإعلان والإسرار. وأقمنا فيه أيامًا تبركا بفنائه، وتهمًا بينائه، ونُصب على باب الغار المقدس باب يقية من أهوائه، ويدفع عنه مضرة أنوائه؛ ثم نُظر في إقبائه، وتغطية أرجائه، وتسوية أرضه وسمايته؛ وتم والحمد لله على ما تُؤخى فيه من حسنه واستوائه، وظهر على جوارح المعتملين في إحيائه، ما تبين من نوره وضيائه.

واستمرت التلاوة في المسجد المكرم، مدة الإقامة بذلك الموضع المعظم، ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، واجتمعنا هنالك بشيوخ هرغة وأعيانهم وفقههم الله ويُشروا بها توجه إليه سؤلهم، وأُمَّتُهُ آمالهم؛ فطابت قلوبهم وحسنت ظواهرهم وغيوبهم، ويُذِل لهم من الصّفح الجميل والمنح الجزيل مستولهم ومطلوبهم. ووادعنا تلك المنازل المرفعة، وقد أوعت النفوس المودعة، وصارت القلوب المشبعة المشيعة.

واتصل السير أعزكم الله في أثناء تلك الجبال التي يرتد الطرف عن مداركها، ويستجد طالب العصمة في مسالكها. فلم يزل السير والتسهيل يأخذ بالضع، ويظهر إثر ذلك المرتبّع والربّع، ويدل عن مسلكها الأيسر، ومأخذها الأحوط، على

مقتضى النظر والطبع. وعند ما انتهينا إلى آتسا عمّرها الله وهي طرف بلاد السوس، ألفينا قبائل تينمّل وهنتاة، ومن انضاف إليهم من قبائل تلك الجهات حرسها الله قد انبسطت على بسيطها، وأحاطت بمحيطها؛ فقضوا لُباناتهم من التسليم والاجتماع، ورأوا أمنيّاتهم من مدارك الأفتدة والأبصار والأسماع. وأقام الموحدون هنالك متعرفين من الخيرات التي أرسلت سماءها، ووصلت نعاءها، وأرث بنمو البركة ريعها ونماءها، ما وسّع الجميع، وألزم الضيع، وأمر جنبهم المريع، ونظم بوقده الرهدة والريع.

وكانت البيّنة أعزكم الله على أن نعم بالتطوف قبائل القبلة من صنهاجة وهسكورة وكافة من بتلك الجهات حرسها الله قصداً في إكمال النعمة عليهم، وإقبال الرحمة إليهم.

ولما رأينا أن فصل الشتاء قد أشرف، وفصل الخريف قد انقبض وانصرف، ووقت الاغتمال فيما يستقبل من الاشتغال قد أبد وأزف، وما كان تُؤخي من الاجتماع بقبائل الموحدين أعزهم الله قد كُمّل، وأدرك ما يُمّم وأمل، ورأينا أن الأحوال بعواقبها تكمل، وأن الأعمال بخواتمها الشريفة تشرف وتجمل، رأينا أن نختم هذه السفرة التي سمرت عن العجائب، وأظفرت بالرغائب الغرائب، بما هو غاية الأعمال الحسنة، ونهاية الآمال الممكنة، من زيارة قبر الإمام المهدي رضي الله عنه حيث تبوأ شخصه الكريم، وتروض نعيمه المقيم، وتوضح نوره المبين وأمره العظيم؛ فسرنا على بركة الله وعونه والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه، وسارع بها الحرص إلى معالمة المقدسة وأعلامه.

ولما نزلنا على مرحلة من آتسا عمّرها الله وافى وفد جزولة وهسكورة وقبائل الكُست من شيوخهم وأعيانهم وأهل الحل والعقد منهم وقد طاروا للحاق، وثاروا

للرحمة والإشفاق، واستنزلتهم عوارف النعمة من مظاهر الآفاق، وغوامض الإنفاق، ومسحت أيدي المنّة على ما كان عندهم من الشقاق والنفاق، ورأوا أن أمر الله لا تمنع منه الجبال الشاخنة، والأطواد الباذخة، بل هو مسترسل على الأبعد والأقرب، ومستولٍ على الأسهل والأصعب، وعدّ موعود، وأمرٌ مشهود؛ فوصلوا تائبين آثمين، وعن سبيل الشقاوة والغباوة بائنين وناكبين، وللرحمة المستحقة والنعمة المستمنحة سائلين وطالين، وفي قبول التوبة من الذنوب وتطهير الخربة من الحرب متضرعين وراغبين.

وورد في أثناء ذلكم أعزكم الله سائرٌ من بتلك البلاد كلها من القبائل مثل لمطة، وجزولة، وكافة من آوته تلك الأقطار، وضمته تلك الأنظار، وحوته السهول والأوعار. وتحرك - أعزكم الله - المغرب الأقصى بجملته وطمت عواربه، وفاضت جوانبه، بضجة ذلك الفيض الفائض. وأعلم ذلك الوفد المتقدم ذكره، المتقرر أمره، أن الطرق بسائر تلك البلاد عامرة المناهل، معلمة المجاهل، ليردوا موارد الصفح والحنان، ويعتصموا بعروة الإسلام والإيمان. وأقام جمعهم الكثير، وملؤهم الكبير الأثير، وهم يلقون من الموحدين أعزهم الله ما أودعهم كنف الاهتبال، وصرّف إليهم وجه القبول والإقبال، وعرفهم غاية المستمنح المستنال، من سنيات الآمال، وأسبغ عليهم من رياض الجنة، وحياض المنّة، وارفات تلك الظلال؛ وأفهموا في أثناء ذلك من مقاصد الحق الميين، وعقائد الدين المتين، ما شرح صدورهم، وضاعف سرورهم.

ثم تأكدت رغباتهم، وتجددت طلباتهم، في تقلد البيعة وشروطها المتبينة، وعقودها المتمكنة. فاجتمع بجمعهم قصداً في حملهم على المثلى، وتبصيرهم هذا الحق الأجل، وتفهمهم ما يُسرّ لهم من هذا الأمر الأسنى الأعلى؛ وعند ما تبينت

لهم أحوال اليسرى، واتضح لهم أن من كذب بالحسنى مىسر للعسرى، وتهللت صفحاتهم باليسرى، وانهلت عبراتهم من الذكرى، ورأوا فى التمسك بهذه الدعوة العلية سعادة الأولى والأخرى.

وأخذ معهم - أعزكم الله - فى تفهيم غرض هذا الأمر الكريم من الدعاء إلى الله تعالى فى السر والجهر، والعمل على طاعته فى المنشط والمكره والعسر واليسر. وقُرِبت لهم تلك المآخذ حتى صارت لنفوسهم فى غاية البيان، وأرثهم مقامات السعداء، ومآلات البعداء، رأى العيان؛ فثرت ألسنتهم من عقال، وأتت لكل مقام بمقال، واندفعت خطباؤهم تعرب بألسنة الإبانة والإجادة، فيما تيسر لهم من السعادة، وتحصل لهم من الحظوظ المستفادة، وأعلموا بما اجتمعت عليه قلوبهم من العمل على الإيمان والأمانة والعدل والعبادة؛ وأشهدوا على أنفسهم فى الوفاء بالعهود، وحفظ المقاصد المكرمة والقصود، عالم الغيب والشهادة، وصرحوا بتخليصهم من الميتة الجاهلية، وحصولهم على المطالب الدينية والدنياوية فى تلك الوفادة.

وانصرفوا - أعزكم الله - عن ذلك المحفل العظيم، والمجلس الكريم، وقد ظهر عليهم من صدق الإنابة، وفرط الإجابة، ما حجب جميعهم، وملاً بالمسرات بصرهم وسمعهم؛ وانقلبوا إلى بلادهم بنعمة الله وفضله متفيئين وارف ظله، آثين بخير ما صدر به الصادر لأهله؛ ولم تزل جماعتهم تتصل، وأعيانهم وسرواتهم تقتبل، وشيوخهم وكبراؤهم تسرع وتستعجل، يشر منهم الناهض القاصد، والصادر الوارد.

واستمر الأمر على هذه الصورة المذكورة إلى أن وصلنا إلى تينسليت عمرها الله فؤودع منهم بها جمعٌ كثير، وبشرٌ كبير؛ وصاروا بفضل الله عليهم أجمل صدور وأبهاء، ووصلوا فى مضاعف إحسانه، ومترادف أمتانه، غاية الشكر ومنتهاه. وأعلم سائر من خص بالورود، من هذه الوفود، أن كثيراً من شيوخهم عجز عن اللحاق

لكبرته، وقلة استطاعته على السير وقدرته؛ فخلّفوا منهم على ظهر الطرقات من قتل الزمان قيده، وأضعفت السنون أيده.

وقد كان وصل إلى تينملل كرمها الله بوصول الموحدين إليها، وورودهم عليها، جماعة كبيرة من كرائم قومهم وكبرائهم، وأولي التقدم منهم في مصالح أمورهم ومعاهد آرائهم، كلهم يرغبون في الإسلام، ويتوسلون بحرمة ذلك المقام، ويرون أنهم قد أثرتهم السعادة، على من قدمته الوفاة، بالوصول إلى محل الإمام، والحصول من الزيارة المكرمة، في تلك الدار المعظمة، على تظفر بدار السلام.

وصدروا - أعزكم الله - وصدورهم منسرحة بالحسن، ونفوسهم فرحة بأملها المستدنى، ووصلهم مرتبطة بهذا الأمر الأسمى الأسنى. وقبائل الكُنت سددهم الله قد انبسطت الآن في ظلال الأمن والمنن، وحطت أرجلها عن ظهور تلك القلع والقنن، وتحصنت بما يُسر لها في أحصن الوقايات وأوقى الجنن، واتسعت آمالهم في الحرث والزراعة متبركين بالطاعة، وشاكرين بغاية الاستطاعة. والحمد لله الذي بذل الرحمة لعبيده، ووصل النعمة بتسديده، وأجزل المنّة بنصره وتأنيده، وكمل هذا الطور الجديد، والدور السعيد، ببالغ الصنع وجديده، وألقى مقاليد الأمل لمراده في الأزل ومُريده، ويسر عوارف الفتح المبين، بتمكين أمره المكين، وتمهيده.

ولم نزل نحن - أعزكم الله - مُذ وادعنا تلك الجهات المذكورة بمقربة من آنسا عمرها الله نصل السير حتى انتهينا إلى تينملل كرمها الله فتعرفت النفوس المؤمنة منها، وأبصرت سناء العصمة وسناها، في محلها المقدس ومعناها، ورأت في متبواتها المعظم ومثاها، شخص الكرامة ومغداها، وشاهدت بين قبره المنعم، ومسجده المكرم، روضة من رياض الجنة يسحب ظلها ويقطف جناها. وثمت هذه الزيارة والحمد لله تمامًا على التي هي أحسن، وانتهاءً إلى ما يعز من مرضاة الله ويتعين،

واغتنامًا لما يتضح قصده الجميل ويتبين.

وسار الموحدون أعزهم الله بعد المواجهة الكريمة، ونيل البركات العظيمة، وقد تخلصت النفوس من الشوب، واستقبلت بالتوبة النصوح قبل التوب، وتنقت من الذنوب والخطايا كما ينقى بالماء دنس الثوب، واستمر السير -أعزكم الله- وقد أرسلت الرياح مبشرات بين يدي رحمته، ومسخرات بحكمه وحكمته، وجاءت المُنَزَّلُ الغواصي، كما تمشي البُزُلُ مثقلة الهواصي؛ فسحت في الجواضر والبواصي، وجادت الربوة والوهدة والقنة والوادي. ووصل الموحدون أعزهم الله إلى هذه الحضرة حرسها الله وقد نشرت بساطها الأخضر، ونمقت بسيطها الأنضر؛ ودخلوا والحمد لله على ما أمّلوه من السلامة، والكرامة، وأحلتهم تلك الأجور المنتظمة، والمقاصد المغتنمة، محل الإقامة، ودار المقامة.

وكان الوصول -أعزكم الله- في الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم واختتمت السفرة باختتامه، وأشرقت الآمال والأعمال بلياليه المشرقة وأيامه، وظهرت في تلك المساعي الجميلة، والمناحي الجزيلة، بركة صيامه، وقيامه.

وخاطبناكم -أعزكم الله- بهذا الكتاب، على جهة الاقتضاب والإلماع بهذا العجب العُجاب، والفتوح التي هي محارة العقول والألباب. وإلا فالأوصافُ مقصرة عن نعتها، والألسنةُ معبرة عن عظمها بصمتها؛ فاستبشروا بما بُشِّرْتُمْ به من هذه المنح التي أنطقت الجحاد، وخرقت المعتاد. والله يجعلكم ممن تنعم بنعمها، وتعرض لنفحات رحماها، وآتى نفسه تقواها وزكاها، وهو خير من زكاها. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ في الثامن من شوال سنة اثنين وخمسين وخمسمائة.

الرسالة الثامنة عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش:

أما بعد حمد الله الذي عم بنوالة، وخص أهل ولايته بقبوله وإقباله، والصلاة على محمد عبده ورسوله، وعلى صحبه الأكرمين وآله، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بإتمام أمر الله وإكماله، المؤيد بالآيات العصمية، والبيانات الحكمية، في كافة أقواله وأعماله؛ فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم أعمالاً زاكية نامية، وآمالاً في بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية - من حضرة مراکش حرسها الله وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدها الأعلى، وتوجب على الاتصال خطوة الاتصال لأهل كلمة الله العليا، وتجمع لهم حتماً مقضياً، ووعداً مائتاً، بين خير الآخرة، وخير الدنيا؛ ويثبت هذه القاعدة، تستوسق أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة، وتستن اطراداً واتساقاً على طريقة واحدة.

وقد أنبأ كتابكم الأثير بمكيفات الطاف تيسر لكم أسبابها، ولا يغبكم إشعاراً بالعادة إلمامها وانتياها، ولا يبعد عن استطلاعكم دنوها من وفق الآمال واقترابها، من خضد شوكة لعدو، وكسر حدّ وحدة لذي كفور وعتو، وتعرّف في أثناء هذه المجاري لسمو، مجدد لأمر الله وطائفته وعلو، واستصحاب عونٍ على أمداد من الأقوات، ومرابط المستحقات، تُشدّها قوى الطاعة، ويتوخى بها ما يتوجه من إقامة فروض الله الممثلة المطاعة. وجميع ما أشرتم إليه مشكوراً منحا، محموداً مقصده ومغزاه، مستمرٌّ على الاجتهاد وسبل الجهاد مأتاه. فاشكروا الله على ما خولكم من منته، وخصكم به من المساعي المبرورة في إقامة سنته وسننه، واحمدوه بواجب حمده

يؤتكم كفلين من رحمته ويؤوكم من ركنه الأمل وأمكنه، وتنادوا على أحسن أحوالكم وإقامة وضائف البر، وانتوا ما يرضى الله في الجهر والسر.

والله تعالى ينجدكم بعونه، ويجعلكم في كفالة حفظه وصونه؛ وعليكم بتقوى الله في جميع أحوالكم، ومراعاة التحفظ في كافة أعمالكم، والاعتماد على المذاكرة والاتفاق في الكثير والقليل من أشغالكم؛ ولا يتمكن التأويل في أمر من الأمور منكم ولا يغلب التحكم في سر ولا جهر عليكم. ومتى ظهر هناك أمر أو طرأ في شيء غرم فلتعرضوه عن المذاكرة والمشاورة وتقفوا به على الاتفاق والاجتماع، ثم تطالعوا به قبل إنفاذه وإفاته فقي ذلك من الخير والبركة ما تضمنته المشورة من الفائدة، وجيل العائدة؛ وبعدها يكون التوكل على الله تعالى. والله يوفق آراءكم ويرشد مذاهبكم وأنحاءكم بمته. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب في الرابع عشر من رجب الفرد من سنة ثلاث وخسين وخمسمائة.

الرسالة التاسعة عشرة

وهي من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمه بمعونته إلى الطلبة والموحدين الذين
بإغرناطة أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه؛ سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي على عونه مستند الاعتصام، وعلى معارج تيسيره منعطف
كل مرام، ويحوله وقوته مورك كل بدء من الأمور وتمام، وهو أهل الشكر والحمد
على الإحسان المتتابع والإنعام؛ والصلاة على محمد عبده ورسوله موضح سبل
السلام والإسلام، والمبتعث إلى الأحمر والأسود من كافة الأنام، وعلى آله وصحبه
البررة الكرام؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المخصوص بالعلامات
الصادقة والأعلام، المبشر من ظهور أمره العلي، وتعيينه المراد المعني، بما فاضت
تباشيره، وسالت أساريره على صفحات الليالي والأيام.

فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم تعرف الآلاء المستجدة، وبركة المواهب التي هي
من بحر عطائه مستمدة، من منزل الموحدين أظهرهم الله، بظاهر المهدية فتحها الله
ووعدُ الله لأولياته قد فض الإنجاز ختامه، ويرز لياليه المخبوءة وأيامه، وأجرى
بأعلى حزبه المفلح قضاياه الماضية وأحكامه، وأخبر طائفة هذا الأمر الكريم وعامري
صراطه المستقيم، من ثمرات هذه الحركات المشهود لها بميامين الأقدار، المستنة في
مضمار الاختيار، ما بلغ فيه والحمد لله من إظهار دينه وتمشية أمره إلى أفضل مأمول،
ووقف منه على عناية الله الباهرة للعقول، المطابقة لمواقع المطلوب من فضله
والمسئول.

ولله تعالى في بركات هذا الأمر العزيز رحمة على العباد ممدودة، وإشارة في معنى العموم مقصودة، وإرادة في حياة المعرق والمشيّم والمنجد والمتهم موجودة مشهودة، ليأخذ الأمر العزيز بمجامع الاستواء، ويطبق بمطارج الأدواء، ظلم الأهواء، ويعمها تصديقاً للخبر، تحقيقاً لوارد الأثر، بالقسط والعدل على حد سواء.

وما زلنا - أعزكم الله - وهذه المطالع الشرقية مأثم الركاب، وإليها مرتقى الأسباب، والجهد المظفر يتابها من كل مدخل مبارك وياب، نلتفت من تلّكم الجهة إلى العدو الأندلسية حفظها الله بما يجب لها من الالتفات، ويجمع على قصدها أطراف هذه المقاصد والأشتات، ويجعلها الجهة الميمنة وإن تقسمت العزائم من جهات، تمكيناً لاستحداث العزم، واستئناف الأمر الجزم، إلى أن أرسل الله من فضل إنعامه، وصيب إخطاره وإلهامه، ما استُخِر فيه تعالى فصدقت به الاستخارة، واستقلت به الأفكار المدارة، وأذنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذائها مقدمة البشارة، وهو النظر في احتطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق عمره الله مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرين، يختصّ بعون الله بهذا الأمر العزيز إنشاؤها، ويكون إلى إيجاده اعتزاؤها وانتهاؤها، ويرتكز بفنائها علم هذه الطائفة ولواؤها.

وإننا لنترجو أن أشعة النصر لتلك الجزيرة تثبت من مطلع هذا الشارق والشاهق، وتلمع في كل مطرح بكل بارق، وتضم إلى حزب الله وفيئته كل منافر ومفارق، ويكون النظر المحتل بذراه، المنعقد بعراه، مطلاً إن شاء الله على المغارب والمشارق.

وقد قويت العزيمة بحول الله على الاشتغال ببنائه، وعمارة فنائها، والأخذ في شأنه، وإعداداه على مقتضى المدن المحصنة المحسنة لأوانه. واستخرنا الله تعالى

ووجهنا الشيخ أبا إسحاق براز بن محمد والحاج يعيش أكرمهما الله للاشتغال بذلك على ما وادعناهما عليه وذاكرناهما به في كيفية الاشتغال، وصورة الاعتمال، ولتجمعوا - أعزكم الله - ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين أكرمهم الله بهذا الجبل المبارك مع إخوانكم الطلبة الذين ياشبيلية ومن عندهم من أصحابهم والواصلين من قبلنا الذين ذكرنا لكم توجيههما؛ وتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها وإجادة الاختيار وتوسعة الغناء.

وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص أعزه الله ليصل إلى ذلك المكان إن تمكن له؛ وخاطبنا الشيخ القائد أبا محمد عبد الله بن خيار أكرمه الله ليصله وتتلاقى هنالك الآراء المذاكرة المباركة. وعند الشيخ أبي إسحاق والحاج يعيش ما ذاکرناهما فيه مما يُعتمد عليه إن شاء الله. والله يُعرّف اليمن في ذلك والخيرة، ويجعله عنوان الإقبال وفاقحة النصر بمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أعزكم الله! خلال النظر في إنفاذ هذا الكتاب إليكم، سنى الله تعالى ما يصلكم صحبته من فتح قفصة وما اتصل بفتحها من مخاطبة عرب قابس الذين فروا منها وقت فتحها، وطلبهم للأمان على ما اقتضته المخاطبة إليكم. ونحن قد استخرنا الله تعالى على التوجه إلى الغرب والحركة لاستقبال تلکم الجهات؛ وأخذنا في أهبة ذلك. فاستعدوا له، وشدوا أنفسهم، واضبطوا مواضعكم، فكان بنصر الله الذي وعد به وإتمام أمره لأهله ولا بد من دوامه ما دامت السموات والأرض. فلتعرفوا بذلك جميع الموحدين وتبشروهم به ويمطالعة الفتح لهم إن شاء الله. والسلام.

كُتِبَ في الموفى عشرين من ذي قعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة.

الرسالة العشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحكم بن عبد العزيز بن المُرْخي:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمدّه بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بقرطبة أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرفهم عوارف حسناه، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي أيد هذه الدعوة العلية ونصرها وأعزها وأظهرها، ورفع مقامها وأعلى مظهرها، ووهب لطائفها المنصورة، وصحابتها المبرورة، من إنجاده، وإسعاده، ما سهل مراماتهم ويسرها، وسأوى في تحقق إنجاز وعوده، وتيقن اتصال نصره العزيز على أحسن معهوده، مضمورها ومظهرها، وكتب في إعلاء دينه وتمهيد أمره أمدّها الممتد وأثرها، وجعل كلمتها الظاهرة، وملكتها الغالبة القاهرة، وأسماها وأظفرها، وأزأى الفيئة المعاندة، والأشابة النافرة على أمر الله الشاردة، من عزماتها المظفرة، ومحاولتها الميسرة، ما راعها ويهرها؛ وأذلها وقهرها، وأداها بعد الإباء والعناد، إلى الإذعان والانقياد؛ وصيرها.

والصلاة على محمد رسول الله المبعث وقد أظهرت الجهالة منكرها، وعبدت الجهلة طاغوتها وصورها، واتبعت في خبط غشواها وسحب فضول أهوائها عمايتها المضلة وسدرها، فأرهب الله بحقه باطلها وأخذ شررها، وأخذ عن النار ومزالق العثار بحجرها ويشرها وأنذرها؛ وعلى آله وصحبه الذين بوأتهم القرابة محلها

وخولتهم الصحبة أثرها؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المظهر الشريعة جده عليه السلام بعدما أخفاها الضلال وأضرها، وأشعرها بالباطل من تبدّله وتغيّره ما أشعرها، فقام بأمر الله يصدع بنور داجيها ويجلو معتركها ويوضح سبلها الطامسة ويحيي أثرها، ويميت مدبرها، حتى أعادها الله على جادتها اللاحبة البينة وقررها؛ وعن مُظاهره ومؤازره، وخليفته وصاحبه وناصره، الإمام أمير المؤمنين الذي بث كلمته الهادية ونشرها، وأرقاها في مراقي النماء ومدارج الإكمال والإنهاء مبيناً أغراضها ومظهرًا غرورها، ووصلها إلى غايتها من الارتقاء والإعلاء فأوضح معالمها وأطلع نيرها.

فإن كتابنا إليكم -عزّركم الله من بشائر هذا الأمر العزيز المتواردة، وفتوحه المتناصرة المتعاضدة، ما يملأ أسماعكم، ويعمر بوافد المسرات، ووارد المبهجات المبشرات، أرجاءكم وأصقاعكم، ويجعل في شكر نعمه، والتحدث بآلائه الجمّة وقسمه، تلاقيكم واجتماعكم- من داخل قفصة مهدها الله وقد فرج النصر العزيز مبهمها، وأنار الفتح المبين مظلّمها، وأعادها الله إلى ملكة هذا الأمر العزيز ونظمها، وألهم أهلها رشدهم وهداهم، وصرفهم عن غيرهم الذي استهواهم، بعد أن امتد في الضلالة مداهم، واتخذوا حبلًا وعنادًا لإلهم هواهم؛ فتلافاهم برحمته، وآواهم إلى حرم هذا الأمر العزيز وعصمته، ومد عليهم رواق منّه وظل أمانته، وانتاشهم وقد أشفوا على جُوف العطب وهوته.

وقد علمتم أعلمكم الله رشادكم ما كان من المتزّي فيها من الإيضاح في الفتنة والمروق من الطاعة والولوج في غيابات الارتياذ والمعصية، وأنه استدعى من ذؤبان الأعراب وأوباش الأكراد شباهه في الضلالة، ونظائره في الغي والجهالة؛ فشن الغارات بهم، وقطع السبل معهم، وتوصل إلى السعي في الأرض بالفساد بسببهم،

وتراكصوا جميعاً في ميدان العيث، واستبقوا في حلبة الاعتداء، وأجروا ملء أعينهم بالخلاء، وغرهم ممتد الإمهال والإملاء؛ فازدادوا إثماً، وانهمكوا في استحلال المحارم جرأة على الله وبغياً؛ فتعين حسمُ دائهم، ووجب توجيه النظر إلى إطفاء نارهم.

وكنّا وفقكم الله عند احتلالنا بإفريقية حرسها الله عرفناكم بموجب هذه الحركة المباركة، وأنها لم يتقدمها قصدٌ ولا أُعمل فيها فكر، ولا مُهد لها تعويلٌ عليها ولا عزم، وأن مُحركها القدرُ المُسعد، والباعث عليها لفور الأخذ فيها صنعُ الله المؤازر وعونه المُنجذ؛ وأعلمناكم ببعض ما انطوى فيه من الخيرات المتصلة والبركات التامة والإرادات الميسرة، وما كان فيها من وصول أشياخ العرب وأعيانهم، وإهطاعهم إلى داعي هذا الأمر وبدارهم. وكان من قصدنا فيها وإرادتنا بها النظر في أمر هذه المدرة وإزاحة علتها وتطهير هذه الأصقاع من دونها، إذ كانت شجاً في صدور أهلها، وقذًى في عيون قاطناتها، لكونها أضحت مركز المفسدين، ومأوى المتلصصين المتمردين.

وكنّا نتحقق أن الدواء الأنجع في دائها، والأمر الأنفع في محاولتها، وصولُ جميع الموحدين أعزهم الله إليها، ونزول جملتهم عليها. وكان مما خدع الفساق الذين كانوا بها وغرهم، واستقادهم إلى التهادي على الإصرار واستجرهم، حصانة بلدهم، وشهوهُ أسوارهم، ووعورةُ مواجلهم، وخرج مداخلهم، وإحاطة الصحراء من كل ناحية بهم، وعدمُ الأقوات في البلاد المجاورة لهم.

وتعذّرُ جلبها من المواضع النائية عنهم، وأن كل عسكر ينازلهم من جميع هذه الجهات يستقلون بمقاومته، وينهضون بمدافعته، وأن العساكر الكثيرة والجُمَلُ العديدة لا يتهيأ لها المقام عليهم، ولا يمكنها مطاولة حصارهم لكثرة ما تحتاج إليه من الأقوات، ونزارة ما يعمها في طريقها إليهم من المرافق والمياه.

وهيات أن تحصن من هذا الأمر العزيز الشواق، أو تمنع منه السوابق، أو تعصم من استيلائه الأسوار والختادق، أو تحول دون مرأه الفَيْح والسَّالِق؛ فهو أمر الله العزيز جانبه، المكبوت مناويه ومجانبه، المأخوذ بين القهر والقصر مقاومه ومقالبه. فقدمنا بين أيدينا طلبة بجاية وفقهم الله مع من كان معهم من عساكر الموحدين الذين ببجاية وإفريقية وفرها الله تقدمة للإعذار، وأخذًا بالحجة والاستظهار، ليتبها من سنات الاغترار، وثبوا إلى الارعواء والاستبصار، وقرعوا بالنجوع بالطاعة، والرجوع إلى الانتظام في تلك الجماعة، باب المناب والاستغفار؛ فقبل توبتهم، وتقابل بالصفح الجميل أوبتهم. فأبى لهم شيطانهم، وغلبت عليهم شقوتهم، وتنادوا على بغيهم، واستمروا على ضلالهم القديم وغيهم.

وكنا بعد انفصال الطلبة أعزهم الله عنا نهضنا بجملة الموحدين أعانهم الله تؤم القيروان كلاًها الله ليكون طريقنا عليها. وقبل وصولنا إليها وافتنا كتب المذكورين بأن الآخرين أعمالاً أوقدوا للعصيان ناره، واستشعروا أشعاره، ورفعوا للدفاع أعلامه وأخذوا له أوزاره. فاستخرنا الله تعالى في النهوض إليهم، وأمضينا العزائم المؤدية على الحلول بساحتهم والإطلال عليهم؛ ونهضنا بالموحدين أعزهم الله ودلائل النجج بادية، ومخايل الفتح لائحة، وعلامات الظفر متضحة ظاهرة، ومعونة الله تعالى بتسهيل المطلب وإدناء المرام كفيلة ضامنة.

ولم يعد الموحدون وفقهم الله في طريقهم مرفقا، ولا لقوا والحمد لله من سفرهم نصبا، وأخذوا على طرق بعد العهد بسلوكها، واشتبهت على عمرة هذه الأصقاع مناهجها وسبلها، وألقوا بها من المرافق الواسعة والمياه المعينة ما لم يحتسبه أحد، ولا خطر على بال ولا دار في خلد؛ وتيقن أولو الأكباب وتحقق أهل الاعتبار أن هذا الأمر مصنوع له ومؤيد عزمه، ومكتنف بعون الله مراده ورومه، وأن الغاية

الإلهية والمعونة الربانية تنجدان عزائمهم وتيسران أغراضه ومطالبه.

واستمر يسر الموحدين أعانهم الله على هذه الحال الموصوفة، والصورة المجلوة، إلى أن وصلوا إليها، وأناخوا بفنائها؛ فأول إشرافهم عليها ارتبك الأشقياء في مهاوي المعاصب، وأبدوا صفحة المناصب المصالب، وكشفوا عن ساق المجاهد المحارب، ظانين أن هذا الأمر العزيز تعزه سامكات المعازل وطامحات المراقب؛ ولو أحصنت البوارج وأجنت، ودفعت الشوامخ عن المسند إليها وأكنت، لمنعهم هذا الحصن الذي تصاقب النجم هضباته، وتذلل العصم قذافته، وتلفح بنسج الغمام بروجيه وشرفاته، لكن أمر الله لا ترد عزماته، ولا تقاوم بطشاته القاهرة وسطواته.

واشتغل الموحدون بترتيب نزولهم وتهيئة مروسهم واضطراب محلاتهم بأفئتهم؛ فلما أصبحوا رجعوا إليهم ونصر الله يؤازرهم، وصنعه الكريم يظهرهم؛ فنازلوهم أشد نزال، وصالوا عليهم أعظم مصال، وأروهم من هول المصاع وصدق القتال، ما قصرهم عن الاسترسال، وصيرهم بعد التبسط والإقدام إلى الانقباض والانخزال؛ فانكمشوا في أحجارهم، ولاذوا بقننهم المنيفة وأسوارهم، وأجروا طلق شرهم في مضمار اتخذاهم بمعقلهم واغترارهم.

وكانت حول البلد غروس وبناءات وعُرت المسالك وضيق المنافذ وأشبث المداخل إليهم والمخارج؛ فأخذ الموحدون وفقهم الله في هدمها، ونظروا في إزالتها وجدوا في تعفية رسومها؛ ونقلوا مضاربهم بحيث يسمعون سرارهم. ويتعرفون مع اللحظات أحوالهم، وأحدقوا بهم أتم إحداق، وأحاطوا بمديتهم إحاطة الأطواق بالأعناق، وشدوا عليهم أنشودة الحصار والخنادق، وسدوا دونهم خصاص الأنقاب والأنفاق، ولم يؤخذوهم منفسا لانسراب ولا مذهبا لارتفاق، وأشفوا بهم من ضنك النكال وضيق المجال على شفر الإرماق، ونصبوا عليهم مجانيق بلغت في

نكايتهم المبالغ، وأحلت بهم القواضم والدوامغ، ونهكت أسوارهم، وهدمت ديارهم، وعفّت آثارهم، وأصلّتهم بناعب الحمام، ووحى الموت الزّوام، أمهم الهاوية ونارهم.

وهم مع ذلك لا تسعى بهم إلى منجاتهم قدّم، ولا يهديهم إلى استئزال الأيمان، وتطلب العفو والغفران، تروع من العصيان، ولا ندم؛ ولا زادهم ما نزل بهم من أمر الله إلا لجأجا في تهورهم، وتتابعاً على غمهم وتحيرهم، واستيطاء لمركب الاستئامة إلى قريتهم المحصنة وجدرهم. فرأينا والمستعان الله أن مقاتلتهم بآلات تعلو عليهم، ويتعجل معها مرام أخذهم، أصلح بالموحدين أعزهم الله واصون لهم وأوفق لما نؤثره من الشح بهم، والاحتياط عليهم، مع ما في ذلك لهذا الأمر من فخامة التناول وعزة القهر وظهور القوة وإرهاب العدو.

وإن كنا نتحقق أن وعد الله لأمره ناجز، ونصره لحزبه المفلح لا يحجبه حاجبٌ ولا يحجزه حاجز، فالنظر في الأسباب لا يناقض هذا العقد المتمكن، ولا ينافي الثقة باطراد فتحه لأوليائه على سنته الأنجب ونهجه البين. فأخذ في عمل ما يصلح ذلك من الآلات والأشكال، وصُرف إلى التهمم بها والعكوف عليها وجهُ القصد والاشتغال؛ فتيست والمحمود الله في أقرب ما يمكن من الآباد والآجال.

واتفق بين هذا الأمر السعيد وبركاته، وبراهينه الواضحة وآياته، أن جلب النصرارى العود الموافق لذلك ولم تجر عاداتهم بجلبه، ولا سبق لهم في غير هذا العام الخروج إلى سواحل إفريقية به، وما تهيأ من توصله إلى هذه الصحراء من عظم أجرامه وتفاوت خشبه؛ وذلك معدودٌ من خوارق العادات، ومضافٌ إلى ما سلف لهذا الأمر العزيز من مظاهره الأقدار ومساعدة السعادات، صنعٌ من الله كريم، ومنّ جسيم يرفعون منه سبحانه لا يبرح ولا يريم.

وكان من قصدنا في هذه المحاولات أن يزدجروا ويدكروا، ويراجعوا عقولهم العارية ويستبصروا، ويكفوا أعماءهم عليه من الغواية ويقصروا ممن لقت الجهالة على قلوبهم وأعمت الضلالة أبصارهم وأصمت الغواية آذانهم. فلم يطوروا بجانب التوبة، ولا يسروا للفيئة إلى أمر الله والأوية؛ والموحدون في خلال ذلك تتحرك حفاظهم لغزوهم، وتتملط سفارهم لإبادتهم ومحوهم. وعندما قرب كمل الآلات وتماها، ودنا اتساقها على الغرض المقصود منها وانتظامها، وكاد يحرق جوانح الغزاة أعانهم الله احتدامًا لإبادتهم واضطراما، رأينا أن نكرر الإعذار إليهم، ويزيد تمكينًا وتوكيدًا قيام الحجة عليهم.

فأرسلنا إليهم أشياخًا من الموحدين والطلبة والعرب وفق الله جميعهم فعرفوهم أنا نرفع عليهم السيف إن تابوا، ونبذل لهم الأمن إن رجعوا إلى الأمر العزيز وأنابوا؛ فعتوا واستكبروا، وأشروا وبطروا، وجحدوا نعمة الله عليهم في هذه المنة العظمى وكفروا، وقُتحت لهم أبواب الرحمة فنكصوا عن دخولها وقهقروا؛ فعرف الموحدون أعزهم الله أنهم عَمُوا عن النذارة وصموا، وتردوا برداء جهالتهم واعتموا، واستمروا على عنادهم واتقوا؛ فازدادت حفاظهم التظاء، ونياتهم خلوصًا في جهادهم وصفاء، وعزائمهم تصميمًا على غزوهم ومضاء.

فأذنا لهم في مناجزتهم، وحضضناهم على الجدل في نزاههم واغتنام الأجور العظيمة في قراهم؛ فنصبوا لهم الحرب مستعينين بالله، متوكلين عليه، راجين جزيل ثوابه، متنجزين كريم وعده، فيمن حاد عن أمره وعند عن سبيله وأباح محارمه واتخذ إلهه هواه. فشاهدوا من جدهم وشدهم ما زلزل أقدامهم، وأذهب جرأتهم وإقدامهم، وأظهر نكوصهم وإحجامهم، وأكذب أملهم في الاحتفاء ومرامهم.

وتمادى الشغل في الآلات المباركة إلى أن تمت على المراد وتهيات حسب القصد

بها. ثم استخير الله سبحانه في إدنائها إليهم وتقريبها منهم؛ فقدمت، ونصر الله يقدمها، وتأيده يكتفها، وعونه يمهّد ويُطرق لها؛ فانتَهت إلى حفيرهم، واستعلت على أسوارهم، وتضاءلت لها منيفات جدرهم، وصبّت عليهم سوط عذاب، ورمتهم بالصيلم السماء والداهية النَّاد؛ ورماهم الله منها بما لا قبْل لهم به، ولا استطاعة على مقاومته ودفعه. واستمرت الحال في التوطئة وردم الخندق لها أيامًا، والحربُ تكلمهم، والحينُ يبرزهم إلى مصارعهم ويقدمهم.

وكانوا قد بلغوا في ترس الخندق وتحصينه. ومجاززة الحد في توعيره وتوسيعه؛ فاشتغل الموحدون أعانهم الله في تسويته وردمه، وناوشتهم القتال طائفةٌ منهم لم يتوفوا استعدادها، ولا تكثرت بسبب اشتغال الموحدين بالخندق أعدادها، فأهَبَّ الله ريح النصر لأنصار الحق ومُحاته، وأوليائه الدايين عن حرماته، المجاهدين لإعزاز أمره وإعلاء كلماته؛ فاقتحموا الستارة عليهم ودخلوها عنوةً على صدورهم وهدموا بُرجًا من أبراجها ومسافةً ممتدةً منها؛ وقتلوا عندها جماعةً من جلدائهم، وجملةً من نجب شجعانهم وأشدائهم، وعضتهم الحربُ هناك بأنبياءها، ومدت الخوف عليهم بأسبابها، ودخلت المنايا عليهم من جميع أبوابها وأنقابها؛ فأدهشهم ما عاينوا من ذلك وهالهم، وأوهنَ كيدهم وأضعف محالهم، وأضاق عن المصابرة ذرعهم وقصّر فيها مجالهم، وتيقنوا ألا وزر لهم من الله ولا منجأ لهم، وعلموا أنهم إن تأخروا فواق ناقةً واستأنوا ارتداد لحظة، دارت بينهم الدائرة، ونزلت عليهم القاصمة الفارقة، ودخل الموحدون المدينة عليهم واستباحوهم من فورهم.

فألقوا يد الخضوع والقياد، وألظوا بالاستغفار والتاب، وبادروا بإرسال أشياخهم وأعيانهم وأهل الحلّ والعقد منهم أجمعين بالطاعة، مستقبلين من العثرة، مستصفحين عن سالف الجريرة والزلة، راغبين في قبول الإنابة والتوبة، مادين

لطلب الأمان أيدي الإستحذاء والضراعة، مستنزّلين من فضل هذا الأمر ما لم يزل يعهد من العفو بعد الغلب. فقبل متابهم، ووصلت بسبب التجاوز أسبابهم، وكان إلى حميد العاقبة وسعيد الخاتمة مألم ومآبهم؛ ويُنذِل لهم من التأمين ما رجوه، وبلغوا من الصفح الجميل ما أمّلوه ويغوه.

إن كانت سوابق ذنوبهم، وسوالف جرمهم وحربهم، تقتضي رد رغباتهم، وإثامهم عما اكتسبوا من سيئاتهم، لكن رحمة الله وسعته، ومبغفرته تغمدتهم، وسابقة الحسنى هدتهم إلى التوبة ويسرّتهم، والمنة المعلومة لهذا الأمر العزيز عمتهم وشملتهم؛ فأصبحوا للنعمة مستشعرين، وبها وهبوه من السلامة في الأنفس والأهلين مستبشرين، والله تعالى على ما تداركهم به من إغلاق إيمانهم بحبل القبول وسية حامدين شاكرين.

وخرج زعيمهم عن البلد صاغراً، وسارع إلى امثال الأمر ضارعاً داخراً، جذلاً بما منح من الإبقاء عليه في نفسه وأهله، معترفاً بالنعمة في التجاوز عن سالف ذنبه وقبيح فعله. واستولى الموحدون أعزهم الله على المدينة أتم استيلاء، وأجراهم الله تعالى في إظهار رايته، وإحراز أمرهم من النصر وغايتهم، على متعارف الأسماء والأعلاء، سنّة منه سبحانه لا يتسخ حكمها، ولا يتبدل رسمها، ولا يعدل عن سمته الشديد، وأثره الحميد، قصدها وأمّها، فله الحمد سبحانه على ما أولاه، والشكر على ما يسره من إعزاز أمره وسناه.

وكان المستري بها قد استهوى جماعة من عظام الفتنة، واستغوى حثالة من أرذال العامة، قهر بهم سواهم، واستولى بهم وتسبب إلى استمالة نفوسهم، وتوسّل إلى استخلاص نياتهم بإباحة المحرمات لهم ورفع الحدود فيها عنهم، يرتكبون من الكبائر ما شاءوا، ويسترسلون من الجرائم والمآثم فيما اشتهاوا وأحبّوا، ولا وازع

يزعهم، ولا مانع يمنعهم، ولا قاعد يزجرهم ويقدهم.

فتسرب إليه من أجل ذلك دُعَارُ اللصوص وأَبَاقُ العبيد وأخابث أهل الخرابة والشُرور، وجاءوه من كل أوب، وأتوه من كل فج وتسلوا إليه من كل حدب؛ فاتخذهم جنده وصيرهم بطانته، ووافق نثيرٌ منهم فأمرَ بهم أمرُهُ واشتدت شوكته، وثقلت بسبيهم على أهل البلد وطأنه، وملأت نفوسهم ذعْرًا وفرَقًا هيبتة وسطوته؛ فلم يتمكنوا من نظر فيما ينجيهم، ولا توصلوا إلى إراعة أمر يقرّبهم من هذا الأمر ويدنيهم، لاذكائه العيون عليهم، وأخذة الثنايا دونهم، وبثه الأرضاد فيهم، وبحته على أخبارهم، وإصاخته لأنبائهم؛ فمن عثر منه على ما يريه أو سمع عنه ما ينكره أحلَّ به عقابه وأنهب أوباشه ماله ونوّع عقوبته لهم بحسب أحوالهم على قدر مراتبهم؛ فقتيلٌ أو طريدٌ أو جبيس.

وتجاوز ذلك إلى أخذ الولي بوليّه، وقتل الحميم بحميمه، وتعدى معاقبة الرجال إلى التنكيل برباب الحجال؛ فتحامى الناس شره، وصدهم عن كل محاولة خوفه، واسترب الابن بأبيه، ولم يُثن الأخ إلى أخيه. ولما تقرر ذلك عندنا، وتحقق لدينا، أمّناهم أمانًا عمهم فضله، وكنفهم كهفه، وغمرهم إحسانه، وأواهم وكنه؛ فأحرزوا السلامة في أنفسهم وأهلهم، واستقرت الدعة والأمنة في عِراضهم ومغانيمهم.

وكان الموحدون أعانهم الله طول مقامهم عليها، ومد حصرهم لها، تترادف الأرفاق عليهم، وتُساق الأرزاق إليهم، وتعتمدهم الخيراتُ من كل جهة، وتُجلب إليهم من كل ناحية، على ما كان بإفريقية في هذا العام من قلة إصابتها وخلو مخازنها؛ فوضع الله البركة فيما سيق إليهم، وأوتي به نحوهم؛ فعمهم الخير، وشملهم الرفق واليسر عونٌ من الله سبحانه، وإيجادٌ على تتميم مرادهم، وحفظٌ لعوائده الكريمة عندهم.

وهذا القصرُ أكرمكم الله قديمُ الاشتهار، معترفٌ بشرفه على هذه البلاد والأقطار، معروفٌ فضله وشفوفه على سالف الأزمان والأعصار، وله من المزايا والمحاسن ما يربي خبره على الأخبار، ينبعث من داخله الماء المعين، وتُحيط بخارجِه الضياعُ المغلة والبساتين، ويروق الناظر مرآه المعجب، ولا يستغرق مفاخره ولا يستوعب، ووضعهُ من الانتهاء في الحصانة والتجاوز في المنعة والوثاقة بحيث لا يصحب مصعبه، ولا يتمهد إلا لهذا الأمر العزيز مركبه، وهو روح هذا الإقليم ومعناه، وقطبه الذي تدور عليه راحة. وكان أباق العرب وشرادهم يلوذون بداره، ويسندون فيما يزيغونه من عنادهم، ويحاولونه من إضرارهم وإفسادهم، إلى منيع حماهم، وقد قمع الله بأخذه كل متطلع إلى الفتنة وفلّ شباه.

وكان الاشتغال به قد صرّف النظر إليه، ووقف المحاولة عليه؛ وقد تفرغ بفضل الله النظر في مصالح هذه الأرجاء. وخلا التقويم لإماطة ما ظهر فيها من نواشئ الاعتداء، وانصرف التسديد لطحر الشوائب عن مشارب أهلها والأقذاء. وبالله نستعينُ فيما نحاوله من إقامة الحق وتمكين الدين وإفاضة المعدلة ونشر الخير وتسكين الدهماء وإصلاح الخلل؛ وهو المنجد والمعين، لا رب غيره.

وكنا وفقكم الله أعلمناكم أن العرب أصلحهم الله يرجى لهم أن يتلافوا زللهم، ويستدركوا خطلهم، بغزو في جزيرة الأندلس حاطها الله يكفر الله خطاياهم ويصلح عملهم. والنظر في ذلك متوالٍ، والأخذُ فيه متصل، وعونُ الله عليه مرتقب، ووعدُه الكريم متعجز، وهو جلت قدرته مُتَمِّم أمره ومُنْجِز وعده، وهو المستعان، لا رب سواه.

وظهر من نتائج هذه الحركة السعيدة، وآثارها الحميدة، أن الله تدارك بها هذه الجهات بعد أن أشفت على تلافها، وقبضت عروق النفاق في أوساطها وأطرافها،

وأومضت بوارق الفتنة في جميع أرجائها وأكنافها، وكانت أحوالها تنقل إلينا غير صورها، وتحكي على غير حقائقها، ويهون من أمر هذه المدرة ما ليس بهين، ويضعف من حال غوبها ما ليس بضعيف؛ فكذب الحُبْرُ الحُبْرَ، وشهدت المشاهدة بتحريف النقل وإبانة الحقيقة أن هذه المدينة من الحصانة والامتناع، والسموق والارتفاع، بحيث لا تُنال في المدة القصيرة، ولا يتمشى مرامها إلا بمحاولة الصعبة والمطاوله المديدة.

وإن تيسيرها على الوجه المذكور، والمعنى المروي المأثور، في هذا الأمد القريب، لمن بركات هذا الأمر العجيب، وسعوده المطردة، وعوائد الله الجميلة، فاشكروا الله تعالى على هذه العطايا الجمّة، والآلاء المتتابعة، وعضوا بالنواجذ على التمسك بعروته الدعة بركوب سفيته، وتملوا النعمة بالإيواء إلى ركنه، وتيقنوا أنه أمره الذي تكفل بعضده وأبى إلا إتمام نوره وإعلاء حزه. وانشروا هذه الفتوح البيّنة والبشائر المبهجة، وبثوها في أملاككم، وتحدثوا بها في نواديكم، وخاطبوا بشرحها جميع جهاتكم، وأذيعوها في أكنافكم وأرجائكم، يشترك جميعكم في المسرة، ويتساهم كلكم في شكر الله عليها، ويتجدد الإخلاص لكافتكم بهذا السموع.....^(١)

(١) السطور الأخيرة من هذه الرسالة ناقصة في الأصل المنقول عنه.

الرسالة الحادية والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي القاسم القلمي، معلماً بهزيمة عَرَب إفريقيا:

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة والشيوخ والأعيان والكافة من الموحدين من أهل فاس أعزهم الله بتقواه، وأدام كرامتهم بحسنائه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فالحمد لله الذي تم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب، وأناف بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب، وبلغهم في أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الإعراض والإدبار، ويدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، أمانى الظافر الغالب، ووكل بهم أية لجوا، وعلى أي مدرج درجوا، من النصر المحالف المصاحب، ما يكون لعامة أكنافهم، وجنابات أوساطهم وأطرافهم، عين المحافظ المراقب، ومكن لهم إنفاذاً لمقدوره، وإفاضةً لأشعة نوره، أسباب التقليل في أفناء الأمانة وظلال السكون من جانب إلى جانب، وأحظاهم نعمةً منه وفضلاً وقد فاءوا بشرف الفتح الجسيم، واحتقاب الحظ العميم، وابتغوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم، بحظوتي الغانم الأديب. وجعل أمرهم الذي هو أمره ناظماً إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب.

والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر العاقب، الصادع بنوره الثاقب، لبابة الانتخاب، وسلالة الانتجاب، من لوي بن غالب، المبتعث لتتميم مكارم الأخلاق، بما حضر من الضرائب المقدسة والمناقب؛ وعلى آله وصحبه أولي العزم في أمره

العاكف الذائب، والجد الثابت اللازب، الأثرة المشتعلة على شرف المناسب وزلف المناصب؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله وقد التفت حجب الغياب، وتفرقت سبل المذاهب، وخُبط من ليل الحيرة في حيث لا مُنفذ لجاء ولا مُخلص لذهاب، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب، وأنفذ به من هو العائر وشفى العاطب.

وإنا كتبناه إليكم كتبكم الله عن تعرف آلاءه المستعادة، وجعل انتظار الفرج بالصبر عبادة، ويؤا بقرارة اليقين لتنجر ما في ضمن الوعد من كل فتح مبین مهاده، وقابل نعمه التي تجلي قرّة أعين صورتها، وتثني ثبج أسماع سورتها، من الشكر الأحق، والحمد الأوفى، ما يستهب نفحات الزيادة، ويصل أواصر الالتحام، ووصائل الانتظام، بين مبدية منها ومعاده، ونحن نحمد الله على آمال في إظهار أمره وفيت، وصدور المؤمنين من أعدائه وأعدائهم شفيت، وأقضاء من مشاريع دينه بهذه الأصقاع طُحرت ونُقيت، وآثار كفر طمست بمظهر الإيوان وعُفيت، وأرحام حقوق الله تعالى بَلَّتْ بيلالها وقد كانت بفناء العقوق جُفِيَتْ.

فلا باطل والحمد لله إلا وقد دمه الحق فدحض، ولا عرق لظالم إلا وقد سكن بعد ما نبض، ولا مبسوط جور إلا وتكشمش وتقبض، ولا مُغِلّ بدائه، ومرتقب يوم اهتدائه، إلا وقد أذهب الله بعصمته، ومسحة رحمته، عنه المرض. كُلُّ تقدم إليه النذير، وأُحيل بفتوق مسامعه التذكير؛ فمن شرح للإيوان صدره، وأذن بشمس الهداية فجره، وأُتيح له بعد عسره ويسره، انخلع من ملابس ذنبه، واستند إلى ذروة قربه، وكان على نور من ربه؛ ومن صم صده، واشترى الضلالة بهداه، ثَبَّتْ يده، وأرصد له بأخذ الله الأليم الشديد، وعقابه الذي ليس على الظالمين ببعيد، حينه ورداه، وأورد ولاتٍ حين مصدر موارد لا يتعدها ما لاح ابنا سميز ولا تتعدها.

وقد كنا - أعزكم الله بتقواه - قدمنا مطالعتكم بما سناه الله تعالى في غزو عرب إفريقيا من مُسنَى أعرق في الانتهاء نسبه، وتحكم في تأييد هذا الأمر السعيد سببه، وفتق العقول لمعرفة قدره، والألسن بواجب شكره، أعذبه وأعجبه، واستغرقت الأوصاف وإن أرسلت من لسان اللسن، ومُدت وسائع القول الأعراب الأبين، قرائنه ونسبه؛ فلمعتبر آياته، وباهر آياته، وما اطرده بين حاشيتي بداياته، ونهاياته، أحوال من اللطائف الإلهية، والصنائع الربانية، لا تنحط رتب عيانها إلى الآثار، ولا تتعرض صور شاهدها في معرض الاعتبار؛ وإنما هي تُبَدُّ تهدي مخايل، وتُقيم لكم إمارات على نصر الله تعالى ودلائل.

وكان هذا الفتح العظيم في حين إعلامكم لم يتسوف طلقه بعد، ولا كمل له من مستصفي مستحقه العقد، وأنهينا إليكم نبأه وهو في مضماره مسترسل، وإلى مقتضى آثاره من كل حذب ينسل، وأحلناكم فيما وصل على ما سيصل؛ والآن والله يوزع شكر نعمائه فقد عقد حباه، وأغمدت وفيها فلول من قراع الدارعين ظباه، واستخلص من قصده المظفر مصطفىاه ومجتباه، وأمضى حكم الله إمضاء جزماً فيمن تحاماه وتأتاه، ولا ثنيت الأزمة، ولا رفيت الهمة.

وببلاد إفريقيا للقبيل الرياحي المستولي على أقطارها، المستعجل في إضرارها، لا ذكر يسمع، ولا حديث يرفع، ولا أثر يتقصى ويتبع؛ ألحقوا بقبيل العدم، وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم، وأصبحوا كهشيم التهبته نفحة ضرر؛ حيزت عليهم الثنايا والأنقاب، وتبسط فيهم كيف شاء العقاب. فلم يجدوا إلى مستخلص سيلا، ولا استطاعوا مضياً ولا إلى منجاة تعريجاً ولا تحويلاً، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً؛ حقت عليهم الصيحة فأصارتهم هباً مشورا، وضربت عليهم الذلة بكل مضطرب وملتمس من

تقريباً لآثارهم، وجوسها بخلال ديارهم، سداً لا يخرق وسورا، وأحالت متون جيادهم وما اعتقدوها منية حين ركوبها سرية أرماسا وقبورا، ووقف بهم حكم السيف السنان، على طاعة أو عصيان، ولا ثلاثة وقد خطرت الجدهاتان؛ فمن أبي إلا التفار، وكره الله منه الانبعاث والاستنفار.

فقد قلد مناط مقلده، ومدار مخنقه السفار؛ ومن أخذت السعادة بأردانه، وأوته إلى شعب الفوز وإيوانه، التحف ببردة أمانه، وجر إلى منال الحظ العظيم ملء عنانه، وقد أخذ من هاتين الخطتين بقسط باء به موفوراً، وقدمه يسعى بين يديه إما نازاً وإما نورا.

وفي حين هذه المخاطبة وفقكم الله وصلت أوائل العساكر المنصورة، فقصت من قصصها غبرة لأولي الألباب، وأطلعت من معاني هذا الفتح المبارك ما أربى على العُجب العُجاب، وأنأت بها أرسل الله في جميع بلاد إفريقية من سماء الأمن المنسكب المنساب، وأوسعها من منشر العدل ومنبسط الفضل ما لا يحتجب عن متطلبه بحجاب، وأنها والحمد لله وقد احتشت أصل الكفرة احتشاً، وأضحى بها حبل الباطل أنكاثاً، حسب أمن السائل السالك، وشهادة المنطق اللائك، وأن أهلها من توسد الآمال، والتورك على الإقبال، في أدمت الفرس وأمهد الأرائك، يكاد مشهوداً لا من الذي لم يتصور في أوهامهم، ولا عرض قط في أفهامهم، أن يعتقدوه من بعض الخيال الطارق في مناعمهم.

فالحمد لله الذي بوأ أمره مكاناً علياً، ونصب للعالمين صراطاً سرياً، وجعله بعموم الخير وشمول البكرة ملياً وفيّاً. وطهر هذه الأرجاء من متعاقدي الظلم والكفر، ووطأة بني السُمر والصُفر، واستقبل بأهلها بمستأنف إيمانهم، ومستجد إيقانهم، أشرف الحياة وأسعد العمر. وأما ما ذكر الواصلون من العساكر المذكورة

عما استاقوه من السبايا والغنائم فبا غص الفضاء بإقداره، وضاهى مدرار الوكافة
المتن متمطر بدراره. وكيف وفقكم الله بأمة استخلص طريقها وبلادها، واستصفي
جلالاً ما أجنّه ادخارها وأكنه أعدادها، وقد تحصّلت هذه الأنفال المباركة بأوائل
هذه البلاد، وانفصلت جميع بلاد إفريقية هديةً من عند الله مباركة طيبة، ورحمةً من
سما إحصانه وإفضاله صيبة.

وكان في هذا القبيل الرياحي فخذ منهم يُعرف. ببني محمد لاحظتهم السعادة
بطرف غير خفي، واحتضتهم في حجر الوقاية حفي، وكان لهم مع القدر السابق
بمقازاتهم جدّ كفيل كفي؛ فآلقوا بمقاليد الانقياد. وانخرطوا في سلك أهل التوحيد
بجميع الأنفس والأموال والأولاد، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة
الغزو ومصابرة الجهاد، واعتدوها بها رأوا في سواهم من الاتعاض الذي به سعدوا،
وباعتباره أيدوا، من سداد الرأي بها أيدوا، نجعة المتجع وبغية المرتاد؛ وقد تأثرت
هذه القبيلة الفارة بما شد من شعوبها من أليم العض، فأثرت الانخال مع الموحدين
بالقضيض والقض؛ وقد قوضت خيامها، وهجرت أطامها، وقدمت بين يدي
استانها على آثار أهل التوحيد أناسيها وأنعامها؛ وهي جملة وافرة العدد، متظاهرة
العُد، قاصدة خدمتها على هذا الأمر العزيز آخر الأبد.

ومما تسنى لها من تسن لطيف، وأرج لها من خفايا التسيب والتكيف، أن عماد
بيتها وزعيم أمرها أبا يعقوب يوسف بن مالك وفقه الله كان قد خلص بحبل هذا
الأمر اعتقاله، وتأكد بعهوده ومواثيقه عهده وميثاقه، وأحظاه بحظوة الهجرة إلى هذا
الأمر بداره واستباقه؛ ولم يزل على طريقة سوية، ومعاملة برة تقية، استحق بها من
الرأي الجميل ما سرى منه ففاض على هذا القبيل فتلوم عليهم العمل، وحرّم على
أرجائها بما سبق من أرجائهم النظر الأجل، إلى أن نغمدتهم بمتابهم الرحمة،

واكتفتهم النعمة، وأخذت بحجرهم عن النار العصمة.

وأما جُشم بأسرها فذهبت أيضًا مذهب الانتقال، وأخذت في الاغذاذ إلى ما أمرت به والأرقال؛ وتحركت بها لها أهلاً ومالاً من الأثقال؛ وهم بمجلدات أهل التوحيد مُعسكرون، وفي موازتهم التي تحملهم ومواشيهم على أعدل طرق المطاوعة والمتابعة مستمرين، وهم عَدَدٌ لا يحمله إلا البساط الفياح، والقضاء المنداح. وكلُّ من هذين الحين الجشمي والفخذ المحمدي من الرياحي فقد عزم وأعزم به على أن تحط إن شاء الله بالمغرب دارهم، ويوأ هنالكهم قرارهم، ويقصر على خدمة هذا الأمر العزيز جوارهم.

وأما قبائل الأبيح وزغبة فوصل أعيانهم يمدون يد الاستتابة، ويطلقون ألسنة الإنابة، ويتعوذون من حرم هذا الأمر بالأمن والمثابة، وقد وعدوا على النظر فيما عنَّ لهم من غراتهم، نفذوا على إمضاء عزماتهم؛ فإن أمضوها نية، وأبدوها طاعة جليلة، فحظُّ لأنفسهم اقتنوه، وعاجلُ مكروه كما فُعل بأشياعهم من قبل تحطأهم وتحطوه؛ وما سواهم فحكم لا يرد عن القوم المجرمين بأسه، ولا يجهل يومه وأمه.

وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بساء الوهم والإحساس، ولا يجري على أساليب القياس، ولا يتفرغ في قوالب العادات من الاستيلاء على من ملك زمامي البر والبحر بهذه الأقطار، وكاثر فيها عدد القطار، واستظهر على شأنه بما زعم من قوى الاستظهار؛ فكل ما أغنى عنه جمعه، ولا حمه معتصمه ومنعمه. وإن في إبادة من أبيد، واقتياد من اقتيد لسراً من أمر الله في تسخير هذا الوجود لأمره، وإشعاراً بإظهاره على الدين كله؛ وفي مجموع هذه الأنطاف المسخرة والآيات المرسلات ما هو لتلكم المغارب موفور، ولآمالها في الانعطاف إليها مخبوء مذخور، وعلى ما يملأ لحظ التشوق إلى مطالعة نور هذا الأمر

موقوف مقصور.

فاعتبروا وفقكم الله بهذه الدلائل اللامحة، والبراهين الواضحة، أن هذا الأمر العزيز إلى قيام الساعة مداه، موقوف على تمييز الخبيث من الطيب أولياؤه وعداه، مجزي كلا قسط ما أخفاه من معتقده وأبداه، مُستولٍ على الأقرب والأبعد في الله يداه؛ وقد يُممت المغارب تمييماً مباركاً بحمد الله، ووُلِّيت وجوه العزائم شطرها على بركة الله وعونه. فبشراكم اليوم بشراكم، وما أخلقكم به وأجراكم. فاشرحوا - أعزكم الله - صدوركم، وأقيموا بهذه البشائر أموركم، وأشعروا بها جمهوركم، وأعقدوا بإهدائها جذلكم وسروركم. والله تعالى يجعلكم ممن اعتمد النعم بشكرها، ووفأها واجب قدرها، وارتبط كرائمها بمواصد كرمها، إن شاء الله. وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتب من فُحص متيعة يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسةائة.

الرسالة الثانية والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي القاسم القلمي المذكور:

الحمد لله الذي قدم لأولياته أمره فيما يرومونه من تدويخ العدو وقهره يومًا على الكافرين عصيًّا، وصنع لهم في إبراز الكفرة إلى مضاجعهم وسوقهم على قدم الاعتزاز صنعًا عجيبًا، ووعد القائمين بدعوته، الناصرين للته، فتوحًا آزفةً يفتحونها، ومغانم كثيرةً يأخذونها، فعجل من دون ذلك فتحا قريبًا؛ وصلى الله على نبيه المصطفى محمد الهادي إلى سبل السلام ترغيبًا وترهيبًا؛ وعلى آله وصحبه، ومن لى دعوته إلى ربه، سامعًا مجيبًا، ساميًا في مقام النصرة ومحل الأثرة أعز نجيبًا؛ ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المجدد لدينه عندما عاد غريبًا كما بدأ غريبًا، وذهبت به الأهواء المتبعة، والأضاليل المبتدعة، تصعيدًا وتصويبا؛ وعن صاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مؤازره، ومُظَاهِرُهُ، توسيعًا لأكناف الدعوة العلية وترحيبًا، ووارث مقامه الكريم، وأهلية القيام بأمره العظيم، منصورًا ومفتوحًا له ومُصِيبًا.

وإنا كتبناه إليكم -كتبكم الله ممن أحسن تلقي البشائر، ووفى النعمة حقها من شكر الشاكر، وجعلكم من الذين أشرقت لهم أنوار الهداية فائضة على الأبصار والبصائر- من حضرة فلانة حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه، وأن تعلموا أن الله في هذا الأمر العالي ومناط به من إظهار الدين ونصر الملة وإعلاء الكلمة أفعالًا خافية وعالنة، وآثارًا ظاهرة وباطنة، وأسرارًا مجتلية ومحتجبة، ولطائف مشهودة ومتغيبه. فمهما أنسى لعداته في

أجل الإمهال، فليساق لأولياء الله الفتح فيهم بالمساق العجيب، وليترتب لهم حال القطع لدابرهم والاستيصال لشاقتهم في أجل صور الترتيب، إشارة للعناية ودلالة على الأثرة، وتنبهًا على الارتقاء في الأسباب، وتبصرةً وذكرى لأولي الألباب.

وقد كان مقامنا بهذه الجزيرة مهدها الله لتسيم المقصود فيها من إظهار الدين ونصر الملة ومُرابطة في مصابغة العدو قصمه الله. وفي مُهلة النظر في حسم دائها، واستباحة أعدائها، بلغنا أن رجالاً من ذميمي النصارى وقمهم الله من أهل آبله وما أخذ أخذها ومن انضاف إليهم من الأفريرين وغيرهم كبت الله جميعهم قاصدون قصد هذه الجهة كلاها الله.

وقد وقعت الاستفاضة وحصل العلم بأن أهل آبله حُمة النصارى وحُماهم، ورؤساؤهم وكماهم، وجرتهم المتلهبة، وحوزتهم المتغلبة، والشوكة التي لم يحصدها قط حاصد، والشجرة الملعونة التي لم يقصدها على مد الدهر قاصد. وإنهم بما خبا الله فيهم لأولي أمره، وأولياء نصره، سولت لهم أنفسهم الخائنة الخروج إلى الغارة بهذه الجهات كلاها الله تخيلاً منهم أن جنود الله الموحدين قد تفرقت ذاهبةً وسرحت قافلة، وانتهازاً منهم بزعمهم للفرصة قبل احتفال الجنود والاحتشاد لوقت الغزو.

فاستمروا مصممين وتهوروا مقدمين، وما زالوا يتقدمون إلى حتفهم، وتنضرب أسناد الغي من بين أيديهم ومن خلفهم، مغالطين بالجرأة، متخمطين بالبسالة، خارقين لحجاب المهابة، ناكبين عن سمت الإصابة، إلى أن بلغوا هذه البلاد حماها الله وأجازوا الوادي الكبير بين قرطبة وإشبيلية، واكتسحوا جملاً من الغنم كثيرة بجهة إستجة؛ ثم عطفوا على الموضع المعروف بالكنبانية من قبلي قرطبة وجعلوا ذلك طريقهم إلى مُشور.

ولما اتصل بنا نباؤهم الذميمة، وتوجه فيهم الصنع الكريم، استخرنا الله تعالى على تمييز العساكر المنصورة، وتسريبها إليهم مع إخواننا وأشياخ الموحدين أعزهم الله فاتبعوهم مجدين واجتمعوا بالشيخ الأجلّ أبي حفص أعزه الله ومن هنالك من الموحدين أعانهم الله وعرفوا بمجرد متجدد حالهم، وما انكشف لهم من صور الأحوال في حلهم وارتحالهم، واستمدوا الأوامر التي عادة الله تعالى إسعاد مطيعها، وتوفيق المسند إليها.

فأمروا بصدق لقاء العدو قصمه الله وأخذه على بركة الله الذي سبقت كلمته أن ينصر من ينصر دينه، ويبذل في مجاهدته إخلاصه ويقينه؛ فاستمروا في جد الاتباع على وجههم الميمون، ونصرهم المضمون، ودرجت أيامٌ قدر ما يوصل الطالب إلى المطلوب، ويتمحص بمكروه الكافر وهو غير المرغوب، إلى أن هتفت البشائر مألثة الأسماع، طالعة من أحسن ثنايا الاطلاع.

وورد الفتح الجليل، والصنع الجميل، ووصل من أعيان الموحدين أعانهم الله من شهد اليوم الذي أخذ فيه للإسلام بمليم النار، وعرف الكافر لمن عقبى الدار؛ معهم أعلامُ الروم المنكوسة فيما ثماثيلهم وصلبانهم، وافترأؤهم على الله وطغيانهم، ورأسُ شيخهم الذميمة وشيطانهم الرجيم، واطرأ أهل الايمان، وأشد الكفرة عتوا على الرحمن.

فذكر الواصلون أن الموحدين أعانهم الله اتبعوهم معدين، وأرهقوهم مشمرين في الركض مجدين، إلى آخر فحص هلال وقد طمع الأعداء بالنجاة؛ فتهياً هنالككم اللحاق والإدراك، وتراعى الإيثار والإشراك؛ فرأى الكفرة من بأس الله الذي لا يُرد، وجنده الذي لا يُصد، ما هالهم وراعهم، وأنسأهم جلادهم ومصاعهم، وعلى ذلك فطمعوا في الدفاع، وارتفعوا إلى اليقاع، وحلوا حمالات قاصرة، وكروا كرات

خاسرة، إلى أن زحفت عليهم الكلمة، وحاقت بهم النقمة، وأخذتهم السيوف المستلحمة، وانصبت عليهم الجيوش من كل جانب، ورأوا الحياة كأمس الذاهب؛ وأولياء الله وأنصار الحق أهل طاعة أمره قد هبت لهم رياح النصر، وطلعت عليهم شارات الظفر، لم يُنَلَّ منهم نيل، ولم يُقَمَّ للكفرة في جانبهم مَيل، إلى أن ولى أعداء الله الأدبار، وابتدروا الفرار، وحلوا عن غنائم كانوا استاقوها وأسارى من المسلمين غل الله أيديهم، عن قتلهم وكفاهم تعديهم.

وتمت على أعداء الله الهزيمة، والواقعة العظيمة، والتقطوا في بقية تلكم الآناء، وقُتلوا قتل العناء، حتى صمت حصاة بدم، ولم يكذب يلقى بين القتلى محط قدم، واقتصوا كذلك تلفظهم الشواهد، وتُردِّهم المهاوي وينم عليهم الليل وهو كاتم، ويلكم لهم الصبح وهو باسم، ولا تدمُّ عليهم غيظلةً ملتفة، ولا شجرةً محتفة، بل يقول الحجر: يا مؤمن هذا الكافر خلفي فاقتله، وإلى سواء الجحيم فاعته؛ أينما ثقفوا أخذوا وقُتلوا تقتيلاً، سَنَ الله التي قد خَلَّتْ من قَبْلُ ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فالحمد لله على هذا الفتح العظيم خطره، الجليل قدره، الذي له ما يعده، وانسياق ما ينجز الله وعده، حمداً يبلغ رضاه، ويوجب زلفاه، ويمتري المزيد من نعماء.

وهذا الفتحُ وفقكم الله وأعانكم وإن كان عظيماً في نفسه، عالياً في جنسه، فإنه للفتوح الآزفة مفتاح، وبين يدي السعي فيها مصباح؛ وإنه رائدُ الفتوح المستظرة، وعنوان الخيرات الميسرة، ونازلٌ من الفتوح الآتية بمحل الباكر من الثمرة، لما أُشرب فيه أولياء الله وأنصار الحق وجنود الأمر وحماة الإسلام وأحزابُ الدين من ريح الفتح وجدُّوا من عز الغلب، واستحلوا من مدامة النصر وتوطأ لهم من طريق الظفر الروم، وتذلَّل لهم من مركب الروم، إذ عرفوا ذوقهم، وساقوا سوقهم، ولم يبق لهم في نفوسهم قدر مقاومة ولا محلُّ مراقبة.

ولما خامر الرومُ قِصمهم الله من الرجة والروع وانفتح عليهم من أبواب
الخطوب وتوجه إليهم من جنود الرعب، وباءوا به من ذل الغلب، وسوء المنقلب،
وفقدوه من منكب الدفاع، وردء الامتناع، وفرسان الجلال والمصاع، فإنهم بعد
أولئك الهلكى المطرحين بمنزلة الرمح بعد السنان، والجسد بعد الجنان.

فهذا الفتح العظيم قد عظمت به النعمى وكثرت فيه العوائد، واستمرت منه في
الحال والمال الفوائد، فوفوه حقه وأعطوه قسطه شكرا، ونشرا، وإشاعة، وإذاعة،
يمتد مداها، ولا يبلغ أقصاها، والله تعالى يشفعه بأمثاله، ويردّفه بمنهل الفتح ومثاله
ويتولى توفيقكم لما يحبُّ ويرضاه، وعونكم لما يزلّف لده في أخراه، بمنه. وبمنه.

الرسالة الثالثة والعشرون

وهي المعروفة برسالة الفصول. وإنما منسوبة في المجموع المنقول عنه إلى الوزير الأجل الكاتب أبي جعفر بن عطية المذكور كتبها عن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى أهل بجاية يوصيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات^(١).

من أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته إلى الطلبة الذين ببجاية أدام الله كرامتهم ووصل صونهم وحمايتهم. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه؛ ونصلي على محمد نبيه ورسوله. والحمد لله على ما أمد به هذه الدعوة العظيمة، والكلمة العلية الكريمة، من الأضواء والأنوار، وقرن بعزائم أوليائها من الأخذ بحجز العباد من التهافت في النار، وأحكم بإيمانهم من معاهد الهدى التي من استمسك بها فقد فاز بعقبى الدار، وأبان بهم معالم السنة المستتينة الضوء الهادية المنار، التي من سلك جددتها فقد أمن من العثار، ووقف همهم لديه من مراعاة أمور الدين في النائي والداني من الأقطار.

نحمده حمداً من اهتدى إلى أنه الموجود المطلق الذي لا يتقيد بالأمكنة والأعصار، الواحد الفرد الصمد المتزه عن الشركاء والأنظار، المتعالي عن صفات التخير والانتقال والعجز والافتقار، المحيط بجميع الموجودات إحاطة لا تحدها

(١) راجع كتاب أخبار المهدي للبيدق الذي أصدرناه سنة ١٩٢٨، ص ١٣-١٧ و ١٣٤-١٤٥.

حدة الأذهان. ولا تلقحها دقائق الأفكار، لا إله إلا هو لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار.

ونصلي على محمد نبيه المبعث من أكرم نجار، والمؤيد بالمعجزات التي دحضت حُجج الكفار، وخرقت مستمر العادة للعلم أنها فعل الواحد القهار، وأنت على وفق الدعوى ليتين بها صدقه على الأضرار، وحكمت في كل من لم يؤمن بها كل طريد الشبي ماضي الغرار؛ وعلى آله وصحبه السالكين في ذلك السنن والمجرين في ذلك المضمار.

ونواصل الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى لما ارتفع العلم بقبض العلماء الأخيار، وأعجب كل ذي رأي برأيه من الصم البكم الرغام الأغمار، وقامت خطباؤهم بأفانين التضليل وضروب الاغترار، وقلبوا الحقائق فظهر من التبديل والتغيير ما أخفى دين الله تعالى الذي تكفل له بالإظهار، وانبسط في البسيطة من المناكر ما لا يحتاج إلى إطالة في تعديده مع الوضوح والاشتهار، فجلى بضياء حكمه ما استولى على آفاقها من الظلم المستدة الاعتكار، وأبان بمعجز علمه من العلم بالله تعالى ورُسُلُه وبما جاءت به رُسُلُه ما كان في طي الخفاء والاستتار، وعلم طرق العلم بها التعليم الذي انتفع به أولو التيقن والاستبصار، وشرح عن موارد الدين ما شملها من الشوائب والأكدار، وأمدّه بالطائفة المنصورة المفتوح لها بصريح الوحي وصحيح الأخبار، كل داني وشاسع من الأمصار، الوارثين علمه والعاملين به والمتصرفين له ليبقى أمره العظيم على الدوام والاستمرار، إلى قيام الساعة وانقضاء هذه الدار.

فإن كتابنا هذا إليكم -كتب الله لكم كل خير جزيل، وأعانكم على امثال أوامر التنزيل، وجعلهم جارين على حكم الكتاب والسنة في الدقيق من الأمور والجليل-

من رباط الفتح عمره الله والطائفة المنصورة محفوفةً من حفظ الله وكلاءته، ومكنوفةً من صونه وحايته، ومنوحةً من إظهاره وإعلائه، ومخصوصةً من إرقائه وإسائه، ومعدّةً من إضاءة زندها وإيرائه، في تسنية مرامها وإسنائه، بيا أنهضنا الله به إلى أحياء معالم السنة وإحكام أمراسها، وتثبيت أركان الدعوة على وثيق أساسها، وتطهير الأمة من أدرانها وأدناسها، وتعليمها كيف تستضيء بمشكاة الهداية وتعشو إلى نبراسها.

ليمشوا على السنن اللاحب، ويتقيدوا بالشرع المرتب الراتب، ويعملوا في أمر دينهم وديناهم باللازم الواجب؛ فلا تلبسوا الهدى بالضلال، ولا يشوبون التحقيق بالإبطال، ولا يخلطون العمل بالرفض، ولا يبعضون الإيمان فيقولون: نُؤْمِنُ ببعض ونكفر ببعض، ليتخذوا بين الرشد والغبي سبيلاً، وليروموا في الصحيح الثابت تغييراً وتبديلاً، إلى أن تخلص قلوبهم من الرين، ويكون عندهم العلم والعمل متلازمين، والباطن والظاهر متطابقين، والقول والفعل متعارضين، ولا متنافيين؛ والله المعين على إكمال هذا المقصد وإتمامه، والمليء بالتلاف جميع الجهات والأكناف على ما يؤثره من اتصاله وانتظامه.

ولما كان هذا الأمر العظيم إنما جاء في حين الفترة، وشمول الحيرة، وارتفاع العلم وحلول الجهل، وانبساط الجور وانقباض العدل. وتملك الهمج الرعاع، واتباع الهوى المضل والشح المطاع، وقام به الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه عندما أزيد بحر الضلال وطمى، واعتلى سلطان الكفر واستمى، وتطايّر شر الأشرار وارتمى، وتفرقت في أنواع الأباطيل الآراء، وغيّرت معالم السنّة البدع والأهواء، والدين أجنيّ غريب، لا مناسب له ولا قريب، ولا داعي له ولا مُجيب، وقد قنع أهل الدنيا في معارفهم بمسود الصحائف، مسطور الزخارف، لإماتة

المعارف، وتطمين العوارف، وجر المطارف، في صون التالد وجلب الطارف، فبَصَّر وعَلَّمَ، وثَقَّف وقَوِّم، وأتقن وأحكم، ونوَّر ما أظلم، وأظهر ما استتر وأبهم، وأنجد في تعليم العلم وأتهم.

ثم أورت عِلْمَه طائفته فبثوه في البلاد، وأفاضوا نوره على العباد، طورًا باللين وطورًا بالاشتداد، وحالًا بالسياسة وحالًا بالجهاد، وآونةً بالمواظظ الحسنة وآونةً بالسيوف الحداد، إلى أن ألقى الناس يد الاستسلام، وأظهروا الإجابة إلى دعامة الإسلام؛ فممن آمن منهم بهذا الأمر العظيم عن علم ويقين، وإخلاص مستبين، فهو يتقيد بقيوده، ويَقِفُ عند حدوده، ويجري على معروفة ومعهوده، ويبدو على ظواهره، ما أكنه في سرائره، ويلوح على أساريه، ما أسره في ضميره؛ ومن حجبه عن الإيمان به والإخلاص له حجاب، وحصل في نفسه من الذي جاء به لبس وارتباب.

فهو باقي في أحواله على المذهب الذميم، وعاكف في أعماله على الرسم القويم، وطائفت بين أطلاله لا يبرح ولا يريم، ويفتن بما كان أَلْفَه ويهيم، ويزيح في تلك المسارح ما أمكنه ويسيم، فتراهُ يتخطى الحدود ويتعداها، ويهمل الأوامر ولا يربعاها، ويغشى تلك المألوفات ولا يخشاها، ويساعد نفسه الأمانة بالسوء ولا ينهاها، ويغفل مآلها فلا يخاف عقباها.

ومن كانت هذه حاله فهو ممن لم يؤمن بالله ولا رسوله ولا بما جاءت به الرسل، ولا بالإمام المهدي الذي قامت عليه البراهين واتضح في أمره السُّبُل، بل هو مُتَمَادٍ على كفره وتجسيمه، غير منتفع بتقويمه، ولا مستبصر بتعليمه.

وبحكم بما ناطه الله تعالى بنا من أمور عبادته، ووسده إلينا من نصر دينه

وإنجاده، وقلّدنا إياه من الوقوف على حماية باطنه وظاهره في أغوار العالم وأنجاده، لم نزل نتعاهد أحوال الأنام، ونُصِل تصفّحها على الليالي والأيام، ونقصد هذا المقصد بقوة واعتزام، ونأخذ في الكشف عنه بمواظبة والتزام، متبعين في العمل بالعلم أمر الإمام المعصوم الذي احتذى فيه حذو جده عليه السلام، راغبين إليه تعالى في إعظام الأجر وإجزال المثوبة على القيام بهذا المقام.

لكن الناس مع مواظبتهم بالتذكير، وملازمتهم بالتنبيه والتبصير، لم يتركوا تلك الأفعال التي رسخت في الصدور، والملكات التي استقرت في القلوب، والحالات التي انطوت على ألفها إحناء الضلوع، وأبوا إلا ارتطامًا في الغي وارتباكًا، وانكشافًا في طواغية الشهوات وانهاكا، وخلعًا لعذر النهي وانتهاكا، وإجراءً في مهامة البطالة واستئناسًا، وتحليفًا في جو الغواية وطيرانًا، وإغفالًا لما أحدق بهم من أمر الله تعالى ونسيانًا.

فنهضنا إلى معاهدة التفقد بعزم قُرعت له الظنائب، وجُري فيه إلى مد القصر عن شأوه الجرد السراجيب، وجعلناه تعاهدًا عامًّا في البعد والقرب، ونظرًا شاملًا يتنظم حاشيتي الشرق والغرب، لتأخذ الجهات حقها من الضبط، وتنز الجنبات بميزان العدل والقسط، وتستقيم البرية على قانون الانتظام والربط، فتكون العهود محفوظة، وسطوات الله تعالى بمخالفي أمره لمراقبة ملحوظة.

وأبتدئ بأول مباني الإسلام فأخذُ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لا يثبت عملٌ دون تأصيلها، والرابطة التي لا يقبل دينٌ دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يمتسك بسببه، وقد بُني وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به، وهو إثبات الواحد وبقي ما سواه، بتقييدات في الشريعة لا يكفي معها إطلاق اللفظ دون تحقيق معناه؛ وذلك أن يعلم على وجهه

وحده، ليكون عن علم لا عن ضده، وعن يقين لا عن شك، وعن إخلاص لا عن شرك، وأن يقوله مع العمل، ولا ينكل.

ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرأوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه ويفصوه، ويلتزموا قراءته ويتعهدوه. ويؤمر طلبة الحضر ومن في معانهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدتها على سبيل التفهم والتبين والتنبيه والتبصر، ويلتزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها: «اعلم أرشدنا الله وإياك» وحفظها وتفهمها.

وأشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصحّ لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد؛ فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل ولا بالرسالة، ومن حصل على مثل هذه الحالة، فقد تعثر في أذيال الضلالة؛ فإن لم يبادر إلى التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها، فقد وجب عليهم حكم الكتاب ولا عنت في إراقة دمه لا محالة.

وأخذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتب الموقوفة على المؤمنين، والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين، والناحية عن الفحشاء والمنكر على ما ورد في الكتاب المبين؛ ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة فهو محو من ديوان المؤمنين؛ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين، وتاركها ميت في عداد الأحياء؛ لخشاشة تقضى عند انقضاء أمد الأمهال والإملاء. فخذوا من قبلكم بإقامة الصلاة على ما شرعتم، وأدائها بحسب ما فرضتم؛ وخذوا العوام ومن في الديار بحفظ أم القرآن وسورة معها وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم؛ ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فرض عليه منها فأجله للحين متناح وقلته بحكم الكتاب والسنة واجب.

وخذوا بإيتاء الزكاة وبالكشف عن معانيها وتشخيص ممسكها أو النزر اليسير منها؛ فالزكاة حق المال والجهاد وواجب على من منع منها قدر العقل؛ فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة؛ فمن منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها؛ ومن منع عقلاً فما فوقه كمن منع الشرع كله.

وأمرٌ بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومُدمني شربها ومستعمليها؛ فيراق مُسكرها، ويقطع مُنكرها؛ وليُعمد إلى من عمل المسكر الجرام عامداً، وشربه مدمناً عليه ومُعاهداً، ولم ترعه الحدود، ولم تقيده القيود، ولم يعظه الاعتبار، ولم ينفعه الادكار؛ فيُمحى أثره، ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر وجماعُ الإثم وكاسفة شمس العقل، والبلاغة على كل قبيح من الفعل، والفاتحة كل مرتج من أبواب العصيان، وهي رجسٌ من أعمال الشيطان.

وأمرٌ بالكشف عن التلصص والجراية، والتولُّج في مكان من الريب والغواية، والاجتماع على السير الجاهلية من الملاحية على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلائها وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة والأفعال المنافية للشرعية الصادرة على أهل الزراعة والضلالة من الرجال المفسدين، والغواة المضلين، ومن النساء المفسدات، المتفنتات في طرق الغوايات؛ فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثيروهم عن مكائدهم، ونقبوا عليهم في مظانهم؛ فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنة باستصحاب حاله، وتماديته على الإحضار في محل باطله ومحاله، فيحكم كتابُ الله جل اسمه عليه، وتطاع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فيه.

وليُكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قِبَلهم، ويأكلون بالباطل أموالهم، وعن أهل العناد والتعاس والإخلاد، والتبسط الذين إذا دعوا إلى الجهاد، وتُودوا إلى

الصلاح والرشاد، صمّوا عن النداء، وتلوموا في إجابة الدعاء، وألقوا المعاذير المعربة عن العناد، والناطقة عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد؛ وعن القبائل الباقية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر؛ وعن أهل النفاق والتدليس الناطقين بما لا يعلمون، والقائلين ما لا يفعلون. فإذا تعينوا على التحقيق فاليُمض عليهم حكمُ الله تعالى الذي أمر به فيهم.

وقد أنفذنا إليكم وفق الله مقاصدكم، وعم بالتقوى معاهدكم، نسخة من كتاب كريم، صَدَرَ عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه مشتمل على جوامع الكلم، ومُنطِقٍ على رواتع الحكم، لم يغادر في المعنى الذي تضمنته مُتردماً، ولم يُوجد متأخراً عن الوقوف دون مقتضاه ولا متقدماً، ولم يُوسع متربصاً في البدار ولا متلوماً، فيه الملاذ والمعاد، وعليه الاعتماد والاستناد، وإليه المرجع، والمفزع، وأنتم تفقون منه على حكم الله تعالى في القوم الذين ذكرهم ممن لا دين له ولا أمانة ولا عهد ولا ميثاق، المدعين للحق بالأقوال، مع التهادي على التضييع بالأفعال، وإظهار الاستماع والقبول في الظاهر، واتباع الجهل والهوى في الباطن.

وتعملون ما جعل العمل عليه في أعداء الدين والعلم وما حكم به فيهم؛ ولا معدل لنا عن حكم سر البيت المتلو فيه آيات الله والحكمة، المستخرج الحكم من مشكاة النبوة ومرآة العظمة، الذي انتظم به الأمر على سنن الهدى، واستقام على نهج التقوى؛ فمن عانده أو خالفه أو ضاده أو كابره أو عصاه أو ناواه أو جهله وأهمل أمره، فقد حاق به الردى؛ فالانقياد لما يقضى به واجبٌ والاستمسك بأمره حتمٌ، والرجوع إليه في أمر الدين والدنيا فرضٌ لأن قضاءه وأمره هو قضاء ربه وأمره وإرادته وحكمه، وقد حكم رضي الله عنه هذا الحكم فيمن هاجر إليه أول الأمر

وأثاه عند طمو البحر، واتصل به في سلطان الهرج ونزع إليه عند الابتلاء والمحنة، واضطرام نار الفتنة، لما أنس منهم النفاق وعلم فيهم فساد الباطن وشهد منهم مكابدة الدين، والدخول فيها من غير يقين، وفتح باب جهادهم ومحو آثارهم وجعله أهم وأولى من جهاد الكفرة المجسمين.

فكيف فيمن أتى بأخرة عند استواء شمس الهدى على الآفاق، وإخفائها خيالات أهل العتو والاستكبار والمروء على الرفاق، ممن جاء مخافة البيض الرقاق، وأتى عند بلوغ النفس إلى التراق، وخاف من يوم عصيب يكشف فيه عن ساق، فحيثذ أصحاب في القياد وأذعن في المساق، وفيهم من ليس عقده على الصحة والوثاق، ولا أفعاله مرضية المقصد ولا جارية على الوفاق؛ فإمضاء هذا الحكم فيهم، بعد تحقق تلك الأوصاف عليهم، أدخل في باب الوجوب والاستحقاق.

وإن هذا الأمر العظيم، وإن كان أوسع الأيام عطفًا، وأناهم رفقًا ولطفًا، لا يصل من أوجب الدين قطيعته، ولا يحفظ من رتب الحق إذالته، ولا يرخي في الطول لمن استن في رعي حمى السنن، ولا يستمر على المهل لمن زاغ عن النهج والسنن؛ فتأملوا ما اشتمل عليه كتاب الإمام المعصوم رضي الله عنه الذي هو هدى وتبيان، ونور وبرهان، واهتدوا بهدي من الهداية مخصوصة، واعتصموا بحبل من العصمة عليه منقولة منصوبة؛ فلا مطمع في الهداية إلا منه، ولا وجه لأخذ العلم ومعرفة الحقيقة إلا عنه ومن لدنه.

وها نحن نقصد قصده ونتحداه، ونجاهد على إمضاء ما انطوى عليه معناه؛ وعلى هذا الحكم مضى العمل في المواضع التي نحن بصدد منها بعد أن ميزوا بمشواهم، وعُرف المجرمون بسيماهم، وتبين كل منهم بما احتقب، وشُهد عليه بما اقترف وبما ارتكب؛ وقد فضح الله تعالى منهم جماعة تعينوا بصحيح الأعلام،

فأخذوا بالنواصي والأقدام، وجرعوا مصقر كأس الحمام، بشى الذوابل، وجدّ الحسام، وصيروا عبرة لأولي الاجترأ على ارتكاب المحارم والإقدام.

فامضوا وفقكم الله في أقطاركم على هذا النظام، واحكموا في هذه الأصناف بمثل هذه الأحكام، واخذوا حذو هذه الأفعال في طهر القذى عن طرف الإسلام؛ فمن تحقق عندكم بترك الصلاة، ومنع الزكاة، وإتيان المحرمات، والانهال في المحظورات، من المفسدين والمفسدات، واستصحاب تلك الأحوال المقررات، أو واحدة من الأفعال المشروحة الميّنات، من غير أخذ لهم بقول ذي هوى وغرض، ولا بشهادة يتعرض فيها من الظنة أدنى عرض، فإذا صح التبين، وصدق التعيين، فليؤخذوا بما احتقبا، وليسألوا بما كسبوا، وليقابلوا عن فعالهم مقابلة من لا تصرفه عن الحق الصوارف، ولا تعطفه عن امثال أمر الله العواطف، بل يمضي في إمضاء الحق بأشدّ العزائم، وليعمل فيه عمل من لا يتقي في الله لومة لائم، إلى أن يستمر أمر الله تعالى على إذلاله، ويبدو محيّا الحق سافرا عن جماله، ويستقيم البشر على الجدد المهيح، ولا يعدلون عن سُبُل الاستقامة على الصراط الشوى في المرعى والمشرع، والمقصد والمنزع، بعون الله تعالى.

ولتقدموا طلبة أمناء من قبلكم يعلمون الناس قراءة توحيدهم وحفظه وحفظ أم القرآن وما تيسر معها من السور، ويأخذونهم بمداومة ذلك ومعاهدته وحفظه؛ وليكونوا من الذين يراقبون ويحافظون، ولا يراعون في حقوق الله تعالى ولا يدهنون. واخذروا المداهنة وحذروها فإنها صارفة عن الحق، مزيفة عن نهج الصدق.

وليكن جميع ما تأتونه وتدرونه، وتقدمونه في هذا المقصد وتؤخرونه، جاريا على حكم الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه مستندا إليه ففعله هو الذي

نقتدي به، ونستمسك بسببه، ونمضيه على وجهه، ونجريه على رسمه، فلا نجاة إلا اتباعه ولا أمنة إلا في الامتساك بأقواله وأفعاله أعانكم الله على ما تقصدونه من ذلك وتتحرونه، ووفقكم فيما تأتون من ذلك وتتلونه، فذلك بيده.

وليكن في هذه الأصناف القوم الذين يكسرون الدعوة ولا ينقادون إلى ما يجب عليهم من الحكم، والقبائل التي تعادي عن نصح لهذا الأمر العظيم، ووقف في استخراج حقوق الله وأبان خبايا أهل التلبيس حتى إنهم ينصبون لهم المكاييد. ويُتمض عليهم هذا الحكم فهم أعداء الله ورسوله. وليكن هذا القصد عامًا شاملًا منتظمًا للحاضر والبادي، والنائي والداني، من الذكور والإناث والأحرار والعبيد وسائر أصناف الناس لا يختص قومًا دون قوم ولا جهةً دون أخرى. والله تعالى يوفقكم، ويتولى بمنه عونكم.

وكتب في الثالث من ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسة.

الرسالة الرابعة والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش المذكور:

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد ابن سيدنا أمير المؤمنين، والشيخ الأجل أبي سعيد يخلف بن الحسن أعزهم الله وأدام كرامتهم بتقواه، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونرضي عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، نجله المرتضى وسليته، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله.

وإننا كتبناه إليكم -أعزكم الله بتقواه، وأجزل حظكم من حسناه، ووصل لكم الأنجاد إلى طاعته والعمل بما يقرب منه ويزلف لديه بمنه- من حضرة مراکش حرسها الله ونحن نشكره على آلائه ونعمه، ونستنجزه ما وعد الشاكرين من قواعد إحسانه وفضله.

وقد كنا -أعزكم الله- على عزم الحركة مع الموحدين أعانهم الله إلى جهة المرتدين من صنهاجة آخذهم الله والتصميم في غزوهم، والنهوض إليهم على الثقة بما عند الله لهذا الأمر العزيز من مضمون النصر ومذخور الظهور على من غمص حقه وكفر نعمته وصد عن سبيله. وخلصنا في ذلك النية المجردة لإقامة الله

المقصورة على جهاد عدوه وحماية دينه وتظهر دعوته. ثم وقع الاتفاق بعد إفاضة المذاكرة وإدارتها، وثبات العزيمة منا على مشاهدة هذه الحركة المباركة أن يخرج فيها الموحدون بجملتهم صحبة أشياخهم وحُفاظهم وأجمعوا على ذلك؛ فاستُخير الله تعالى عليه وأنفذ حسبما اتفق عليه.

فنفذوا توجههم الميمون يوم السبت السابع من الشهر المؤرخ به يمن الله مسعاهم، وكتب ممشاهم، وظفر مقصدهم في تعمير سبل الجهاد ومغزاهم، ومكنهم على أفضل ما عوّد من نواصي عداهم، بمنه.

وقد كان أشياخُ طلبة الموحدين أعزهم الله قبل هذا تذاكروا في مشي أخينا إسماعيل وفقه الله إلى إشبيلية حرسها الله صحبة عسكرٍ من الموحدين والعرب وفرهم الله ليكونوا بها مقيمين مع إقامته، ويتقيدون بتقيده ومكثه، ويجدُّ لذلك أهل إشبيلية وجهاتها من الأنس ما تطمئن به نفوسهم، وتقر عليه قلوبهم، وتنعم به جناباتهم، وينكف عنهم من إضرار العدو وهجومه على ما اعتاد من البغت والفجاءة ما يرتفع عنهم روعه وتنقطع عنهم عادته، ويكون بحضور هذا العسكر عندهم وملازمته إياهم ما يتعجل معه الغوث إن أُحتيج إلى ذلك. وتذاكر أشياخ الموحدين بهذا واتفقوا عليه ورغبوا في إمضائه ورأوا فيه من الخير والتعاون على مصالح هذا الأمر ما وقع عزمهم عليه. فاستُخير الله تعالى على ذلك وأمضي.

وكُنّا على إنفاذه حين وقوع المذاكرة، فأزف شهرُ الصوم فأرجأناه إلى انقضائه تخفيفاً على المسافرين ورفقاً بهم؛ فحين انقضى -قبله الله منا ومنكم- أتى التعويل على ذلك. ونحن إن شاء الله ننفذه إثر هذه المكاتبة بالعسكر المذكور من الموحدين والعرب عرّف الله بركة ذلك وأطلع على ثمرة المقصود منه والمنوّة فيه.

وأعلمناكم بذلك لسروركم به، ومكانتكم بقربه ووجودكم إلى العون منه على أمركم، والتظافر على عدوكم، وصل الله لكم أسباب العون ونظم بكم ولكم معاهد الصلاح، وأعاد عليكم بركة سيدنا أمير المؤمنين في كل الأحوال دينًا ودُنْيَا وآخره وأولا، بمنه ويمنه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة الخامسة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته إلى أمير شرق الأندلس أبي عبد الله محمد بن سعد أمده الله بتوفيقه، وأعزه بطاعته وتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونضلي على سيدنا محمد نبيه ورسوله. والحمد لله الذي أقام لأمره الذي هو سفينة النجاة، وعصمة المحيا والممات، دُعاة يأخذون بالحجز عن النار؛ ويقيمون لمن أضل السبيل، وعدم الدليل، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح، ومنهجه اللائح، أهدى عَلم وأرفع منار؛ ويتقدمون في إيلاخ حجته، وإيضاح نجحته، ببوالغ الإنذار والإعذار؛ ويصرفون بها أودعوا من سره المكنون، لبثه في الظهور والبطون، والسهول والحزون، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار؛ الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضي بهذه الخليفة، من ركوب هذه الطريقة، إلى سعادة هذه الدار، وسعادة تلك الدار.

وصلى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار، ولبابة الاجتباء والاختيار، المخبوء بمعدن بيته الأشرف، ونسبه الأشهر الأعرف، سرُّ هذا النبأ السيّار، وارث ذلك المقام الذي هبت تبشيريه بأسماع ذوي الإضاحة لمواقع الاستبشار؛ ورضي الله عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله على أوفى الاعتضاد بتأييد الله وأتم الاستظهار، الماضي قُدّما في التصميم، وإنفاذ العريم، على

أمر طَلَّق وأبعد مضمار، المُعان في ما دعا إليه ونبه عليه بالبصمة التي لا تضره معها إباءةُ أباء ولا كفرٌ كُفّار؛ وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين عشي أمره العزيز على مآله من المراسم المحفوظة والآثار، ومقيم على حدوده المكلوّة الملحوظة دون ونية ولا إقصار، والناصر له بكل معنى تتوجه إليه دعاية الاستبصار.

وإنا كتبناه إليكم -أمدكم الله بتوفيقه- من حضرة مراکش حرسها الله، ونحن نشكر الله تعالى عودًا بعد بدءٍ وشفعًا بعد وتر، وتعذيرًا بما لا يحصى أمدًا، ولا يكثر عددًا، إلى أقصى ما يزلف عنده، ويحضر لديه، ويبلغ غاية رضاه، على ما ظاهر من نعمته ووالى من إحسانه، وأرسل من شآبيب فضله، وأوسع من منته المعرفة والهداية إلى توحيده والتوحيد إلى الإيمان به، والقيام بحق الدعاء إليه، والتمسك بشريعة رسوله الذي هو الدين القيم، والمنهاج البين، والفسطاط المضروب، والعلم المنصوب، ومعنى الوجود ونشره، وشرفه المقصود وفخره، الذي اختاره الله أمينًا لتبليغه، قوليًا على أدائه، مضطلعًا بحمله، جليًا بتبيينه، حافظًا لأمانته، مصطفاه من عباده، ومختاره من بريته، عين اجتنائه، ونكتة اختصاصه، محمد نبيه صلى الله عليه وسلم.

فبعثه به على فترة من الرسل، وتراخٍ من الزمن، وتشعب من الأهواء، وتباين من الآراء، وخبط من العشواء، وتحكم من الجهالة، وعموم من الضلالة؛ وكل حزب بما لديهم فرحون، لا مرشد يُهتدى بمناره، ولا موقد يُعشى إلى ضوء ناره، ولا دليل يُقتفى مواضع آثاره؛ فقام صلى الله عليه وسلم مؤيدًا بالبراهين القاطعة، والدلائل الباهرة الساطعة، والمعجزات النازمة لآيات صدقه الجامعة؛ فصدع بالحق، ونطق بالصدق، وجدع أنف الكفر، وحطم كاهل الشرك وأفصح بالعلانية، وصرح بالربوبية، وبين للناس ما نزل إليه، فأدى من الوحي ما ألقى عليه، واستنقذ

من الغمى، وافتك من قيود الجهالة الجهلى، وحمل على الواضحة البيضاء، وأوضح بهدياته السُّبُل، واستسهل في تبليغ أمانته ما شق وثقل، وختم برسالته ونبوءته الأنبياء والرسل، وأوضح من أمر الله ما استحفظه واستودعه، وأنهاه إلى أقصاه كما وعاه وجمعه، وما زالت في ذلك كله كلاءة الله الواقية وعصمته الباقية معه. وأخبر صلى الله عليه وسلم بأنباء من الغيب، فرئت بمشاهدة ما بشر منها وأنذر من خوالج الشك والريب.

وأنبأ أن هذا الدين بعد كماله، واستواء نهضته المؤيدة واستقلاله، والتوفيق التام على مشروع حرامه وحلاله، سيعتوره التغيير والتبديل، ويلحقه بعد صحابته رضوان الله عليهم التحريف والتحويل، بما ينشأ فيه على ما أعلم بوصفه، وحدث عن كنهه، من نواشئ البدع وطوارئ المحدثات، وقلب الأمور وعكس الحقائق وطمس آثار الحق باتباع الأهواء وإيثار الشهوات، وعبادة الأطماع والانقياد إلى بواعث النفوس الأمارة بالسوء المتهافئة على الخطام، المشغوفة بالزخرف، الناضرة بالعمور العوراء إلى دار الغرور.

وأن تمكنَ هذا الفساد، واستعجال هذا الداء بالأئمة المضلين، الذين مرقوا عن الدين، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، وأن العلم عند ذلك يرتفع، والجهل يعم، والظلم يشمل، وأن الدين يعود غريباً كما بدأ غريباً، وأن عودته بظهور النبأ به والمخبر عنه، المصطفى من بيته، المختار من نسبه، المؤمل لإحياء سنته، الإمام المعصوم، المهدي المعلوم رضي الله عنه الذي بشر صلى الله عليه وسلم بعلاماته، وأخبر عن أماراته، الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل، المتبع غير مُحْطَى لأثره، المقتدي به عليه السلام في مورده ومصدره.

فجاء رضي الله عنه على موافقة ما أخبر، ومشاكلة ما أنبأ، قائماً في آخر الزمان

وعند شمول الضلالة وتلدّد الحيرة وتموج إفتنة وارتفاع العلم، واستحكام الجهل وفشو الظلم، فظهر به رضي الله عنه لما خصه الله من الهداية وعلمه من الحكمة، وأحلّه من مقام العصمة، ونواه من معقل الإمامة، وخرق له من العادات، وأجرى على يديه من الآيات، ما صدّق ما نظقت به الآثار، وتضمته الأخبار، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة، ومنحها الثلج، وأراها عين اليقين من ظهور العلم وانبثاث العدل، والصدوع بالحق والجهد لأهل الباطل، والقتال على أمر الله والنصرة الظاهرة، والغلبة القاهرة، على الاستمرار الدائم، والعمل المتصل القائم، دائماً به أمره ما دامت السموات والأرض، قائمة به دعوته كما وعد إلى قيام الساعة.

قد حفظ الله مقامه وأمدّه بخليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين الذي مد أطنا به، ومكن أسبابه، وأفاض أنواره، ومشى مناجهه الكريمة وآثاره، وقام بحق التبیین لأمره والإذاعة لدعوته، وحمل العباد على سبيله وإيداع القلوب علمه الذي ورثه رضي الله عنه واستحقه حصيصاً منه، وواصل تمشيته، وتضمن بها أيده الله من التأييد تنميته.

فهو والحمد لله محفوظ الجناث، مكلوء النواحي، معصوم الأرجاء، موعودٌ بما أراد الله من إكماله وإتمام نوره بالنصر الذي لا يتوقف عنه في حال، ولا يتخطأه في حين؛ قد تولى من العناية به والكفالة بما قضى له بالاستغناء، وحكم له بالعزة والاعتلاء، آياته بذلك مشهورة، وآثاره معلومة مأثورة، ومقاماته مشهودة محصورة، وأيامه في صحائف الذكر الباقي مكتوبة مسطورة، ولا مستقرّ في أنه الحق لشبهة ولا جهالة، ولا موقف لحيرة ولا ضلالة؛ ولا مطمح لناظر، ولا مسرح لخاطر، إلا تحت هداية بينة ودلالة، ولا يزال النصر له يستتب، والتأييد يطرد ولا يغيب، باتباع سُبُلِهِ

وانتحاء طرّقه والوفاء بعهوده، والوقوف عند رسومه وحدوده.

وإنا وصل الله توفيقكم بما له علينا من هذه العهدة اللازمة والأمانة المتقلّدة والحيطة التي حملناها، والرعاية التي كفلناها، والتي نسأل الله جلّ جلاله عونًا على القيام بها والنهوض بأعبائها والبلوغ إلى رضا الله عنا في أداء الأمانة فيها ندعوكم برعاية الله إلى هذا الأمر العظيم، وتُيَبُّ بكم إلى السلوك لطريقه الواضح المستقيم، وإلى الأخذ منه الحظّ الواقف المستديم، وأن تكونوا صدرًا في حربه، حائزين شرف المجلس من شعبه، وأن تنظروه بعين الاعتبار، وتأملوه تأمل ذوي الاستبصار، وتجردوا تفكيركم في آثار هديه ومدارج سنته ومرامي مقاصده وجملة ما يدعو إليه ويحمل عليه مما هو طريقٌ إلى النجاة وسُلَّمٌ إلى الفوز وسببٌ إلى سعادة الأبد، ومنال النعيم السرمّد. فسيقضي بكم ذلك إلى التحقيق ووازن الأمور بميزان العدل، وسيرها بمعيار العقل، والقضاء عليها بمشاهدة الحسن إلى معرفة ما أردناه لكم من الخير، وبذلناه لكم من النصّح، وأملناه لكم من توفر قسطكم في هذا الأمر واستفراهِ نصيبكم من هذه الدعوة التي لا إيمان لمن لم يؤمن بها، ولا دين لمن لم يَدِّنْ مصداقًا بها، ولا عهد لمن لم يستدم بها، ولا مستند لمن لم يستند إليها.

وإن من أعرض عنها أو شك فيها ولم يتقلدها، ولا استمسك بعصمة وطاعة منها، فقد رد ما نطق به الوحي وكذّب بما جاءت به الرسل، ولم ينفعه عند الله أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

وإذا وفقكم الله للتعلّق والتوثق بعراها، وخرقتم بنفوذ البصر والبصيرة حجب القواطع، وكشفتكم مغديات الشواغل، طالعت منها ما يرضيكم دينًا ودنيا، وشارفتكم ما يقربكم إلى الله زلفًا، وخلصتم إلى ما يحفظ لكم المنزلة السامية، والرتبة الزاكية النامية، في الأولى والأخرى، وكنتم في أعوان هذا الأمر وأنصاره، وعدد أشياعه

وأوليائه، وتسربلتم بثوب العزة بالإيمان، وأخذتم بعصمة أمانة العصمة الثامنة من كل حدثان، ورضيتم لأنفسكم بموالاته من تولى الله ورسوله، ولم يرض متولى دونه.

وإنه - أعزكم الله - ليربأ بمن كان له إدراك يفصل به بين الحق والباطل، والحالي والعاقل، ويفرق به بين المتضادات، ويميز به بين المتنافيات، أن يميل عن الأولى، ويفرج عن الأحق الأحدثى، ويفرض عما تبدى له من الحق معترضاً في أحسن المناظر وتحلى، وما أحق من قرعت سمعه الذكرى أن يقول أهلاً؛ النور جلي، والسرّاط مولي، والكل باتباعه ثلثاً تتفرق به السبل خليقٌ جري؛ فكونوا ممن أخذ لنفسه من نفسه، وأثار ليومه من أمسه، وانتفع بأعمال ظنه في مكاشفة العواقب وحده.

وإذا أرسلتم أرشية أفكاركم، في قلب أذكاركم، وأطلقتهم أعنة اعتباركم، في ميادين ما مر على أبصاركم، تجدون أن من شغل نفسه بمكابدة هذا الأمر ومكابدته، وقطع مسافة عمره بمخالفته ومعاندته، قد خاب مكدحه وأخفق مسعاه، ولم يُجَلَّ بطائل، ولا حظي بنائل؛ فإما صريع حتوف، طعنًا بالرماح وقعصًا تحت ظلال السيوف، وإما أخيد حسرة وأسف، ووقيد زفرة ولهف، قد قطعت عنقه المطامع، وتلاعبت به حياته اليلامع واليرامع؛ وإن وراء ذينك يومًا عصيبًا، وهولًا يجعل الولدان شيبًا، وإن من غلب على دينه، واقتلت عن إيمانه، وحجب عن ربه، لغين الصفة، خاسر المتجر، وقلما سمحت بذلك نفسٌ تبين الغي من الرشد، وعرفت الجور من القصد.

وقد كان سيدنا أمير المؤمنين أيد الله أمرهم في القديم ومنذ زمن طويل، خاطبكم بهذه الدعوة وحملكم فيها على منهج النصيحة، ولم يكن بلغ الكتاب أجله، ونحن لأوامره العلية مراعون، وللمدعاة إلى دعاكم إليها داعون، ولرأيه الجميل في

هداية الخلق مشيعون مشايعون. فاقبلوها نصيحةً تحرز لكم حظ السناء، وتوجب لكم رتبة الخاصة من الأولياء وتقتضي منكم في خير عمركم أفضل المناب في معونة هذا الأمر وأحسن الغناء، وتجمع عليكم بهذا التلافي الفائت في تلك الأوقات الماضية والأناء، وتكونوا على هذه الرتبة كمن أجاب في أول النداء. والله تعالى يُعينكم على تقبل هذه الوصايا ومقابلتها بأحسن التلقي وأنفع الالتفات، ويجعلكم ممن تنبه للعظات، واذكر بالآيات، بمنه.

خاطبناكم بهذه المخاطبة دعاءً إلى الله، وإرشادًا إليه، وتعريفًا بما لا يسع جهله من الفيئة إلى أمره، والبدار إلى ما يجب من طاعته، والاعتلاق بحبله، والاستعصام بدينه. وما أطلعناكم إلا على ذخيرة نصح ونخيلة ذكر، لا مقصد لها إلا الوفاء بعهد الله وميثاقه الذي واثق به ومحض النية في صلاح الأمة وحملها على الجادة وصيورها إلى رضا الله وقبوله. والله ينفع من ذلك بما أريد له وقصد به.

وقد كان الشيخ الأجلُّ أبو حفص أعزه الله تحرك في هذه السنة بعساكر الموحدين أعانهم الله إلى الجزيرة الأندلسية حماها الله بنية الجهاد والغزو؛ فخاطبناه بما رأيناه من هذه المخاطبة إليكم أن يتكبد ذلك الجانب، ولأن لا يعرضه بقصده وأن يتجلى عنه إلى سواه ريثما يصل كتابكم، ويستعلم ما عندكم، من إجابة الدعاء والتلفت إليه؛ فيكون بدار الجواب على حكم ذلك. والله يحملكم على ما تعرفون ببركته، تمجتون عاجلاً وآجلاً ثمرته، وتحمدون مآله بالاستبصار في أمر الله وبغيته. فذلك بيده، لا رب سواه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ بعد صلاة الجمعة من أول يوم من رمضان المعظم سنة أربع وستين وخمسة.

الرسالة السادسة والعشرون

وهي من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمدّه بمعونته إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة أدام الله كرامتهم بتقواه، وأطلع عليهم وفود بشره. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله، والحمد لله الذي جعل الأمر العزيز عقيب الدار، وشرف الإيراد والإصدار، وأيده من نصره وجنده، ومعونته وعضده، بما يضمن له عادة الأعداء والإظهار، ويؤتاه مبعأ الصدق من الاستيلاء والغلبة والافتقار، وختم لهذه الطائفة المباركة بأنهم المنصورون والمصيون والمفتوح لهم وعدًا يتمشى لهم انتجازه مع اتصال الأعصار، وتظهر آيات الله فيه لائحة لذوي الأبصار والاستبصار، حتى ينقاد في زمامه مصحّبًا ذو الشراد والنفار، ويأوي. إلى ذراه الأمين، وربوته ذات القرار والعين، الصعب الجامع في طلق الإبابة والاستكبار، ويدخل في الله مبادرًا إلى رحاه من لم يكن تُرجى منه إنابة البدار؛ فتلتقى على الشهادة بأنه أمر الله ألسنة الناطقين بالإقرار، وأحوال الصامتين التي هي أدل الدلالات عند ذوي اليقين والأسماع والأبصار.

والصلاة على نبيه المصطفى محمد الصادق الأمين المختار، المبتعث إلى الآخر والأسود آخذًا بحجرهم عن النار، المبشر بأن مُلِكَ أُمته يبلغ ما زوي له من مشارق الأرض ومغاربها من الأنجاد والأغوار، وعلى آله وصحبه الكرام الطيبين الأبرار،

الذين كان لهم في تعزيزه وتوقيره ونصره وإقامة أمره أزكى الأثر والآثار؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله مجاهدًا أهل الإعراض عنه والأدبار، المحيي سنة الله تعالى وقد أماتها أهل الجهل والجدد والإنكار، الداعي إلى الله على بصيرة مؤيدة بأوضح الأنوار، المالى الأرض قسطًا وعدلًا وقد أُلحد فيها أهل الكفر والإصرار.

وعن صاحبه وخليفته المنصور الناصر لدين الله سيدنا أمير المؤمنين مؤازره في القيام بأمر الله عند عدم المؤازرين له والأنصار، ومُبْلَغُ دعوته العالية إلى منتهى أمدها من الانبساط على البسيطة والانتشار، ووارث مقامه العظيم المخلد شرفه عاليًا باقيا حتى يرث الله أكلاً الأعمار.

وكتابتنا إليكم -كتب الله لكم من أقسام السعادة، والبشائر المعادة، ما يخلص إلى قلوبكم بطيب مسراه ويحييكم وافده بما يحييكم به الله- من حضرة تونس حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه والشكر له سبحانه أولاً وآخرًا على ما أولى أولياء أمره من معونة نهجت لهم في جميع محاولاتهم السبيل، وعرفتهم فيها البركة والتسهيل، والخيرة التي جمعت لهم النجاح الميسر الجميل، والصنع الذي خرق العوائد وجاز الأمنية والتأميل، والله سبحانه يوزعنا أن نشكر فضله الجزيل، ويلهمنا من محامده الجامع البليغ الحفيل، بمنه.

وقد انتهى إليكم وفقكم الله ما سنى في هذه الوجهة الميمونة من الأمور الشريفة الفتوح الجليلة التي جاوزت مدى الأفهام، وفاقت بمبالغ الظنون والأوهام، وقامت أزكى شهيد على مراد الله في هذه الدعوة العزيزة التي هي نظام الإسلام، والحافظة شمل الخيرات على الأنام، والسامية في مراقبي شرفها مدى الليالي والأيام، حتى تبلغ الأمة برحمة الله سبحانه إلى دار السلام.

وأعلمناكم أيضًا وفقكم الله بما كان من صرف الموحدين أعزهم الله إلى هذه الجهات الساحلية بعد الغزوة المباركة التي أعلى الله بها منار الإسلام والإيمان، وأخزى أهل الشقاق والنفاق والطغيان، حرصًا على إزاحة نفوس أهل التوحيد من مشقات احتملوها في طاعة الرحمن، وإجماعًا للسيوف حتى تتبين مواقعها من رؤوس أهل المروءة والعصيان.

وخلال ذلك جُمع أشياخُ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكُبرائهم من جميع قبائل رياح وفقهم الله فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومنته الجسم، ونُبهوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أول الإسلام، وأن الله قد وعد هذه الطائفة المنصورة أن تملك العرب كما بشر به المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وحُرضوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام، وعُرفوا أن الغرض فيهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس مهدها الله فقد طال استشراؤهم، وأملى الله لهم فراد عليه اجترأؤهم؛ ونُذِّبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضهم وقضيضهم، نفرة من أنبت عن الوطن، ونبت علق المسكن والسكن؛ وإن كانت هذه البلاد هي التربة التي مست أولًا جلودهم، وقضوا فيها من الشباب عهدهم.

فالذي يتقلون إليه من الرباط في سبيل الله يجمع لهم الخير في الدين والدنيا، والشرف بالكون في عداد كلمة الله العليا؛ ويُنَّ لهم أنهم إذا استقبلوا هذا الغزو السعيد، والغرض الحميد، بنيات متجردة، وعزائم فيه متجددة، ونفروا إليه بجملتهم من غير استثناء، واستصحبوا معهم من تتعلق به الخواطر من أهل وأبناء ونعم وشاء، وجعلوا ذلك كله وراءهم حيث ما يُرسم لهم من بلاد الأندلس مهدها الله ثم صمدوا لعدوهم، وتفرغوا لرواحهم في سبيل الله وغدوهم، كانت خواطرهم

لغزو أعدائهم أفرغ، ومصاعهم لأقربائهم أصدق ووطأتهم على أهل الشرك أثقل، وطيرانهم لكل هيعة يسمعون أسرع، وإقدامهم في كل موطن يقظ للكفار أثبت.

وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم، وخلصت إلى نفوسهم، وتقلقلت في بواطنهم؛ فتحرّكت إلى ذلك حفاظهم، وثارَت لنصر دين الله عزائمهم، وسعت بهم إلى هذا القصد الميمون نياتهم وخواطرهم، وتلقى جميعهم ذلك من البدار إليه، والسرور به، والوعد بالتشميم فيه، بما يُرجى أن الله تعالى سيحقق أملنا وأملهم في نصر دينه، وإعزاز كلمته، وجهاد أعدائه، وأخذ من حاد الله ورسوله معرضًا عن أمره، وناصب الإيمان بإشراكه وكفره.

ولم يبق من جموع رباح كلها، على اختلاف قبائلها، وتعدد عشائرها واتساع أفخاذها وعمائرها، إلى من حضر ذلك من أعيانهم، وذوي حلومهم وأسنانهم؛ وكلّ أظهر من جميل البدار، وكريم الأهطاع، والتأثر لهذا الغرض الجميل الذي يعود عليكم بكرم المآل وجزيل الثواب، ما أقر العيون، وشرح الصدور، وملأ بالبشرى القلوب، وودع جميعهم على الأخذ في الحركة على هذه الصفة المباركة من التفويض بالرحيل، والتسليم لهذا الأمر العظيم، والرضا بهذا الغرض الجميل، وأن يكون رباطهم في سبيل الله عوضًا عن عشواء في الفتنة خبطوها، وعمياء في الضلالة ركبوها، وآثار في الفساد والعناد آثروها وارتكبوها.

وقد أخذوا في الحركة بعون الله على طرق شتى بعضها بالصحاري وبعضها بالسواحل، كل قبيل منهم اختار أقرب الطرق إلى الموضع الذي منه مبدأ انتقاله، وأرفقها بنفسه وأهله وماله، وأعوذها عليه باليسر والسعة في أحوال ترحاله، ورأينا أن ذلك لهم أوفق، وبهم أرفق، حتى لا يَزِدْهوا في المسير، ولا يتضايقوا مع اتساع هذا الفضاء الحامل منهم للجاء الغفير. وقد أصبحوا من الطلبة والحفاظ أكرمهم

الله من يُقيم منادهم، ويحفظ أعدادهم، والله يكرم مقصدهم، ويجعل التقوى زادهم، وقد سالت بهم الأباطح، وامتلات بجموعهم المواهى الفسائح، وأخذوا في النقلة على ما تحمله المذاهب وتحمله المناسك. وإن جموعهم وفقهم الله وأكرمكم جميعاً بتقواه لتكاثر الحصر ومُعاد الرى، وتَمَلأ الغيطان والرى؛ وسيصل منهم على تلکم الجهات ما يرد الطرف حسيراً، ولا تنتهي إليه الخواطر والأذهان تحصيلًا وتقديرًا، بحول الله تعالى وهو المستعان.

وكان من حضر لهذا المجتمع السعيد، والخير الجديد، والذكر المحفوظ بالتوفيق والتسديد، الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام أكرمه الله فظهر منه في هذه المشاهد الكريمة، والمذاكرات المباركة، والمحاضرة الشريفة، التي هي كلها من جملة أعمال الإيثار، وطاعات الرحمن، من جميل الأقوال والأفعال، التي تني عن صادق العزم في جميع الأحوال، ما شكر فيه منابه، وصدق فيه احتسابه، ثم أخذ كما أخذ سائر الأشياخ من العرب في الرحيل بنفسه وأهله وولده وجملة من تعلق به، واتصل بسببه، من جماعته وقبيله وذوي نسبه، ومن كان توقف بتوقفه وتأخر بتأخره؛ وتقدم من ذلك تقدم الموفق السعيد، والمبارك الرشيد، وسار في الرعيل الأول مبادراً إلى السعادة، مسارعاً إلى الامتثال والطاعة، والجد نصب عينيه واستبصاره، والجهاد في سبيل الله شغل خواطره وأفكاره. وكل من كان من هؤلاء العرب قد أساء الظن بها ركب قبل من جرم، واكتسب من إثم، وتوقف على داعي الله وقد دعاه إلى ما يُحْييه على بصيرة وعلم؛ فقد بادر الآن بالامتثال، وفوض للانتقال، ورجا أن ينحتم عمله بالرباط في تلك الجزيرة محتسباً على الله بنفسه، بأذلاً في طاعة مولاه جهده، مبايعاً بذلك ربه حتى يمحو ما سلف، ويستقبل من هذا الخير ما ائتلف، ويستبشرون ببيعتهم التي بايعوا بها من لا يضيع أجر المؤمنين، ويرى الله عملهم والمؤمنون، ومن استخلفه الله على المؤمنين.

وليس يبقى بعد هذه الغزوة المؤيدة، والنية المجردة، بهذه البلاد كلها من العرب من يتطلع بعدد إلى استجلابه، ولا يتشوف إلى وصوله إلى البلاد الغربية واقترابه؛ فقد وعبوا في التخلي عن هذه الأوطان، وتركوها لمن كان فيها من القطان، سوى من سكن من قبائل سُليم بجهات طرابلس وما وراءها مشرقاً ومصحراً إلى برقة والإسكندرية. وقد وصل منهم قبل هذا جمعٌ ظاهرٌ من أشياخهم وأعيانهم وذُكروا فيما ذُكرت فيه قبائل رياح إخوانهم، ووعدوا في ذلك بعدات أعطوا فيها صفقة أيمانهم؛ وقد خُوطبوا، وكُتِبوا، وبُشِّروا، وأُنذِروا؛ وإن سمعهم النذير، وكفاهم ما وعوه من التأنيس والتبشير، والتخويف والتحذير، ووفوا بما عاهدوا عليه الله، فسيُحمدون لسواهم؛ ويتلقون مشافهة بشرهم، ويدخلون مدخل إخوانهم، ويصلون حبل الله بأيامهم، ويفوزون بتصحيح عقائدهم وأديانهم، ويزدادون بالجهاد في سبيل الله إيماناً مع إيمانهم؛ وإلا فمن وراءهم طالب مُدرك، وآخذ من جند الله مُهلِك. ولعل الله سيُصلحهم ويهديهم، ويعصمهم مما يريدهم، ويحشرهم إلى مقام يطهر قلوبهم من سالف اعتدائهم وتعديهم، بحول الله.

ولو لم يكن في هذه الحركة، السعيدة المباركة وفقكم الله إلا ما كان الآن من أمر العرب وكف أيديهم عن هذه البلاد، وصرفهم إلى ما استنفروا إليه من الجهاد، وإجابتهم جميعاً بنفوس على الطاعة مقبلة، ووجوه ببشرى المتاب متهلة، وقلوب على الخير مصفقة، ونيات على إجابة داعي الله متفقة، لكبر بذلك دليلاً على أن هذا الأمر العزيز لا ترتقي إلى فهمه العقول، ولا تنتهي إليه الخواطر والظنون، وأنه مؤيدٌ من الله، بنور ينور به قلبٌ من وفقه لرضاه، ويسره ليسراه. فقد كانت العرب أولاً وآخرًا لا تنقاد لقائد، ولا تلين في يد قاهر، ذهاباً بنفوسها وطاعة لأنفتها، واستكباراً على خالقها، وإبابة عما تظنه أنه يضع من شرفها. فالآن قلوبهم الآن لهذا الأمر العظيم، حتى أُلقت إليه مقاليد التفويض والتسليم، من الإنهاء لرسوله عليه أتم

الصلاة والتسليم، حتى ذلت له صعابهم، وخضعت له رقابهم؛ فنصروا دين الله حتى استقر في نصابه، وضربوا على الباطل والكفر من لم يأت الحق من بابه، وانقادوا مع أمر الله ورسوله وكتابه. ثم ضربوا المبطلين على تأويله حتى دمغوا الباطل فزهق، وأرهقوا عُسرًا من كان رهق، ونرجو أن الله يستشرح صدور هؤلاء بنور هذا الأمر العزيز حتى ينصروه حديثًا كما نصروه قديمًا، ويُتمموا بذلك شرفهم تتميمًا، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرًا عظيمًا.

وعجلنا إليكم وفقكم الله وأكرمكم بتقواه هذه البشري، لتعلموا أنكم لم تعملوا عن الخواطر والأفكار، وأن جهاتكم لا يشغل عنها شيء من شواغل هذه الأقطار، وأنكم معتمدون أبدًا من العناية، والرعاية، بما يعود عليكم بتبليغ الأوطار؛ فبشوها وفقكم الله في أصقاعكم، واجعلوا حديثها في قلوبكم وأسماعكم، واعقدوا بشكر الله على ما منح بها معاهد أئديتكم واجتماعكم. والله يُوليكم من رحمته، ونعمته، ما يعُمُّ به ملائكم، ويكرم به متبوأكم، بمنه، لا رب غيره وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ منتصف شهر شوال سنة ست وسبعين وخمسمائة.

الرسالة السابعة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من الأمير يعقوب ابن سيدنا أمير المؤمنين ابن سيدنا أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بغرناطة أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرفهم عوارف نعماء ورحمائه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي حفظ بهذا الأمر العظيم رباط الإسلام ونظامه، وأحيا بإحيائه رُفاته ورُمامه، ونصب للمستضيئين بأضوائه، والمستبصرين في اتباع سنته اللاحب واقتفائه، أضواءه الهادية وأعلامه، واستحفظ أمره العزيز في الدارين عن حرمانه، والناهضين بأعبائه وأمانته، ملقيًا إليهم مقاليدهم وزمامه، ومُظهرًا بهم مناهجه القويمة وأحكامه، وجعل إمامتهم الحميدة، وإيالتهم المباركة السعيدة، ملاذ الدين وقوامه، وظهور الحق وانتظامه، وجبّ بتعاضدهم وتوازرهم، وترافدهم على تمشية أمر الله تعالى وتظايرهم، غارب الهرج وسنامه، وعمرَ ببركة مساعيهم، وسعادة مأخذهم الموقفة ومناجيهم، ربوع الإيوان وخيامه، وضم نثره ونظم التثامه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أطقاً الله به احتدام الكفر واضطرامه، وأزاخ بأنواره الباهرة غيب الشوك وظلامه، وأعلى بحنيفية الحق منار الحق وعمامه، وجعل بذارته المنجية، وبأثرته المزلقة إلى الرضوان المُنّية، انقضاء إرساله تعالى واختتامه، وكمال وحيه سبحانه إلى

عباده وتماحه، ضاعف الله له ولعترته الطيبين، وصحابته الأكرمين، صلواته الجمّة وسلامه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، علّم الهدى وإمامه الذي اختاره الله تعالى للهداية واعتماده، وارتضاه لتجديد شريعة جده عليه السلام بعد الدثور وأقامه، وشفى بعلومه الجليلة، وبراهينه الواضحة القطعية، أدواء الجهل وأسقامه، وجلا بأضوائه الساطعة، وتعليقاته الرافعة الشكوك القاطعة، دياجير الحالكّة وأظلامه؛ وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه، والمعمل في إعلاء كلمته وتمكين أمره الحق ودعوته شأنه وحسامه، المجرد في الوفاء بعهوده، وانتجاز بشاراته الصادقة ووعوده، عزمه الكفيل بها واعتزاه؛ والدعاء لسيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصر يسكب السعد غمامه، ويميز الجد إقسامه، ويقتضي الفوز المسعد، والفضل المعاون المنجد، استمراره إلى قيام الساعة ودوامه.

وهذا كتابنا إليكم - أسمعكم الله من بشائر هذا الأمر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحا، ويعمر صدوركم انشراحا، وأوسع أرجاءكم وأكتافكم انبساطاً في ظل الأمانة وانفساحا - من حضرة إشبيلية جرسها الله ونحن نستوهب الله عوناً على ما قلدنا من أمانته، وإنهاضاً بما حملنا من نصر دينه وحمايته، وإنجاداً على ما ننويه ونحاوله وندأب فيه من حفظ أمره ورعايته. والذي نوصيكم به تقوى الله العظيم، والعمل بطاعته، والتوكل عليه وأن توقنوا بأن هذا الأمر السعيد محفوظ المقام، منصور الأعلام، مسدّد النقض والإبرام، مقرون بمقاصده اليمن والنجح على تعاقب الأدوار وتناوب الأيام، وأنه المصيب المفتوح له الذي لا يضره من عانده ولا من خذله مع تقادم الأعصار وتطاول الأعوام، بُشّر صادقة الدلائل، وبُشّر صادق الخيال، وأمر محروس لا يقدر فيه كيد كائد ولا خذل خاذل، ولا يحل عقوده المبرمة، وروابطه المستحكمة على تقوى الله المنتظمة، حدوث حادث ونزول

نازل، حتى ينجز الله له وعده الكريم في الاستيلاء على الأقرب والأبعد، والانتهاه من ذروة الكمال والتمام في مسماها الأعلى الأصعد، وإيداع أمانته العظيمة، وعهوده الكريمة، في الأقد في الاختصاص فالأقعد، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والحمد لله رب العالمين.

وإنه وفقكم الله وسددكم، وأعانكم على اتباع أوامره وأنجدكم لم تزل رغبات الموحدين أعزهم الله وإخوانهم العرب وفقهم الله تترادف على سيدنا أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته في إرقائنا لهذا المرقى وتقليدنا هذه الأمانة العظمى، والإفضاء إلينا بأمره الأعز الأسمى؛ فيقابلهم -أعلى الله أمره وأعز نصره- من وعده الكريم بكمال مطلبهم وتمامه، واتساقه على مقتضى آمالهم وانتظامه، ويعرفهم بأن هذا الأمر له وقتٌ يرتقب لعقده فيه وإبرامه. ولما أذن الله تعالى في دنو الميقات المنتظر واقترابه، وأراد سبحانه إنجاز وعده الكريم لسائليه وطلابه، وإقرار أمره العظيم في معدنه الحافظ له ونصابه، ورجع الموحدون أعزهم الله من غزوتهم المبرورة التي أعز الله بها المسلمين وأداهم، وقمع المشركين وأذاهم، وكرم بإحراز أجرها، واستخزان ذخرها، حالهم ومآلهم، ويلغهم من نكاية أعدائهم وتدوين أكتافهم وأرجائهم، ما تجاوز أمانتهم وآمالهم، تعين الوقت الموعود، وحضر الزمن المرسوم له المحدود. وكان بحكم الاحتفال للغزوة المباركة، وحرص الكافة على اغتنام أجور المساهمة فيها والمشاركة، أجمع من الموحدين أعانهم الله ومن انضاف إليهم من الأجناد، ومن كافة العرب وأعيان أهل البلاد، جمعٌ كثير، وحفلٌ كبير، يدخل فيما ارتبطوه عليه سائرهم، وتنظم فيما عقدوه جماعتهم الذين وراءهم وعشائرهم؛ فعرف كافتهم بما تقدم فيه سؤال الموحدين والعرب وفقهم الله ورغباتهم، وتكررت في استنجاه طلباتهم، وقرعت باب استفتاحه بداتهم، وانتهت إلى إثارة واختياره نهاياتهم، ووقفت عنده قصودهم الميمنة وغاياتهم. فكان منهم

من المبادرة إلى ذلك والإسراع، والإعناق إلى إجابة داعيه والإهطاع، والتلقي لرايته المرفوعة بيمن الانقياد والانطباع، ما قضى باستحكام الأصفاق عليه من الكافة والإجماع، ورغبوا في إكمال ذلك لفورهم، وألحوا في طلب المبايعة لحيثهم، واتفقت عليه آراء كافتهم وجميعهم.

ولما تحقق منهم خلوص الضمائر، واستواء البواطن والظواهر، واستحكام النيات فيه والبصائر، أسعفوا بمطلوبهم، ومكنوا من مرادهم ومحبوبهم، وأحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجًا وسلوكوا من الطاعة الصادقة سبلاً فجاجا، واقتفوا في ذلك من آثار هذا الأمر العظيم جواداً قاصدة ومنهاجا، وبادر الأعيان من الموحدين وغيرهم وفق الله جميعهم إلى البيعة وسارعوا، وترادف الناس بعدهم وتتابعوا، وأعطى الجميع صفقة أيديهم بإخلاص من سرائرهم وبايعوا؛ والتزموا فروض البيعة بشروطها وقيودها، ووقفوا عند رسومها المعلومة وحدودها، وأمضوا على أنفسهم أحكام حقوق الطاعة الصحيحة وعهودها، وارتضوها بنيات صادقة، وعزائم إلى اغتنام الأجور مسابقة، وضمائر لكل شوب وريب مُبائية مُفارقة، وبايعونا على ما بويح عليه الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين رضي الله عنهما وسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته من الإيمان والأمانة والعدل والعبادة، والسمع في المنشط والمكره والطاعة. وظهر على الكافة من دلائل البشرية، ومخايل المسرة بهذه النعمة الكبرى، وشكر الله تعالى على ما يسرهم له من اليسرى، ما حُقق عند كل مؤمن، وأوضح لدى كل مسلم موقن، أن هذا الأمر السعيد ممكنٌ له في الأرض، ومخدوم الإرادة في البسط والقبض، منصور اللواء، مؤيدٌ على مر الأوقات والآناء، إلى يوم الدين والعرض. واتصلت المبايعة المذكورة اتصالاً استوعب كافة الموحدين ومن معهم من الأجناد، وإخوانهم العرب وأعيان أهل البلاد وفق الله جميعهم.

ورأينا وبالله التوفيق أن نعرفوكم بهذا الأمر الأعظم الأخطر، لتأخذوا منه بالخط الأوفر، وتناولوا ناجز خيره الأنفس ومذخور أجره الأكبر، وتدخلوا بالانتظام في سلكه مداخل طائفته المفلحة وحزبه المظفر؛ فتلقوا وافده الأكرم بالقبول سمعا وطاعة، وانشروا نبأه الأفخم، في جهاتكم وجناباتكم إشادة وإشاعة، وتخذوا عهده المؤكد الألزم، على كافة أهل حواضركم وبواديكم فئة فئة وجماعة جماعة. واستمسكوا بعروته الوثقى وعرزه، واعتصموا بكهفه الأوفى وحرزه، واغتنموا الدعة والهدون في كنف أمنه الشامل وعزّه، إن شاء الله وهو وليّ توفيقكم وإرشادكم، وإعانتكم على طاعته وإنجادكم، بمنه.

أدام الله كرامتكم بتقواه، استدعت هذه الحالة التي عرّفتم بها أن يُزاد في الخطبة الزيادة التي اشتمل عليها المدرج في طي هذا الكتاب؛ فضعوها في موضعها منه، واكتبوا بنسخها إلى جميع جهاتكم إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب في السابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسةائة.

الرسالة الثامنة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة الموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بإشيبيلية أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، وأعانتهم على اتباع أمره والعمل بما يرضاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعدُ فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي شيد بهذا الأمر العزيز منار الحق وبناءه، وتدارك به زمن الإسلام بعد إشفائه على الذهاب وذمائه، وحسم بأمره القائم بالعدل، الناظم لأشتات الخير والفضل، علّك الالتباس وأدواءه، ووقف على مصالح الأمة وتفقد ما يحفظ عليها نظام الدين والنعمة إعادته وإبداءه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أزاح الله به ظلم الكفر وغناءه، ونشر في البسيطة أنوار دينه القيم وأضواءه، ووعد وعَدَ الصدق استحواذ مُلك أمته على ما زُوي له من المشارق والمغارب واستيلاءه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي رفع الله بظهوره علّم الشرع ولواءه، ووفّى الكافة بعلمه الواضح، وهديه المستقيم الصالح، مهاوي الجهل وأهواءه، وجدد به الإسلام بعد الإنهاج والإخلاق بهاء الأول ورواءه، وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين المُجبري في القيام بأمر الله لإجرائه، والمُعْمَل في تمشية دعوته وتتميم بداءته صوارمه وآراءه، والمخصوص من إحياء الدين وإرقائه مراقبي

التجديد والتمكين بما يَسَّر له توصيله إلى غاية التمام والكمال وإنهاء؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصرٍ يجمع أعداءه، وتأييدٍ يصحب عزائمه وأنهاءه، وسعيدٍ يقتضي دوام أمره عليًا ظاهرًا إلى قيام الساعة وبقائه.

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم من إرشاد هذا الأمر العزيز ما يسلك سبل الاهتداء، ويملككم على محجة الحق السواء ويوضح لكم معالم الاقتداء، بهدي السلف الصالح والائتساء - من حضرة مراکش حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به والتوكل عليه، وأن ثوقنوا بأن الله جعل هذا الأمر العظيم منجاة من الزلال وعصمة، ونعمة سابقة على الخلائق ورحمة، وضياءٌ مُزِيحًا لكل غيب من الشرك وظلمة، وهداية آخذة عن النار بحجر الأمة، وأن الحق مقرون بعزماته، والصلاح منتج من إشاراته، وخير الدنيا والآخرة متعرف من مقاصده المباركة وإرادته. وإلى ذلكم وفقكم الله وأعانكم على اكتساب رضاه فإن الناس تجوزوا في أمر الرب تجوزًا أغفلوا فيه الاجتهاد، ورتعوا حول حماه رتعا أوقعهم فيه أو كاد، وتساحوا فيه تساحًا خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد، وحاول اتخاذه وبيعه من لا يتوقف على احترام، ولا يتخوف بما يكتسب من آثام، ولا يقف عند قوله عليه السلام ما أسكر كثيره فملء الكف منه حرام. ولم يزل الاشتداد في هذا الأمر القائم بالحق، الناظر في مصالح الخلق، يتناولهم بأبلغ الزجر والقمع، والاحتساب أبدًا يتخولهم بأثم القهر والمنع، والقتل في كل حين يأخذهم بأشد الكف والردع، والحالة الذميمة يزداد بهم تماديها، والعادة السيئة المنقومة تحجبهم عن الحقيقة باستمرار تواليها، ويذهلهم استصحاب الاسترسال، وتمادي الذهول عن الواجب والإغفال، عن تدارك زلاتهم وتلافيها. والذي أطلقه هذا الأمر العزيز منه وأجاز فيه مباح البيع والشراء، ما أنهى طبخه غاية الإنهاء، وصير جرمه في قوام الطلاء، كما فعل عمر رضي الله عنه اقتداءً بالخلفاء، واهتداءً بالأئمة الصالحاء،

والصحابة البررة الأتقياء، وأخذًا بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم)) اتباعًا لأمره عليه السلام واقتفاء، ووقوفًا عند المراسم الشرعية وانتهاء؛ فتعدى الناس ما حُدَّ لهم وتدرجوا إلى ما يختاره الله ويرتضيه، وارتكبوا من اللبس والشبهات في ظلم الاختلاط ودياجيه.

ولما تقرر عندنا من الالتباس في ذلك ما تقرر، وتردد على أسماعنا ما استرسل فيه وتكرر، وعلمنا أن الذي وسع على الناس من اتخاذه لم يتبين لهم الحق فيه على وجهه ولن يتحرر، وأن ذلك مما يصعب عليهم بسبب ما تساهلوا فيه ويتعذر، رأينا والله المستعان أن قطعه بالكلية أخلق بالاحتياط لديهم وأجدر؛ فمن العصمة ألا يجذوه، ومن العون لهم على تركه أن يعدموه ويفقدوه. فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل فاقطعوه جملةً وتفصيلاً، ولا تُوجدوا أحدًا إلى بيعه سيلاً، واشتدوا في ذلك اشتدادًا لا يوسع مستسمحًا فيه صدوقًا عن هذا القصد الحميد ولا عُدولاً، وأخلوا الخوانيت التي كان يباع فيها منه وأفقروها، وأصرفوها لغير ذلك من المباحات وصيروها، والديار المعروفة ببيعه أيضًا لا تتركوها على ذلك ولا تقرروها؛ وأريقوا ما تلقون من مشتهه وملتبسه، وعاقبوا من تجذونه عنده أشد عقوبة على دلسه؛ وتتبعوا في ذلك أبلغ تتبع وأشدّه، ومن وجدتم عنده رائحةً منه كائنًا من كان فأقيموا عليه ما رسمه الشرع في ذلك وحده؛ وانظروا في تميم هذا الغرض الجامع بأصلحة الدين والدنيا أصح نظر وأسدّه؛ وأشيدوا بذلك في جميع أرجائكم وجهاتكم، وخاطبوا بنسخ كتابنا هذا سائر نواحيكم وجنبااتكم، ومشوه بالجد المستوفى، والاجتهاد البالغ المستقصى، بما ينفعكم الله به في حياتكم، وبعد مماتكم، والله يوفقكم من ذلك لما يزلف عنده، ويمتري عاجلاً وأجلاً إحسانه ورفده، بمنه؛ لا رب غيره.

أدام الله كرامتكم بتقواه، تأمرون العمال هنا لكم بدفع جميع ما تحصل في هذا

العام من زكاة الفطر للشيخ الفقيه القاضي أبي المكارم أكرمه الله بتقواه يوزعه على الضعفاء والمساكين رفقا بهم وتوسعةً عليهم؛ فاعثدوا على ذلك إن شاء الله عز وجل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ عقب شهر رمضان سنة ثمانين وخمسةائة.

الرسالة التاسعة والعشرون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بإشيلية أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرفهم عوارف رحماه وحسناء. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي هدم بهذا الأمر العزيز أصول الباطل وفروعه؛ وطمس بأعلامه الواضحة، وآياته البينة اللائحة، رسوم الظلال وربوعه؛ وهزم بأمره القاهر، وحقه الغالب الظاهر، أحزاب الشيطان وجوعه؛ وبدد جماعه الخبيث وجوعه؛ واستأصل صباية الكفر البائد كما استأصل ينبوعه؛ وألحق آخره بأوله، وأصاره إلى سوء مصيره ومويله، مُبديًا ذله وخضوعه؛ مُمزقًا بأيدي أوليائه المهتدين، وأنصاره المؤيدين المسددين، أديمه ومسيلاً نجيعه؛ وختم له في كل محاولة، بعقبى الدار، وعرفه في كل معاجلة ومطاوله، عوائد الإعلاء والإظهار، ممهدًا له رحب نصره الأعم ووسيعه، وممكنًا في درج النماء، ومراقى السمو والعلاء، صعوده وطلوعه؛ وجعل المصيب المنصور المفتوح له مواليه ومطيعه؛ ووالاه من نصره الأغر وفتحته الأغلب الأبر، جليله فجليله وبديعه فبديعه؛ وأجرى عوائده البريمة له على إدلالها، وأمرها قبله على اطرادها واتصالها، مكملًا لديه عوارفه ومتممًا صنيعه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي شئت الله به منظوم شمل الكفر ومجموعه؛ وختم بنبوءته

الخاتمة، وشريعته الدائمة، رسالاته المتقدمة وسروعه؛ وألزم الأحمر والأسود مسنون دينه القيم ومشروعه؛ وجعله ونسباً له يوم المحشر وشفيعه؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي لأم به شعث الإسلام وصدوعه؛ وأبان بهدايته المتقدة من الضلال، وإيالته الواضعة الإصر عن الإمامة والأغلال، محجوب علم الحقائق وممنوعه؛ وقدر عود الإسلام بدعوته، على ما كان عليه في بدأته، ورجوعه؛ وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين الذي حالف في القيام بأمر الله شهاده وناظر هجوعه؛ واستلان في جهاد أعدائه، وتبليغ أمره العزيز إلى علىة تميمه وإنهائه، حثين مستصعبه واستعذب فظيعة؛ وناضل في إعلاء كلمته، وتمشية حقه ودعوته، حتى هد مشيد الضلال واستباح منيعه؛ والدعاء لسيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصر يوالي له سبحانه موصوله ومشفوعه؛ وسعد يمكن من ملكته، ويضع في قبضة قهره وغلبته، مناويه وخليعه؛ ويجعل من عائد أمره، وخالف في طاعته سره وجهره، مجدل سيفه الماحق ومصرّوعه؛ ويعرفه من تأييده، وتسديده، كريمة فكريمه ورفيعة فرفيعة.

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم تعرف المسرات والبشائر، وأولاكم من فضله وطوله كل من ظاهر وأمن غامر، وآواكم من عدل هذا الأمر العظيم ورفقه إلى الركن الأرشد والظل الساتر - من حضرة مراکش حرسها الله ونحن نحمد الله تعالى على نعمه التي لا يحصيها العد، وقسمه التي لا يحيط بها الرسم والجد، ويقصر في العبارة عنها كل قول وإن يبلغ فيه المنتهى وبذل الجهد، ونسأله سبحانه توفيقاً إلى القيام بشكرها يؤيده التسديد والعضد، وعوناً على توفيقه الواجب من حقها يمترى به المزيد من فضله ويستنجز الوعد. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه.

وقد علمتم وفقكم الله وسددكم، وأهداكم إلى مصالحكم وأرشدكم، وأعانكم على الاعتصام بعروة الطاعة الوثقى وأنجدكم ما كانت عليه حالة الكافر الغادر، اللعين الخائن الخاسر، بقية الخثالة الغاوية وسُور الكفر الدائر، شقي ميورقة لعنه الله من الانكماش في جزيرته، والمصانعة بخلوص علانيته في الطاعة وسريته، والمغالطة بانعقاد عقيدته عن المشايعة والموالاة واستحكام بصيرته؛ وهو منطوٌّ على العداوة لله ورسوله، ومتنكبٌ طريق الحق وسواء سبيله، ومستسرٌّ بصدوده عن الجادة الواضحة وعدوله، مُبرأً للجُسر في الارتغاء، مترصدٌ لابتداء، ما يمكنه من طلب للفتنة وابتغاء، متريصٌ لدائرة السوء العائدة عليه فيها رامة من عناد وانتزاء، إلى أن استثار شفرة حتفه ويحث عن هلكه بظلفه، وتورط فيها أحاط به مكره السيء من عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه، وكفر بأنعم الله فذاق لباس جوعه وخوفه، ورام السمو إلى منال حكم الله برده خاسيئاً وصرفه؛ وتلك عادة الله الكريمة فيمن حاد أمره الذي اجتباه، لإحياء دينه، وارتضاه، لتمهيد شرعه وتمكينه، وحباه، من نصره المؤزر، وفتح الميسر، بغزيره وميئه؛ فلا ينبذ لمنابدته ناجم ولا يعزم على مقاطعته إلا اكتنفته المعاطب من شماله ويمينه، صنع من الله تعالى جميل أجرى به عوائده الجميلة له على أطرادها، وأدامها على متعرفها الكريم ومعتادها، وأظهر في كل تناول، ومقصد مزاول ومحاول، تضاعف نموها وازديادها، والحمد لله على منته الذي لا يفي الوسع بإحصائها وتعدادها.

ولما عَنَتَ للفاسق الفرصة، اغتتم بزعمه انتهازها، ولما مكنته الغرة، حاول برأيه البائس اقتناصها واحتيازها، وتطلب من أمانيه الكاذبة، وأراجيه الخائبة، تأتيها وانتجازها؛ فكذب الله أماله، وقلص أفياء القاصرة وظلاله، وقدّر في سعيه الخاسر، تلاشى أمره الدائر، واضمحلاله؛ فداخل أويأشاً ممن كان بيجاية ممن رق دينه، وضعف إيمانه ويقينه، وزان على قلبه شيطانه المضل وقرينه؛ فيسروا له تمهد صهوتها،

وأعانوه على تشتم ذروتها، ووصلوا بسببه الضعيف أسباب قهرها وغلبتها. ولما قر فيها قراره، وانتشر بها فساقه وفجاره، ووضح له من أمله الكذب في تملكها صبحه ونهاره، تعاوت إليه ذئاب الغارة وكلابها، واتصلت به أوغاد الفتنة وأوشابها، وتجمع له من أشباهه في الجهالة، وأعوانه في الضلالة، أوزاعٌ تمكَّنت بهم أسباب غرته وامتدت أطناها؛ فقوي طمعه في الاستيلاء على ذواتها، وسوَّلت له نفسه الخبيثة الاستحواذ على جهاتها، والتمكن من أرجائها وجنابها، وامتدت أطماعُ الكافر وآماله، وغرّه إملاء الله تعالى وإمهاله، وغطى على بصيرته العمياء جهله وضلاله؛ فتطوَّف على الجزائر ومليانة وأشير والقلعة وكرَّ منها إلى بجاية، وآب الخاسر الكافر وقد خاض هذه الجهات خوض المذل، واستباح حرمة أهلها، استباحة المستجَلِّ، وعركها عركَ الرحى بثفالها، دون مراقبة ذمة فيهم ولا إل، يأخذ أموالهم بغير حقها، ويصرِّفها في غير مستوجبها ومستحقها، ويحملهم من كلف المغارم، ومون الملائم، ما لا طاقة لهم بحملها وأوقها، يمضي أحكام الجور فيهم، ويبسط أشياعه الأخرسون إليهم أيدي تطاولهم وتعديهم، ويسومهم العسف والخسف يُراوهم ويغادهم، راكباً رأسه في الاغترار، منخدعاً بما أُملِي له من مدة الانجرار، غافلاً عن قوله سبحانه: {وسيعلم الكافرين لمن عقبى الدار}.

ولما استفزه بما تهيأ له ببجاية وجهاته الغربية طمعه، واستجره حرصه المؤذي وجشعه، ووعدته التملك لأقطارها، والاستيلاء على بواديا وأمصارها، ظنونه الخائبة وخدعه، قصد إلى قسنطينة كلاًها الله مؤملاً اختداع أهلها، ومقدراً نفوذ حيله في خترها وختلها، ومعملاً جهده، ومصرفاً مكره وكيده، فيما يصل حبله الواهي بحبلها؛ فألقى بصائر أهلها مستحكمة، وعقائدهم على التقوى منبرمة، وقتلهم على الطاعة الصحيحة، والموالة الخالصة الصريحة، مُلتئمة مُنتظمة. فخاب بحمد الله سعيه، وقال رأيه، وبدأ لأوليائه الأذلين فضيحتة عليها وخزيه؛ فداوم حصرها

لزاما، واستمطر من مساعيه المخفقة في خدعتها جهاما، وفي كل ذلك يُذيقه أهلها أعانهم الله جهاما، ويجرعونه من المذلة والإهانة كأسا رؤاما، ويقتلون من شرذمته القليلة، وجماعته القليلة، الجمل الجمّة فرادى وتؤاما. وألحّ في الإقامة عليها راضيا بصفقة خساره، مُدّرعا أثواب ذله وصغاره، متسربلا سراويل عاره وشناره، محتملا لما ناله من فلّ غزب أرداله الأخسرين وأغماره.

وكنا وفقكم الله ويسركم لما يرضاه عندما أنهي إلينا أمره، وتقرر لدينا خدعته بيجاية وغدره، نظرنا في إغاثة المسلمين الذين تحكم فيهم جورهم، واستطال عليهم قهره وقصره، وأخذنا في ذلك بواجب الاجتهاد، من التأهب والاستعداد، والنظر في كل ما يتمكن به أسباب الجهاد، متيقنين أن الله تعالى لمن حاد أمره وعند عن سبيله بالمرصاد، وأن معونته الربانية، وتيسيراته الإلهية، تغني عن العدد والأعداد، وتقوم مقام الكتائب والأجناد؛ لكننا أخذنا في ذلك بمتعين الحزم جريا على المعتاد، واثقين بعون الله وتأنيده، مستنجزين لصادق وعوده، متوكلين عليه سبحانه في قريب التناول وبعيده، متطلعين منه سبحانه عوائد توفيقه وتسديده؛ فوجها من الطلبة أعانهم الله من نظر في أمر الأسطول المبارك وإعداده، وتهيته بها يصلحه من عدده وأعداده؛ وأصرناهم بالانحياز في ذلك في أقرب ما يمكن من أوقات الزمان وآماده، وجردنا من الموحدين أعزهم الله عسكريا منصورا، وجمعا مباركا موفورا، وقدمنا عليهم من الطلبة أعزهم الله من أنهضناه لتدبيره، وعصبنا به النظر في أموره، ووصيناه بتقوى الله تعالى في قليل أمر وكثيره، وأمرناه بالوقوف عند مراسم السنّة وحدودها، والانتهاء إلى روابطها المحكمة وعهودها، والتقيد بأحكام السياسة المصلحة وقيودها، وأن يبدلوا الأمان لأهل تلكم الجهات حاضرهم وبآذيمهم، ويقدموا الإنذار والإعذار بين أيديهم، ويشيدوا بها إشادة يتساوى في العلم بها قاصيهم ودانيهم، إقامة للحجة عليهم، وأخذنا بالعدل والرفق فيهم؛ فنفذوا على

بركة الله ويمته، وتوفيقه وعونه، ونصرُ الله تعالى يعضدهم، وعونه سبحانه ينجدهم، وتوفيقه جلت قدرته يسددهم ويرشدهم، ومخايل التيسير والتسهيل تبشرهم بنجاح قصدهم وتعددهم.

وفي خلال هذه المحاولات، وأثناء هذه المآخذ السعيدة والمولات، طال الأمد على الشقي فازداد تهوُّراً وخبالاً، وجهل ما أوقعته الشقوة فيه أملاً، ليزداد إثماً وإمهالاً؛ فطلب الطعن وحده والجهاد، وطفق يتحلل القرى والبلاد، ويمجوس الرُبى والوهاد، ويعم بظلمه البلاء والعناد، جرأةً على الله وكفراً به، وخرياً على عادته في الجور ومذهبه، وظناً كذوباً دلاه بالغرور في مطلبه. وكان من صنع الله لأمره العزيز من حيث لا يحتسب، وفتح الذي لا يعترى إلى القوة البشرية ولا ينتسب، ونصره العزيز الذي لا ينال بحول ولا قوة ولا يكتسب، أن ألقى على قسطنطينة كلاًها الله عصا تسياره، ولج في مضايقته لها وحصاره، وأطاع في الطمع في مغالبتها أم مُغريه المُضِلَّ وغراه، وشغل بها عما كان يستروح إليه من هربه إلى جزيرته المستباحة وقراره، حتى دهمه أمرُ الله الذي لا ينجو منه هارب، ولا يعُزُّه مغالب، وهو مستغرقٌ في سِنَةِ غفلته واغتراره، باقياً عليها طول ليله ونهاره.

واستمر الموحدون أعزهم الله على سيرهم المبرور، وسعيهم الصالح المشكور، وقصدهم الموقوف على رضا الله تعالى المنصور، إلى أن وصلوا مليانة أول البلاد الشرقية؛ فألقى أهلها وقبائلها إليهم بالمقاليد، ولاذوا بالاعتصام بهذا الأمر السعيد، وتبرءوا إلى الله تعالى من الفرقة الغوية والشيطان المريد، وألظوا بالتاب والاستغفار، واستمطروا من سحب العفو والإقالة كل مدار، واعتذروا أنهم كانوا في قبضة القهر وزُبقة السار؛ فقبلوا متائبهم، ووصلوا بأسباب الصفح والقبول أسبابهم، وخضوعهم من لزوم جادة النجاة، والتزام الطاعة الصحيحة والموالة، على ما يُصلح حالهم،

وَيُسَعِدُ مَالَهُمْ. وَفَرَّ الْأَشْقِيَاءَ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَسَارُوا مُنْجَرِّينَ إِلَى مَصَارِعَ حَتُوفِهِمْ؛ فَقَتَلَهُمُ الْقَبَائِلُ الَّذِينَ عَلَى طَرِيقِهِمْ بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَأَتَوْا الْمُوَحِّدِينَ أَعْزَهُمُ اللَّهُ بِمَنْ أَخَّرَهُ الْحَيْنَ مِنْهُمْ فِي رِبْقَةِ الْإِسَارِ الْخَاضِعِ الذَّلِيلِ، وَلَمْ يَقْلُتْ أَحَدٌ مِنْ عَدَدِهِمُ التَّافَهُ الْحَقِيرَ الْقَلِيلَ، وَاقْتَدَى الرِّعَايَا وَفَقَهُمُ اللَّهُ بِهَذَا الْفِعْلِ السَّيِّدِ، وَأَشْعَرُوا كُلَّ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءَ شِعَارَ التَّثْقِيفِ وَالتَّصْفِيدِ، وَجَاءُوا بِهِمْ إِلَى الْمُوَحِّدِينَ أَعْزَهُمُ اللَّهُ مُقَوِّدِينَ بِأَزْمَةِ الْمَهَانَةِ، مَسْوَاقِينَ بِنَسْوَعِ الْمَذَلَّةِ وَالْإِسْتِكَانَةِ.

وَكَانَ طَلَبَةُ الْأَسْطُولِ الْمَظْفَرِ اجْتَمَعُوا بِالْمُوَحِّدِينَ أَعْزَهُمُ اللَّهُ بِتَلَمَّسَانِ كَلَأَهَا اللَّهُ وَرَسَمُوا لَهُمْ أَنْ يَكُونَ اجْتِمَاعُهُمْ بِالْجَزَائِرِ كَلَأَهَا اللَّهُ؛ فَسَبَقَتْ الْأَسَاطِيلُ الْمُؤَيَّدَةُ إِلَيْهَا، وَأَطْلَتْ بِبَرَكَةِ اللَّهِ وَبِمَنْ هَذَا الْأَمْرُ الْعَزِيزُ عَلَيْهَا؛ فَتَيْسَرُ لَهُمْ مَرَامُهَا، وَانْفِرَجَ لِلْحَيْنِ لِبَاهِمَا، وَتَجَلَّى بِأَنْوَارِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْعَلِيَّةِ غَيْبُهَا الدَّاجِي وَظَلَامُهَا، وَبَادَرَ أَهْلُهَا إِلَى فَتْحِ أَبْوَابِهَا، وَالْقَبْضِ عَلَى مَنْ أَمَكْنَهُمْ مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَوْبَاشِ الضَّلَالَةِ وَأَوْشَابِهَا، وَبَانَ لِلشَّرْذِمَةِ اللَّعِينَةِ سُوءُ مَصِيرِهَا وَمَآبِهَا، وَكَانَ مِمَّنْ حَصَلَ فِي ثِقَافِ الْقَهْرِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ عُنُقِهِ الذَّلِيلَةِ رِبْقَةُ الْأَسْرِ، ابْنُ عِمِّ الشَّقِيِّ الْغَوِيِّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ شَيَاطِينِهِ الرَّجَاءِ، وَجَمَلَةٌ مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِهِ الزَّعَمَاءِ مَكَّنَ اللَّهُ مِنْ كَافَتِهِمْ، وَمَنْ بَاسْتِثْصَالِ شَأْفَتِهِمْ، بِمَنْه.

وَعَرَّفَهُمْ أَشْيَاخَ الْجَزَائِرِ وَأَعْيَانُهَا أَنَّ الْأَشْقِيَاءَ الَّذِينَ بِبِجَايَةِ عَازِمُونَ عَلَى الْبَعْثَةِ بِالْمُوَحِّدِينَ أَعْزَهُمُ اللَّهُ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ إِلَى مَيُورَقَةٍ فَتَحَهَا اللَّهُ فَسَارَعُوا بِالتَّوَجُّهِ نَحْوَهَا خَوْفًا مِمَّا ذَكَرَ لَهُمْ، وَمِبَادَرَةً أَنْ يَتِمَّ الْأَشْقِيَاءَ فِي ذَلِكَ أَمْلُهُمْ، وَيَعْمَلُوا مَكَائِدَهُمْ فِيهِ وَحِيلَهُمْ؛ فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهَا أَلْفَوْا أَخِي الشَّقِيِّ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا قَدْ أَخَذُوا فِيهَا ظَهْرَ لَهَا، بِالْاجْتِهَادِ، وَبِالْغَا فِي الْإِحْتِيَاطِ وَالِاسْتِعْدَادِ؛ فَضَرَبَا أَخْبِيَّتَهُمَا بِخَارِجِهَا، وَرَتَّبَا رُتْبَتَهُمَا عَلَى مَوَاجِئِهَا، وَكَتَبَا كِتَابَتَهُمَا الْفَلِيلَةَ أَثْنَاءَ أَنْقَابِهَا وَمَدَارِجِهَا، وَهِيَهَاتُ أَنْ يَعْصَمَ مِنْ

أمر الله عاصم، أو يروم مغالته رائم، أو يعازه معارز أو يقاومه مقاوم؛ فهو أمر الله المنجد على كل محارب، المظهر على كل مطالب ومغالب، الموعود بالاستيلاء على ما روي لبنينا عليه السلام من المشارق والمغارب. فلما قرب الأسطول المبارك منها تقدم من طلبته وفقهم الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي إسحاق أكرمه الله فخاطب أهل البلد وفقهم الله بما بسط نفوسهم، ومكّن تأسيسهم، وعرفهم بالغرض الجميل فيهم، وما كان من بذل الأمان لجميعهم؛ ورسم لهم أن يدخلوا ديارهم، ويظهروا في الطاعة آثارهم؛ فتأبّت إليهم بصائرهم، واستجكمت على التقوى نياتهم وسرائرهم، وخلصت في الإيمان والإيقان طوياتهم وضائرتهم، وألقوا بيد المستسلم المبادر، وناذبوا الأشقياء الميورقين منابذة المباحد المنافر، وتبرءوا إلى الله تعالى وإلى أولياء أمره العزيز من موالاة أمره الغادر الكافر.

وكانت للكفر ببيجاية شوكة اغتروا بها، وخويلة تحيّلوا التمويه على الغزاة أنجدهم الله بسببها؛ فبرز الغزاة أعانهم إليهم واستعانوا بالله سبحانه عليهم، وناشبوهم القتال أشد مناشبة، ودافعوهم بأتم المدافعة والمحاربة، وصدقوا الله تعالى فيما قابلهم به من مطاعنة ومضاربة؛ فوالى الفسقة عليهم الدفعات، وواتروا الحملات الصادقة والشدات؛ فكان أولياء الله ضبراء أنجادا، كراما عند اللقاء مجادا، فصدّقوهم المكافحة قراعا وجلادا، واحتسبوا جهادهم ذخرا عند الله وعتادا؛ فنصر الله ناصره، وقطع أواخي الكفر وأواصره؛ وانهمز الأشقياء أخابهم الله لا يلوون على من تأخر، ولا يأوون لمن تعذر، ولا يرثون لمن عجز عن سيرهم الخبيث أو قصر، يرومون للحاق بغويهم، ويأملون الاجتماع بشقيهم. وكان في هذه الحملة اللثيمة، والشرذمة الذميمة، أخوا الفاسق المذكوران؛ فقرا فيمن فر من أغويائهم، وطارا على وجوههم مع من انهمز من أوليائهم الكفرة الفجرة وأشقيائهم، والله يستأصل جميعهم، ويمحو بأسياف هذا الأمر العزيز تابعهم ومتبوعهم، بمنه.

وبادر الغزاة أعانهم الله إلى البلد فدخلوه، واحتوا على ما بقي فيه من الكفرة وتملكوه، دون عهد يمنع منهم، ولا عقد يحجر عنهم، وسارعوا إلى الطلبة أعزهم الله والموحدين الذين كانوا معهم وفقهم الله فألفوهم بحمد الله على أحسن أحوال السلامة، متعرفين من الله تعالى كل نعمة وكرامة، مخولين من عونه وصونه كل عصمة مستصحبة وكلاءة مستدامة، وحصل في أيدي الموحدين أعزهم الله ببجاية الضالّ الغوي المسمى رشيدًا عظيم الأشقياء ومديرًا أمرهم، وزعيم طغيانهم وكفرهم، وموقد نار فتنتهم وشرهم. وألقوا أسطول الخائن بجملته، بجميع ما كان تأهب له من أهبة وعُدته؛ فنقله الله أوليائه، وضاعف قبلكم بذلك نعماءه، وعرفهم مزيد فضله عندهم ونمائه.

ولما سهل الله لهم استعادة بجاية، وفتحها، وأطلع تعالى بأنوار هذا الأمر العزيز فجرها وصبحها، بادروا بإعلام الطلبة الغزاة أعزهم الله بهذا النبأ السار، واستعجلوا بتعريفهم بما منح الله فيه من البشر والمसार؛ فلقيتهم مخاطبتهم بذلك وقد انتهوا إلى أوائل متيجة مهدها الله فطيروا إلينا بخطابهم المذكور، وأردفوه بكتابهم معلمين بما لقوه في محاولتهم من التبشير والتيسير، وأوضحوا فيه ما عرفناكم به من صنع الله وتسهيله، وما سناه سبحانه من كريم الفتح وجليله، ووالاه جلت قدرته من متابع منه وموصوله.

وبقي الخائن الخاسر بجهة قسنطينة حاطها الله مسلوبًا محروبًا، مفلولًا منكوبًا، قد أوبقته ذنوبه وجرائره، وخذله مُعينُه وناصره، وأسلمته إلى الجين المتاح، والموت المستأصل المجتاح، أقاربه وعشائره، وانبهمت عليه خزاه الله أوائل أمدّه الدائر وأواخره. وكأن قد أمكن الله منه أسيرًا أو قتيلاً، إذ لا يجد إلى مفر سبيلا، ولا يستطيع إلى نجاة تسبُّبًا ووصولًا؛ والله يعجل به إلى ما أعد له من عذابه، ويصليه أليم

نكّاله وعقابه، يمينه وكرمه.

وعرفناكم أكرمكم الله بهذه البشائر، والصنع الكريم الباهر، والفتح المتناصر المتظاهر، لتأخذوا من المسرة فيه بأوفى نصيب، وتفيضوا في شكر موليه بسهم مصيب، وتوالوا حمده تعالى على ما أرى الأعداء من هول ماحق ويوم عصيب. فاستديموا النعمة في ذلك بشكرها، ووفوها واجب التحدث بها ونشرها، وأشيّدوا بها في أرجائكم وأنظاركم، وخاطبوا بنسخها إلى بواديكم وأقطارها، واستشعروا حمد الله تعالى وشكره في إعلانكم وإسراركم، ومهدوا بالانقياد لأمر الله تعالى مهّد استيطانكم في ظل أمانته وقراركم؛ والله يوفقكم من ذلك إلا يقتضي نجاح إيرادكم وإصداركم، بيمينه وكرمه، لا رب غيره. والسلام العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتب في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

الرسالة الثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بمراكبش أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، وأوزعهم شكرًا يكون كفاءً لمن به وأولاه، وأمتع أسماعكم بمبهجات مسرات هذا الأمر العزيز وبشراه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي صدق وعوده، ونصر أوليائه وعبيده؛ وأعز أنصار الحق وجنوده؛ وأخزى لعزة أمره القاهر، وحزبه المفلح الظاهر، غدد الباطل وعديده؛ وسنّى لأمره العظيم، من فتحه العميم، ومنحه الجسيم، قشيب صنعه الكريم، وجدّيته، وقرن بالتأييد والظفر، والعون المصاحب والنصر المؤزر، عزائمه وقصوده؛ وعرفه في كل محاولة، وأثناء ما يزيغه من مبادرة ومطاوله، متعالم تيسيره ومعهوده؛ وكتب ببطشته المبيدة، وغلبة دعوته المبدئية في نصرة الدين المعيدة، مناويه وعنيده؛ وخضد بها أولاه من إعلاء، وآتاه من بسطة واستيلاء، شوكة مُعاندته وأعدم وجوده؛ وأصلاه في أولاه وأخراه عذابًا ضرم له وقوده، وأعد له في سواء الجحيم، أليم عقابه العظيم، وشديده؛ وصيره عبرة للمعتبرين، وعظةً للمدكرين المستبصرين، يستفيق بها من رام إنكار هذا الأمر العزيز وجنوده، ويقوم برهائنا قاطعًا على عناية الله به، وصلته أسباب التأيد والتمكين بسببه، فيكفي ترديد المقال فيه وتعديده، ويستيقن المؤمنون الموفقون أن الله تعالى قد

أنار سعوده، وأعلى مقاماته وحدوده، وضاعف لديه طارف إظهاره وتليده، وقدّر بقاءه منصوبًا مظفرًا إلى قيام الساعة وخلوده؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أظهر الله برسالته الحنيفة تنزيهه وتوحيده، وعرف الكافة بنبوته العامة تقديسه وتمجيده؛ وخصه بأن يشفعه في المحشر، ويبعثه يوم العرض الأكبر، شريف المقام ومحموده؛ وعم بملته الرافعة للملئ، ودعوته الناسخة للشرائع والنحل، أبيض البشّر وأسوده، وسيده ومسوده؛ وعمر بوجوبها وإلزامها، واطرادها إلى يوم الدين وانتظامها، تهائم العالم ونجوده؛ ووعدته وعَدَ الحق بلوغ مُلك أُمته روابي المعمور المروي له ووهوده؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي أقام الله بنوره منار الإسلام وعموده؛ وجعله محيي شرعه القديم ومُعيد، ومأحي الظلال ومُبيد، ومُنيل الدين الحق وجوده الأتم ومفيده، وقضى أن تظهر دعوته العلية، وكلمته الهادية المهدية، تشريد الباطل وتبديده، وإعادة الإسلام بعد غربته الثانية وتجريده؛ وعن خليفته الأرضي، وصاحبه الأتقى الأهدى، سيدنا أمير المؤمنين الذي أورثه الله خلافته وعهوده، واختاره لأن يتم تقعيد أمره العلي وتمهيده؛ فافتضى آثاره الكريمة وحدوده، ونهض بأمر الله باذلاً في تمشية حده وبالعَا في نصرته مجهوده، حتى انتشرت في الآفاق كلمته، وعمت هدايته المرشدة ودعوته، قريب المعمور وبعيده؛ والدعاء لنجله الطاهر، وفرعه الطيب المحائد والعناصر، سيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين الذي ارتضاه لمقامه وكسائه بروذه، وأحلّه من اصطفائه واجتئاته سعيد مكانه الأرفع وحميده؛ وخباه في تميم أمره، وتمكينه وشد أزره، رشيد الرأي وسديده، بنصرٍ يصحب راياته المظفرة وبنوده، وتوفيقٍ يقتضي إمداده بالمعونة الإلهية وتأييده، ويستنجز له من وعد الله الصادق حاضره وعتيده، ويمتري من عميم فضله، وجسيم طولله، مضاعف إحسانه ومزيده، ويُديم إعلاء أمره العزيز وصعوده، ما اتصلت الأيام، وتعاقبت

الشهور والأعوام، متراخي الزمن الأطول ومبديده.

وهذا كتابنا إليكم - كتب الله لكم من بشائر هذا الأمر العزيز أسر مسموع، وقاد إليكم بتواترها، وتقاطرها، خير مجموع، وعرفكم بورودها، ووفودها، عوارف فضله الأتم غير مقطوع، ولا ممنوع، وأوزعكم من شكر موليتها، وحمد مُسببها سبحانه ومُسنيها، ما يثبت لكم في صحف القبول أروع عمل صالح ودعاء مرفوع من منزل الموحدين أعزهم الله - بظاهر قابس حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه. ونحن نشكره تعالى على ما منح من منن ومواهب، أعادت من الدين بهذه الأرجاء كل ذاهب، وأحلت الحق في مقاماته العلية المراتب، واسترجعت ما نهته يد الناهب الغاصب، وجدّلت كل معابد لأمر الله ومناصب، وأحاقت المكر السيء بالمحارب له والمصالب، وغادرت العباق المراق كأمس الذاهب، وأعلت الكلمة المهدية في سماء عزها السامية المراقب، وأظهرت أولياءها المؤيدين وأنصارها المكافحين عن الدين، في مظاهر النصر والتمكين، كالنجوم الثواقب، وأجرتهم على معهودهم من النصر المراكب، والفتح المصاحب، وعرفتهم في كافة مأخذهم عوارف اليسر الراهن والعون الراتب.

وإلى ذلكم وفقكم الله وسددكم، وأعانكم على شكر نعماء وأنجدكم فقد علمتم. ما كان من الأشقياء الغزيين، وإخوانهم في الضلالة الميورقيين، من التسحب على أرجاء هذه الجهات الأفريقية وأكتافها، وشنهم الغارات بأوساطها وأطرافها، وإجماعهم على اكتساح زروعها في هذا العام وانتسافها، وما سولته لهم أمانيتهم الكواذب من قطعها بالخرابة وإضعافها؛ فحال بينهم وبين ما أملوه من ذلك المنع الإلهي والصد، والوصول إليها في ذلك الوقت الذي كيفه السعد، والأوان الذي جرى على تقديره الحزم والجِد، وخلص لله تعالى في إعلاء كلمته، وإطفاء متوقد

شعلة الباطل وحيرته، النية الصادقة والقصد. وكان من صنع الله العجيب، أن انتهينا إليها عند بلوغ زرعها إلى حال الكمال والطيب؛ فحماء الله من اختطافهم، وصانه على أربابه من اعتدائهم وإتلافهم، وصيره رزقا واسعا لأحزابه المؤيدين موزنا بجمعهم وإتلافهم؛ وكانت خيبة الأشقياء منه سببا لتشتتهم واختلافهم، وصاروا إلى جوع أشقوا به على تلفهم وانجعافهم.

وكان هؤلاء الأشقياء المتمردون، والكفرة المنخلعون، من ثوب الإسلام المتجردون، والجنباء المجرون بالخلاء وهم منفردون، والأوياش المتظافرون، على الحراية المتعاقدون، قد استترلهم الشيطان وأغواهم، واستجرهم الطمع المهلك واستهواهم، وصور لهم أن لا قانع يجمعهم فأضلهم وأرداهم. ولما أذن الله تعالى بهلكهم، وقضى بقهرهم على أيدي أوليائه المظفرين وعركهم، وإراحة هذه الجهات مما دهاها من زورهم وإفكهم، عزم الموحدون أعزهم الله على النهوض إليهم إلى محال قرارهم، وغزوهم في عقر ديارهم، واستعانوا بالله تعالى على إبادتهم ومحو آثارهم؛ فنهضوا من تونس كلاًها الله ودلائل نجاحهم صادقة، وأعلامهم بالفتح والتأييد خافقة، والنفوس بنصر الله وعونه واثقة، وتيسيراته سبحانه مضايقة للرجاء في فضله وموافقة. ولم يكن التفات في هذه الحركة السعيدة إلى عدد وعُدّة، ولا استطهار بقوة ولا شدة، ولا تعويل على ما تسكن إليه النفوس البشرية من ركون إلى ما عند الأجناد، وأبناء الطعان والجلاد، من بأس ونجدة، بل توحد الاتكال فيها على الله وحده، واستحكمت النية الخالصة في تطلب ما عنده، وتحققت اليقينية بأن الله سبحانه متم نوره ومنجز وعده، فحقق الله تعالى الظنون. وأراى من عجائب تسهيلات الضرور المختلفة والفنون، وأحل بمن حاد عن أمره العزيز، وخلع ربقة من الاعتصام بكهف طاعته الحريز، الختوف المخترمة والمنون، وأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

وعندما أحس الأشقياء بحركة أهل التوحيد أعزهم الله إليهم، وإطلال راياتهم المظفرة عليهم، وأن أخذة الله الرابية قد أتتهم من ورائهم، ومن بين أيديهم، تحركوا من مواضعهم مخيلين بزورهم، منجرين بحبل غرورهم، منقادين بريق الصغار إلى مصارع تدميرهم، وقدروا فكان حتفهم بحول الله في تقديرهم، وتخيّلوا أن كل بيضاء شحمة وكل سوداء ثمرة، وتوهّموا أن تخيّلاتهم الكاذبة تنفعهم كل مرة، وانخدعوا بما أُملي لهم ليزدادوا إثماً من إهمال وتبرة؛ فسقط العشاء بهم على سرحان، وقادهم الحين المتاح لهم بأرسان. وأشطان، وعوّضوا بما قدروه من انتهاب مقر الجلاد ومر الطعان، وأعمال ظبى القواضب فيهم وعوامل المُرّان؛ وصارت ضروح أشلائهم الممزقة، وأوصالهم المفرقة، حواصل الطيور وبطون الذؤبان.

ولما وصل الموحدون أعزهم الله إلى القيروان كالأها الله رأوا أن يقدموا الإنذار إليهم، ويقيموا الحجة عليهم، ويسلكوا على سنن الشرع في تقرير الدعوة إلى الله تعالى وإلى رسوله وبما جاء به لديهم؛ فكفروا نعمة الرفق بهم وغمطوها، وازدروا المنّة بذلك عليهم وسخطوها، وجهلوا قدر المنحة الميسرة لهم فلم يتلقوها بالقبول ويرتبطوها، واعتقلوا الرسول جرياً على عادة كفرهم، واستمرازا على معهود خيانتهم وغدرهم، وذهاباً إلى أخفى حالهم المتبرة وأمرهم، ولم يعلموا أن عصا التوحيد تلقف ما يكون من سحرهم، وأن الثقة بوعد الله قد أثلجت صدور المؤمنين بكيّهم وقهرهم؛ وكانوا عند احتلال الموحدين أعزهم الله بالقيروان، بجهاث وادي ران، وحلوا من هنالك على عادتهم في المخادعة والروغان، وقد أعمى بصائرهم وأبصارهم ما غطى على قلوبهم من الحين وران؛ وكانوا من قبل يموهون على أتباعهم بالمبادرة للنزال، والمسابقة للنضال، ويخدعون الضعفاء ببوارق الزور والخلب والخيال؛ فعردوا تعريد الرئال عن الرئال، وتاهوا في جبرة الجزع والهلع بين لابتى الجنوب والشمال. ثم قصدوا قفصة أعادها الله مخيلين باللقاء عندها، ومشيعين

أنهم يقارعون الموحدين أعانهم الله إن قصدوا قصدها؛ فاقتفى الموحدون أعزهم الله آثارهم إلى مقربة منها، وأخذوا على طريق لم يخطر ببال الأشقياء السلوك عليها، ولا احتلج في صدورهم اعتداءً إليها؛ فسقط في أيديهم، واختلت أراؤهم واضمحلت دعائهم، وتوفرت على الهرب إلى قابس كالأها الله همهم الفسلة ودواعيهم، والأقدار تسوقهم مصارعهم أحت سوق، وتعوقهم على الفرار بكل عوق، والشیطان يخيل لهم الاستقلال بما لا قبل لهم به ولا طوق، حتى انتهى بهم السير إلى حمة مطماطة حيث حُمَّ جمامهم، وتصرمت أيامهم، وتزلزلت أقدامهم، وملأت الأباطح والربى أجسامهم المعفرة وهامهم؛ فألقوا بها حرائمهم، واستصرخوا صعاليك سُلیم وذؤبانهم، وكل من وافقهم على ضلالتهم من الأعراب وأعانهم، من أهل الباطل وأعوانهم؛ واستمطر بعضهم من نصرة بعض جهاما، وهز كل منهم عليه سبحانه وإقداما؛ فعادت بعون الله بسالتهم جُبْنًا وإقدامهم إجحاما.

واستمر بالموحدين أعزهم الله مسيرهم المبارك في اتباعهم إلى مقربة من الحمة المذكورة فضربوا أبنيتهم، وياتوا هنالك ليلتهم، وجددوا في جهاد أعداء الله نيتهم، وصدّقوا عزمهم، وأصبحوا على بركة الله وعونه وقد استعدوا للمكافحة وتأهبوا، واستلموا للمصاصة وتلبّوا، وترتبوا ترتبا أقرَّ عيون المسلمين وتكتبوا، وساروا إلى عدوهم والتوفيق يسعدهم، والعون الإلهي ينجدهم، والاستسلام إلى الله تعالى يرشدهم ويسددهم، وصرف الحول والقوة إليه سبحانه يُعينهم ويؤيدهم، وأعداء الله قد أطغاهم الانجرار، وثبطهم لهلكتهم الاغترار، وصرفهم القدر عما كانوا معولين عليه من الإباق والفرار؛ فاحتفلوا في إظهار جمعهم الفليل وترتيب حزيم الحقير الذليل، واعتمدوا على ما أُرِدهم من التمويه والتخيل، وهيهات أن تثبت عند الحقائق من خفريات الأباطيل! وعندما ناوشتهم سرعان الأجناد، وشاهدوا ما أذهلهم من صدق القراع والجلاد، وتبينوا ما أجمع أولياء الله عليه من الحرص على

الشهادة والرغبة في الجهاد، تزلزلوا تزلزل الذئاب من الآساد، وأنى تستقر لسطوة الليوث الغُلب قلوب النقاد؛ فلاذوا بالفرار، واستسلموا لحكم الشفار، وتخللوا النجاة في تولية الأدبار؛ فأتبعهم أولياء الله يقتلونهم في كل غور ونجد، ويجدلونهم في كل ربوة ووهد، ويصرعونهم بحيث ما تيمموا من متحى وقصد، ولاقت ريحهم إعصارا، وصار نبعهم بزعمهم مرثا وعفارا، وما زادتهم جوعهم المضللة إلا تبارا، وعاد ما قدروه من نجاة هلكة وما أمّلوه من ربح خسارا.

واستمر الموحدون أعزهم الله على اتباعهم سحابة يومهم وليلتهم، وسبق العدد الجم من رءوس أبطالهم وخيلهم، والناجون منهم بجريعة الذقن وهُم الأفلون يدعون بشورهم وويلهم، قد أرتهم الأحوال حقائقها، وأذهبت عنهم الأيام مخارقها، وأذاقتهم محنها الكريمة وبوائقها، وعرفتهم مذاهبها في إهلاك من عاند أمر الله وطرائقها. وما لهم بعد هذا الأخذ الوبيل وزر، ولا عين تبقى لهم بفضل الله ولا أثر، ولا ضرْم يكون لحرابتهم بعد هذا الإثخان فيهم ولا شرر، بعون الله ومته. والطلب لا يني في أثر من بقي من حثالتهم، واستيصال من اغتر بجهالتهم، وانخدع بسراب محالهم وزور ضلالتهم. وأمر هذا السؤر النذر منهم حد يسير، وتطهير هذه الأرجاء من غيرات أدناسهم بحول الله غير عسير؛ فلم تُبق هذه الحركة منهم بحول الله إلا كل منحوب الفؤاد حسير.

وفي صبيحة الليلة التي أذل الله في يومها الأشقياء، وأعز فيها الأولياء. ومنحهم الظفر عليهم والاستيلاء، وهو يوم الخميس العاشر من شهر تاريخه. وصل إلى قابس كلاًها الله فلحين الأطلال عليها خرج أهلها راغبين في الأمن والأمان، مُعلنين بكلمة التوحيد والإيمان، مُتطلبين لعوائد هذا الأمر العظيم في العفو والإحسان؛ فشملمهم من الرفق والأمان ما أقرّ قرارهم، وعمّر بالسكون والهدون ديارهم،

واستقبلوا في ظل الدعة والعدل أيامهم المستجدة وأعمارهم.

وكان بقابس بنو الشقي قراقوش وأهله، وجملة ما قمشه انتهابه وضمه حبله؛ ومعهم جماعة من أوباشه الذين يعتمد عليهم، ولا يثق بأهله وولده وماله إلا إليهم؛ فتحصنوا بقصبة بها منيعة الجواب، سامية المراقب، مستصعبة على المنازل لها والمحارب، وأجمعوا على الاستماتة فيها؛ فأحدثت بهم أجناد الله من جميع جهاتها ونواحيها واستزلوا منها على الأمن في رقابهم، واستقصاء كافة أموالهم وأسلابهم، واسترقاق نسائهم وأبنائهم وعيال من شهد الواقعة من مقتولهم وهراهم. وحصل أهل قراقوش وبنوه وماله غنى لأولياء الله ونفلاً. وملكا لطائفة الحق وخولا.

وهذه المدينة العتيقة روح هذه الجهات الإفريقية ومعناها، وقفلها الذي يحمي حوزتها ويكف عداها، ومنعتها التي لا يتهيا لمفسد أن يتخطاها إلى أذيتها ويتعدها، وما تمشي للإغزار أبادهم الله ما تمشى إلا بملكها، ولا توصلوا إلى ما اغترهم إلا بانشار سلكها. وهي جامعة مع هذه الفوائد الجمّة، والمنافع الكاملة المستمّة محاسن يروق الناظرين رواؤها وتملاً الأعين بهجتها المؤنقة ولألاؤها، يتفجر خلالها الماء العذب، ويتلقى بها الركاب والركب، وتحقق بأرجائها الجنات الألفاف والحدائق الغلب، وتجتمع فيها أصناف الثمر المتخير والحب. وقد طهرها الله بانتظامها في سلك التوحيد، وإعادتها إلى هذا الأمر السعيد، واستنقاذها من لص الفتنة الغوي وشيطانها المريد. وكان من صنع الله الذي لم يدر في خلد، ولا يسببه إلا التوكل على الواحد الصمد، أن لم يفقد من الموحدين أعزهم الله أحد، ولا انتقص لهم بفضل الله عدد، ومن خصائص توطد هذا الأمر العزيز على الأطوار وتجده، وعلامات تمكنه مع تعاقب الأدوار وتأكده، وتنام ما وعد به من دوامه إلى يوم الدين وتمهده، أن ذكر الله قتال الطوائف التي قوتلت في بدء الإسلام، وقام عليهم في دعوة أمر الإمام،

وَهُمُ الْفُرْسُ الْمُجُوسُ وَالْفَسَقَةُ أَهْلُ اللَّثَامِ، وَفِي ذَلِكَ بَصَائِرُ لِأُولِي الْأَحْلَامِ، وَاعْتِبَارٌ
يَبَيِّنُ لِدَوِيِّ الْأَلْبَابِ الْمُدْرَكَةِ وَالْأَفْهَامِ.

وَعَرَفْنَاكُمْ وَفَقَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا السَّرُورِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْفَتْحِ النَّاطِمِ لِأَسْبَابِ الْخَيْرِ الْجَامِعِ،
وَالظَّفَرِ الْمُرَوِّي لِغُلُلِ النُّفُوسِ النَّاقِعِ، لِتَأْخُذُوا مِنَ الْحِظِّ فِيهِ بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ، وَتَضَرَّبُوا
فِي الْمِشَارَكَةِ بِالِابْتِهَاجِ فَالْمَسْرَةِ بِسَهْمِ مَصِيبٍ، وَتَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَرَى الْأَعْدَاءَ
مِنْ هَوْلٍ مَاحِقٍ وَيَوْمٍ عَصِيبٍ. فَاسْتَقْبِلُوا وَفَقَّكُمْ اللَّهُ هَذِهِ النِّعَمَ بِوَاجِبِ شُكْرِهَا،
وَوَفَوْهَا حَقَّ بَثِّهَا وَنَشْرِهَا، وَافْعَمُوا أَرْجَاءَكُمْ وَنَوَاحِيَكُمْ بِرِيَاهَا الْعَبْقَ وَنَثَرَهَا،
وَأَجِيلُوا فِي نَوَادِيكُمْ وَمَحَاضِرِكُمْ، وَبَيْنَ بَوَادِيكُمْ وَحَوَاضِرِكُمْ، قَدَاحِ التَّحَدُّثِ بِهَا
وَذِكْرِهَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِنِعْمِهِ، الْمُتَحَدِّثِينَ
بِآلَائِهِ وَقَسَمِهِ، الْمُسْتَدْعِينَ بِحَمْدِهِ سُبْحَانَهُ عَوَارِفِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ؛ لَا
رَبَّ غَيْرِهِ. وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

وَنُقَدِّدُ مِنْ نَفْزَاوَةِ كَلَامِهَا اللَّهُ فِي الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ الْمَكْرَمِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ
وَخَمْسِمِائَةٍ.

الرسالة الحادية والثلاثون

وهي أيضا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن مخشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بتونس أدام الله كرامتهم بتقواه، وأعانهم على شكر ما منحه من فضله وآتاه، وتابع لهم المسرات بترادف فتوح هذا الأمر العزيز وبشراه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي وافر لهذه الدعوة العلية فتوحه السنية ووالاها، وقرب لها الآمال القصية وأدناها؛ وتم عندها نعمه الجمة ووفائها؛ وأجزل عطاياها من منحه الجسيمة وسهاها؛ وسهل لها مراماتها على أفضل ما يتهنأ متخير أن يكون وسناها؛ وقضى أن يكون في إعلاء كلمته، وإذلال أتباع الباطل وشيعته، قصدها المحتسب ومسعاها؛ وقرن بالتوفيق والتأييد، وانتظام الأغراض على أتم مراد المريد. مبادي مآخذها الميمنة وعقباها؛ وجعل إلى المآل الميسر، والمصير المضلل المدمر، مغبة مشاقيها وعداها، وأذل فتتها الخاسرة بأيدي أوليائه المريدين وأخزائها، وأوقفها على عاقبة هلكها ورداها، وروى من دمائها المسالة قناها، وحكم في طلالها المذالة صوارمها العضبة وظباها، وكشف غمها شركهم وغيابة زورهم وإفكهم بحقها الواضح وجلاها، وأراح بنظرها السعيد، ورأيها الموفق السديد، كرب هذه البلاد وباراها، وأبرأها من عللها الفادحة وشفأها، ونقع بزال المن، وسلسال العدل والأمن، غللها المبرحة ورواها؛ والصلاة على

محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، مُبصر الأمة من عماها، ومُجلى غيبه
 الخيرة ودُجائها، ومُرشد الكافة إلى سبيل هُداها، ومُعرفها بخيبة من أويق نفسه
 ودساها، وفلاح من طهرها بالطاعة وزكاها، ومُرهداها في عاجلة قصير مداه، قليل
 نداها، نزيّر جناها، مُعتصر بيد الاسترجاع والانتزاع عطاها النزر وجداها، ومُرغبها
 في آجلة لا نفاذ لرزقها ولا انقطاع لمحيها؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي
 المعلوم، الذي أعاد ملته الخنيفة وأحياها، وأظهرها وأبداها، وأوضحها بيضاء
 نقية بعد أن حجبتها الجهل وغطاها، وصيرها بينة جلية وقد كان الضلال أضمرها
 وأخفاها، وحد الكافة على مصالح دينها ودنياها، ودعاها إلى ما يحياها وينجها
 وهداها؛ وعن صاحبه الأهدى، وخليفته الأعدل الأتقى، سيدنا الإمام أمير المؤمنين
 أحق البرية بخلافته العلية وأولاها، ومُثني كلمته المهدية إلى غايتها الشريفة
 ومُنتهاها، ومُرقياها في درج النماء والعلاء إلى أبعد مرقاها، وأصعد مسماها، ومُؤدي
 تعليماته النافعة، ومقالاته النازمة للخير الجامعة، كما سمعها ورعاها، والمناضل
 بالأدلة الباهرة، والأسنة الباترة، كل من عاندها وأباها، حتى استقرت في نصابها
 الأكرم ومعناها، واستمرت على نهجها الأقوم ومغناها، ملقية أزمته إلى من يحفظ
 حوزتها ويحمي حماها؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير
 المؤمنين وارث مقاماته الكريمة وعلاها، ومُشيد أركان مآثره العيمة ومبناها،
 بدوام سعوده الصاعدة وبقياها، وترادف الفتوح المتناسقة، لدعوته السامية السابقة،
 موقيا على أولاها أخرها.

وهذا كتابنا إليكم -عَرَّفكم الله من فتوح الأمر العزيز ونشره، ومحمود مقاماته
 في نصرة الدين وجميل أثره، ما يفعم أرجاءكم بطيب عونه الأرج وعطره، ويملا
 مسامعكم بمتعذب مسموعه الذي لا يُمل وخبره، ويوزعكم شكرا يؤدي حقوق ما
 أولاكم من خصائص الاستناد إلى طائفته المنصورة وأثره - من منزّل الموحدين

أعزهم الله بظاهر قفصة فتحها الله والذي نوصيكم به تقوى الله، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن تُوقنوا بأن الله تعالى في طي محاولات هذا الأمر العزيز أسرارًا يُمحّص بها عباده، ويحقق رجاء من أخلص نيته في التوكل عليه واعتقاده، واحتسب في طاعته، وابتغاء مرضاته، سعيه وجهاده، وألقى مستسلمًا في يد الرضا بما اختاره الله لأمره العزيز زمامه ومقاده، وعلم أن الله جلت قدرته لا يخذل أمره ولا يخلف ميعاده، ليزداد المؤمن إيمانًا، والراضي بالله ربًا ويمحمد نبيًا تسليمًا وإذعانًا. ويشق بنجاز ما وعد من إظهار دعوته، وإعلاء كلمته، ثقة لو كشف له الغطاء معها ما ازداد إيقانًا، ولا يطلب على ما ثبت منها في روعه، وانطوت عليه أحناء ضلوعه، دليلًا وبرهانًا، والله يجعلنا ممن استدام بالشكر الأتم ما أنعم به إسرارًا وإعلانًا، بمنه وجوده.

وكانت وفقكم الله هذه الحركة المباركة مبنية على التجرد فيها لقمع المعتدين، ووقم العابثين والمفسدين، والقيام لله تعالى بما أوجب من حماية الحق ونصرة الدين؛ فسئى الله سبحانه فيها من التيسيرات الخارقة للعادة، المربية على أقصى الفتوح ونهاية الإرادة، والمكيفة على أوفى متخير من تأتي الآمال المصحبة المنقادة، الجارية على إدلالها في عموم الخير وانتظام السعادة، وتعرف النماء في كل حالة وظهور الزيادة، ما شفى صدور المؤمنين، وصدق ظنون الموقنين، وحقق الثقة برب العالمين، وعرف أن العاقبة للمتقين المحسنين. ولما منَّ الله تعالى بدمار الأعداء وتبايهم، وقضى بقهرهم على أيدي أوليائه المؤيدين وغلايهم، وصيرهم إلى عاقبة خسرهم وسوء مآبهم، وأراح هذه الأصقاع من إشاباتهم الخبيثة وأوشابهم، على ما تقدم به إليكم خطابنا، وتضمن شرحه أرسالنا الواردون عليكم وكتابتنا، نهض الموحدون أعزهم الله من قابس كلاًها الله آخذين على صحرائه، وقاصدين إلى البلاد الجريدية من ورائها، على طُرق لا عهد لها بالعساكر، ولا علم فيها لعامر، ولا منفذ أمامها لوارد ولا صادر،

بحيث منقطع التراب، ومتصل القفر اليباب، ولا ماء ينبع في الأرض ولا يستقر من صوب السحاب، وإن سلكوها لمن العجائب العجائب، وآيات هذا الأمر الميسر الطلاب، المذكور ببراينه الواضحة لأولي الألباب، المنصور اللواء الممكن الأسباب.

وعندما شارف الموحدون أعزهم الله الجهات المذكورة جاءت الفتوح تبارى في شدها، وتنظم لآلئ الأقطار الجريدية في عقدها، وتنجز لأولياء الحق وأنصاره صادق وعدها؛ واستنقذت نفزاوة وقسطيلية كلاهما الله من وبش الفتنة ووعددها. وألقت بلاد نفزاوة وتوزر وتقيوس والحمة ونفطة بأزمتهما، وتطلبت من هذه الدعوة العلية معلوم منتها، واستنزلت بتحقيق توبتها متعارف رفيقها ومعهود رحمتها، وحققت أنها لم تُبدل دينها ولا فارقت إيمانها وبقينها في حالتها سكونها وفتنتها، فعمهم من هذا الأمر العزيز وأمنه ما مهله أرجاءهم، وصدق في فضل هذا الأمر العظيم رجاءهم، وعرفهم ببركة ما أمهم من الخير العميم وجاءهم. وثاروا بمن كان عندهم من الأشقياء يقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً ويوسعونهم تشتيئاً بجموعهم اللثيمة وتفريقاً، ويوردونهم بإرهاق نفوسهم الخبيثة سعيّاً لا يجبو انتقاده وحريقاً. وكلما مر الموحدون أعزهم الله ببلد من هذه البلاد المذكورة كلاًها الله أتوهم بالعدد الجم من أسارهم وبقاياهم؛ فتقط الرقاق طلاهم، وتنظم الصعدا كلاًهم.

وكانت بتوزر منهم جملة ذميمة فادرع بعضهم جنح الظلام وفروا من الحمام إلى الحمام، وتوغلوا في الصحراء المهلكة كشارد الأنعام، والله يجعل لهم ولمن أمهله الأجل من حثالتهم بوادر الانتقام، ويجرعم كما عود بأيدي أولياء هذا الأمر العزيز أكؤس الموت الزؤام، بمنه وجوده. وتركوا جميع أحوالهم وأموالهم، وكافة ما تألوله من أثاثهم وأثقالهم، ونقل الموحدون عامة أسلابهم وأنفالهم، وملكهم رق أهليهم وبنينهم وعيالهم؛ وأجلت بهم الغير مثلاتها، وأرثهم العبر عجائبها الغريبة وآياتها،

ونفس مهلبهم القدر إلى انتزاع أرواح الخيثة لأجلها المكتوب وميقاتها، بحول الله وقوته.

وهذه البلاد الجريدية لم يكن الوصف يعرب عن صفتها، ولا يؤدي كنه صورتها، ولا يطلع السامع على ما يجتليه المعاني من حقيقتها، وغاية كل عبارة وإن بالغت التقصير على تبين جليتها، فحققت المشاهدة أنها إقليم متسع الأكفاف، رحب الأوساط والأطراف، كثير المنافع والمرافق والألطف، جم الحداثق الغلب والجنات الألفاف، وكل مدينة منه مستقلة بذاتها، مكتفية بأقواتها، مستغنية عن غيرها بما جمعت من ضروب غلاتها، محتاج إليها لما يجلب منها من أنواع فوائدها وصنوف ثمراتها. وتوزر حاطها الله حاضرة هذا الإقليم العظيم وقطبه، وروحه وقلبه، ومركز دائرته الذي عليه يستدير محيطه ويلاستاد إليه يتمهد رحبه؛ وقد توطدت بعوده إلى هذا الأمر العظيم أقطاره، وعُمرت بالأمنة والهدنة دياره، وطُهرت أذناس الكفر من أرجائه ونُحيت آثاره، بحول الله وقوته، وجوده ومته.

واستمر بالموحدين أعزهم الله سيرهم المبارك من توزر حاطها الله إلى قفصة أعادها الله؛ فألفوا بها جملة ذميمة من أشقياء الأغزاز وأتباعهم قد ران على قلوبهم هواهم، واستغواهم الشيطان واستهواهم، وسول لهم مغالبة الغلاب فوعدهم غرورًا ومناهم؛ فأظهروا ما عندهم من الامتناع، واستشعروا شعار المصارمة والدفاع، واغتروا بجدراتهم السامية الارتفاع؛ وهيهات أن تُعزّ هذا الأمر العزيز شابخات البواذخ وطامحات القلاع؛ فعزم الموحدون أعزهم الله على منازلة هذا المعقل وحصره، واستعانوا بالله تعالى على أمره، وسألوه سبحانه معهود تسهيله كما عوده ويُسرّه، ومرامه بحول الله أيسر محاول وأقرب متناول، وأدنى مروم وأسهل مزاوّل، بحول الله وقوته.

وفي يوم الحلول به وصل خطاب قراقوش وأرساله راغبًا في التوحيد خاضعا،
 ماذا يد الاستكانة إلى هذا الأمر السعيد ضارعا، معلّمًا أنه إن قُبِلَتْ توبته، وأُجِيبَتْ
 رغبته، جاء إلى الموحدين أعزهم الله مطيعًا سامعًا. ووصلت في غده أرسال أبي زيان
 ومخاطبته مُعرفًا بركونه إلى هضبة هذا الأمر العظيم وركنه، واعتلاقه بذمة أمانه
 وأمنه، وإيوانه إلى كهفه الأرقى وحصنه؛ وهو زعيمٌ من زعماء الأغراز يُضاهي
 قراقوش في قدره، ويُقاسمه في أمره. وكان قد انتبذ عنه أنفةً من مشاركته، وعزماً
 على مصارمته ومشاركته؛ واستبد بطرابلس كلاًها الله ونواحيها، وأظهر دعوة
 التوحيد فيها، وصارت والحمد لله هذه البلاد كلها إلى معهودها من الطاعة،
 والانظام في سلك الجماعة، والفيئة إلى ملكة هذه الدعوة العلية المطاعة، وأفادت بما
 خامرها من الأدواء، وأفلتت من سقم الفتنة المُعضل ودائها العياء. وكمل المقصود
 لها من تمهيد الأكناف وتوطيد الأرجاء، وتأمين الجهات وسكون الدهماء، بفضل الله
 ذي المن والآلاء.

وعرّفناكم وفقكم الله بهذه الفتوح الجمة التي عظمت قدرا، وأعجزت حمدا
 وشكرا، وخرقت العوائد تسهلاً غريباً وُسْراً، لتضربوا بقداح المساهمة فيها،
 وتذيعوها في أداني جهاتكم وأقاصيها، وتجددوا حمد مُحوّلها حلت قدرته وموليها،
 وتقوموا بالواجب من شكر مُسببها سبحانه ومُسنيها، والله تعالى يعينكم من ذلك
 على ما يتكفل لكم بتضاعف نعمه عليكم وتواليها، بمنه وجوده، لا رب غيره.
 والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتِبَ في الثاني من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

الرسالة الثانية والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، وإلى عليهم من فتوح هذا الأمر العظيم ويشراه، ما يُربي على أولاه أخراه، وتكرم مغبته وتحسن عقباه. سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعدُ فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي فرّج لهذا الأمر العزيز مُبهمات المغالِق، ودكدك لوطأته وسطوته، مُشمخرات الشواهِق، واستنزل العزة ورهبته، من اعتصم بِشُم البواذخ وطامحات الحوالق، وحكم بإعلاء كلمته، واستيلاء أمره المؤيد وملكته، على من ترفل في اليفاع الممنع أو توغل في البيد السالمق، وحكم صوارمه البتار في طُلَى كل مازق، وروى مُنفصله الظميء وأسَلَه الحران من علق كل مناقق، وأحل بمن عاند أمره العظيم، وخالف نهجه القويم، مُجَحِّفات البوائق، ومستأصلات المواحق، وقضى لدعوته المهديّة، وإيالته المظفرة العلية، في إله السابق ووعد الحق الصادق، أن يبلغ ملكُها الثابت القواعد، وأمرها المحكم المعاهد، ما روي لنبينا صلى الله عليه وسلم من المغارب والمشارق؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أذهب الله بنوره كل مظلم من الكفر غاسق، وجعل شرعه الحنيفي، ودينه الواضح الجلي، آخر ماحٍ للشرك ماحق، وألزم ملّته الخاتمة للملل، وشريعته الناسخة للأديان والنحل، كافة الخلائق،

ودعا الأحمر والأسود إلى ما يُحييهم ويُنجيهم من توحيد الباري الخالق، وتمجيد الواحد الصمد الرازق؛ وعلى آله وصحبه الكرام البررة الأصادق؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُبِيد المخارق ومُعِيد الحقائق، ومتلافي رمق الدين الزاهق، والمُحيي من شريعة جده عليه السلام ما أماته كل جاهل مائق، ومصيرها بعد الدروس والطموس إلى أصلها الراسخ وفرعها الباسق، ومُبدِئها عِصَّةً جديدةً تلوح في جلالها الراقق، وكمالها الفائق، لكل موفق ناظر بعين البصيرة إليها راقق؛ وعن خليفته الإهدى، وصاحبه الأكرم الأرضي، سيدنا أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز على نهجه الواضح الطرائق، ومبلّغه إلى غايته الشريفة المبادئ واللواحق، والحائض لأسماؤه وإعلائه نجم المضايق وغمرات المآزق. والمُناضل دونه أعلام المهارق، وبهم الفيالق، بكل دليل قاطع وغصبٍ فائق، وحتى خَرَسَتْ هِزَّةُ الشقاشق، ببرهانه الباهر الفارق، وانحسمت علل العلائق، بسنانه الباتر الخارق، وانقاد لحقه الواضح كل جامع ورجع إلى جماعته الدينية كل مفارق، وخلّص أمره العزيز من شوب الشوائب وعوق العوائق؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين، وارث مقاماته السوامق، ومآثره البواسق السوابق، ومتقبله في كريم الضرائب وعظيم الخلائق بنصر مؤازر وسعيد مرافق، وفتح مصاحب وظفر موافق، وجدّ يقضى بتأييد لوائه الخافق، على كل خارج عن طاعته ناعق، ما اطرذبزوغ البازغ ودرور الشارق.

وهذا كتابنا إليكم - أسمعكم الله من تواتر البشائر، وتقاطر فتوح هذا الأمر الظاهر الظافر، ما تستغرق بالمسرة به أوقاتكم، وترتفع بالشكر لمُسْنِيهِ أصواتكم، ويطول لمؤليه سبحانه تضرعكم في إدامته وإخباتكم، ويُعيد عليكم من السكون والهدون ما تؤهّل به جلالكم وأبياتكم، ويطيب معه في ظل الأمانة ومهاد الدعة عيشكم الأرغد وحياتكم - من قفصة مهدها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى،

والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، ونحن نحمد الله تعالى على ما عرّف أولياء دينه وحمّة دينه من إظهار وإعلاء، وتسديد مذاهب وتأييد آراء، وتيسير مآرب وتيمين أنحاء، وقهر مُناوين وكبت أعداء، وإصحاب أمره العزيز الإنجاد والإسعاد، أية سلك، وإشعاره التوفيق والإرشاد، فيما أخذ أو ترك، واقتران التيسير والتسهيل بمحاولاته والنجح والحمد لله يضمن النيل لمطالبه والدرك.

وإلى ذلكم وفق الله مقصدهم، ويمنّ في طاعته مصادركم ومواردكم فقد تقدمت مخاطبتنا إليكم بنُبذ مما سناه الله تعالى في هذه الحركة السعيدة ويسره، وقضى به من قهر أعدائه وقدره، وأبداه سبحانه من عنايته بهذا الأمر العظيم وأظهره، وعقّب وفقكم الله تلكم الفتوح العظيمة، والمنوح الجسيمة، والعوارف الجمّة، والمواهب الكريمة، فتح هذا الأبلق الفرد، والمرقب المتجاوز في الحصانة كل حد، والعلم الباذخ والخضم الألد، المدافع من رام نزاله، وحاول قتاله، بالسنة لد. وكان فيه على ما أعلمناكم به ضروب من الفسقة وأصناف، وأوباش جمعتهم الفتنة وأخفاف، وأغمار استجرهم الطغيان وأحلاف، ولصوص نظمهم على الخرابة، وصرفهم عن التوبة والإنابة، الشقاق والخلاف؛ فركبوا في العصيان رءوسهم، وبذلوا في طاعة الشيطان نفوسهم، ولم يفارقوا وقد أرتهم الحقائق وجوهها، وحذرتهم الأيام صروفها، تلبيسهم وتدليسهم؛ وتتابعوا على الهوى في مساقط الردى، وهُدوا فاستحبوا العمى على الهدى، وتجاوزوا في الانخداع بجدراتهم المنيفة، والاستنامة إلى خنادقهم المظيفة، كل غاية ومدى؛ فسلك معهم على مناهج هذا الأمر العزيز في إقامة الحجّة، والدعاء إلى سواء المحجّة، ويُذِلّ لهم من العفو والتأمين، في النفوس والأموال والأهلين، ما تسكن إليه نفوس المؤمنين، وتطمئن به قلوب الموقنين، وتنشرح له صدور الباحعين بالطاعة المذعنين؛ فأصمهم العين وأعماهم، وغرهم أملهم الكذوب واستهواهم، وغلب للشقوة الغالبة عليهم على عقولهم

هواهم. فلدُّجُوا في طغيانهم، واستمروا على خذلانهم؛ فألقوا بمقاليدهم وأشطانهم إلى مغريهم المُّضِلِّ وشيطانهم.

فرفهنا الموحدين أعزهم الله عن قتالهم، ورَبَّانًا عن مصاعهم ونزالهم، ورأينا أن محاربتهم بالآلات المتخذة أبلغ في نكايتهم وإذلالهم، وأسرع في إبادتهم بعون الله واستتصالحهم، وأُخِذَ فيما يُمهّد مقام الموحدين أعزهم الله من تأمين المذاهب، وتسكين المسالك والمسارب، وحسم كل ما يتوقعه كلُّ جاءٍ وذاهب، من العوائق في طرقه والنوائب. فدرَّتْ.....^(١) من كل الجهات والجوانب، وكثرت الأقوات والمرافق بسبق السابق وجلب الجالب، ولم يعدم الموحدون أعزهم الله عيشةً واسعة، وخيرات متتابعة، وأحوالاً نازمةً لكل خير جامعة؛ وضاعف الله أجورهم صومهم وإفطارهم، وعدُّوا مُدَّةَ رباطهم أفضل ماضي من أعمارهم، واحتسبوها عند الله تعالى أزكى أعمالهم وأنفع أذخارهم. وشُرِعَ في إقامة الآلات المذكورة على اختلاف ضروبها وأشكالها، وبولغ في تمام أوصافها وكمالها، وتُوخِّيَ فيها أن تكون على أحسن ما عُهِدَ من أحوالها، فاجتمع منها فوق ما كان الظنُّ يقضي بوجوده، وتُعَجَّلَ في أسرع أوقاته وأعجل أحيانه، وتبها المراد منه على معهود هذا الأمر السعيد في تيسير مقامه وإمكانه. ونحن نتخيل في خلال محاولتها أن ينوب للمردة نائبٌ استبصار، ويزعهم وازع إقلاع على الغواية وإقصار، ويصرفهم عن الارتباك في الضلالة، والتمادي على الجهالة، صارفٌ ازدجار وادِّكار، فيسعهم العفو الرحب المحل الفسيح المضمار، ويروي ظماهم الصفحُ الشاملُ بكل ديمة هطلاءٍ وواكفٍ مذار؛ فإنَّ على قلوبهم ما أرادهم من الإهمال والاغترار؛ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار؛ وما ازدادوا إلا ضلالاً وخبالاً، وتماديًا في الغي واسترسالاً، وإضاعةً

(١) هنا وقع قطع نحو نصف سطر في الأصل المنقول عنه.

لحظوظهم الدينية والدنيوية وإهمالاً؛ ووعدُ الله يأبى إلا أن يوبقهم بما كسبوا،
ويذيقهم وبال ما حملوا من الأوزار واحتقّبوا؛ وظنّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله
فأتاهم.....^(١).

وفي أثناء ذلك شرع في العمل بالآلات المذكورة فنصبت إليهم مجانيق، يُنهد من
جنادلها النيق، ولا يبلُ كليئها ولا يستفيق، فيذهب بها كل يوم منهم ومن أسوارهم
طائفةٌ منهم أو فريق، ويصبُ عليهم منها عذابٌ واصبٌ وحريق، وتُصيبهم منها
صواعقٌ لا تستطيع نفوسهم المحروبة، وقلوبهم المنحوبة، صبراً على إحمال بلائها
المهلك ولا تطيق. واستمرت مدة على نكايتها فيهم، وقتل مقاتلتهم وهدم مبانيهم،
وأحرق بهم أذاها الملازم من جميع أرجائهم ونواحيهم، حتى ألحقت بالأرض
مسافات من جدارهم، وثلمت فرجا جماً في أسوارهم، وهدمت عدداً من أبراجهم
الشاهقة وديارهم، وأذنتهم بتبابهم وأشعرتهم بدمارهم. وكان لها من عظيم الأثر
وكريم الغناء، ما لم يُعهد في سالف الأزمان والآناء، ولا تيسر ببركة الأمر المطرد
التجدد والنماء، الدال بتصرف حالاته، وتطور مآخذه في جزئياته وکلياته، على ما الله
تعالى به من الاعتناء، وأنه المؤيد العزائم المسدد الآراء، المظفر الأحزاب المنصور
اللواء.

ولما تم بعض الآلات المباركة وكُمّل، ووُشع بضروب الأسلحة وجُلّل، وسُتر
بأنواع الخيس الواقية وظلّل، قُرب إليهم لردم حفيرهم وتسهيل الطرق إلى هلكهم
وتدميرهم؛ فللمفور تمكن الموحدون أعزهم الله من خندقهم وسورهم، وأذهب الله
ما كان في ظنهم أنهم لا يُرامون وتقديرهم، وهناك أذاقهم المنون، مرّاً نكالها،
وعرّفتهم الحرب الزبون، عرّك الرّحى بثفالها، وأرثهم عين اليقين، حقيقة اصطلامها

(١) بتر نحو كلمتين أو ثلاثة بسبب القطع المذكور.

واستصلها، وعرفتم وخيم مراتعهم في الضلالة وذميم مآلها. وأدني البرج المبارك إليهم يسير إثناء، فأطل على أرجائهم إطلال الفتخاء، وخات عليهم قرعاً فوقهم سقف السماء، ورُموا منه بالموت الزوام والداهية الدهياء، وكان إياهم كالبازي المصرصر فوق نبات الماء، وتيقنوا بمرآه أن لا طمع لهم في حياة ولا أمل في بقاء، وأنه يستأصل ما أسارت المجانيق فيهم من رمق وغادرت من دماء؛ وتهاياً للموحدين أعزهم الله بمكانة توطئته ردُّ الخندق على اعتدال واستواء، وجازوا إلى سِترتهم وضرّمو النار بأعلى برج ابن زواج، وهو بمنزلة الإكليل من المدينة والتاج؛ فاضطرم في جوانحهم من نيران الجزع والهلع كل متوقد وهاج، وتعجل الفتح الميسر فيهم بفضل الله وبإيج، وعندما تحققوا أن أخذة الله الراية أحاط بهم سراقدها، وأخذت بمخنقهم مخانقها، وطرقتهم بالحوادث النكر والمنايا الحمر طوارقها، وأظلتهم بالأزمات الشديدة، والهلكات المبيدة، رواعدها المتلفة وصواعقها، وأن هضبتهم المنية قد ملكت عليهم أسوارها وخنادقها، مدّوا أعناق الاستكانة والخضوع، وأبدوا صفحات الإنابة والنخوع، ولاذوا بالأوبة إلى الطاعة والرجوع، وكثُر في سؤال قبول متابهم استصراخهم وتداعيتهم، وأهلّ بالاسترحام والاستصفاح داعيتهم ومناديتهم، واستنزلوا رحمة هذا الأمر العزيز برفع أصواتهم وبسط أيديهم، متحققين أن عفوه الواسع أعظم من ذنب مُذنبهم وجناية جانيهم؛ فشملهم عفوه الذي لا يضيق عن مستقيل تائب مجال، وعمهم صفحه الذي لا يتعذر على مستقبل آتٍ مناله، وغمرهم منه الذي لا تتقلّص لُستقي زاعب أفاؤه وظلاله. وبُذل لهم من الأمان الأتم ما أقرّ بجسومهم أرواحهم الداهية، ورد عليهم عقولهم الطائشة وألباهم الغاوية، وعرفهم أن شيمة هذه الدعوة العلية الإحسان والإسجاح وإن كانت المدركة الغالية.

واندرج هذا التأمين على الأغزاز وأتباعهم وجميعهم وجميع أهل قفصة وكافتهم

وعامة من كان معهم من قبائلهم وأهل باديتهم، واستثنى المرتدون المارقون، والضالون الميورقيون، وكانوا قد اعتقدوا معهم وارتبطوا، وانتظموا جميعاً في سلك التألف والتعصب وانخرطوا وادّكروا تأمينهم معهم فيما رغبوا فيه وأشرطوا؛ فروجعوا بأن لا أمان لهم إلا بإسلامهم، وأن رحمة هذا الأمر العظيم لا تنالهم لعظيم اجترامهم، وأن حُكم الله الحق فيهم تمزيق أوصالهم وتضريب هامهم. فلما رأوا عين اليقين أسلموهم وتبرّءوا منهم، واغتنموا سلامة حشاشتهم بالإفراج عنهم، وكانوا عددًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا، وجعًا كبيرًا؛ فغزاهم الموحدون أعزهم الله غزواً شفى صدورهم، وأذهب غيظ قلوبهم وأعظم أجورهم، وضاعف جذلهم وأكّد حبورهم. وعاد إلى ملك الموحدين أعزهم الله هذا المعقل الأشب، وقفل هذه البلاد الممتنع المستصعب، وجاعها الذي لا ينقاد لرائضي ولا يصحب، قد سمّت جدارته، واحتمت عن المحاريين جهاته، وحادثت البروج أبراجه الباذخة وشرفاته، أرى في الإباء على كل حصن، وحوى من ضروب الحصانة كل معنى لا تؤديه العبارة وفن، إذا شاء فيه شارب مد كفه فيغترف الماء الزلال من المزن؛ ولولا بركة هذا الأمر الذي لا يعاند ما ذل جاعه، ولا تطأطأ طامحه، ولا حوت المتوقلين بأذرانه والمتمنعين بجنباته السامية وأرجائه، أجارعه السهلة وأباطححه؛ وطال ما اتخذ الناس سور هذه المدينة وخندقها عجباً، واستمر اغترار قاطناتها بها سنين متطاولةً وحُقباً، وظن الجميع من ساكنيها وحاضريها، على تقادم الأيام وتماديها، أن طالبها لن يستطيع لها طلباً، ولا يبلغ من قهرها أملاً ولا ينال من غلبتها أرباً؛ فأظهر الله فيها من كرامات أمره العزيز ما صير الثقة بمنعها غروراً، والحديث عن حصانتها كذباً وزوراً، وحقق أن هذه الدعوة المهدية لا تلقى دون مرادها موانع وإن عظمت ولا حجباً؛ وكان في أخذها من انخراق العوائد ما غدا أمراً موجياً، لثبوت إيمان من ضعف يقينه وسبباً. وأيقن أولو البصائر والأبصار، أن حركات هذا الأمر العزيز لا تخلو من اعتبار، ولا

تنفكّ من تنبه واستبصار، وأنها مع تناوب الأدوار، وتعاقب الأطوار، غير عرية عن إيقاظ العقلاء وادكار.

وبتملكها تمت هذه الحركة المباركة تمامًا على الذي أحسن، وظهر عظيمُ صنع الله فيها لأوليائه المؤيدين وتبيين، وتحقيق كل مؤمن لطيف عناية الله بهم وتيقن. ولم يبق في هذه الجهات كلها من الأغزاز من ينفخ للفتنة في ضرم، ولا من يستقل للسعي إليها على قَدَم، إذ أذهبت هذه الغزوة المباركة يوم الفتح الأعظم أنجادهم وأعيانهم، وتغلّكت بقباس وقفصة أشدّاءهم وشجعانهم؛ فصار جماهيرهم وأهل البسالة والنجدة منهم، خوّل الموحدين أعزهم الله وعبدانهم؛ واجتمع منهم عندهم جملة وافرة، وجماعة ظاهرة، وأعدادُ جمة متكاثرة. وأذهب الله كل ما كان بهذه البلاد من أثر الفتن وغين، وأبطل ما كان عويها المريد يخذع به الضعفاء من شبهة ومين، وتبين برهان الحق الباهر، وصبّحه الظاهر، لكل ذي قلب وعين؛ ومهّد التقويم تأمينا وعدلّ منادها، وطرح عن كواهلها ما أثقلها من المحن وآدها، وصيرها إلى معهودها من الهدنة والدعة وأعادها، وظهر من إخوانكم الموحدين أعزهم الله من الإقدام على أعدائهم، والمبادرة إلى مصاعهم ولقائهم، والتعطش إلى إرهاب نفوسهم وإراقة دمائهم، ما حملهم عليه خلوص السرائر، وصحة العقائد والضمائر، واستواء البواطن في طاعة الله تعالى والظواهر. والله تعالى يُذخر لهم أجور احتسابهم، وينفعهم بما قدموه في هذه الغزوة المباركة من رابح اكتسابهم، ويُنجينهم ثمرة مساعيهم الناجحة، وأعمالهم الصالحة، في حالهم ومآبهم، بمنّة وكرمه.

وعرّفناكم وفقكم الله بهذه البشائر، والفتوح العظيمة الأوائل والأواخر، لتأخذوا من المسرة بها بقسم وافر، وتوالوا حمد الله تعالى على فضله الشامل ومنّه الغامر، وتستوزعوه سبحانه شكر عوارفه المستغرقة حمد الحامد وشكر الشاكر،

وَنِعْمَ التي لا يفي بإحصائها عدُّ العاد وحصرُ الحاصر. والله تعالى يجعلكم بمن استدام بالشكر الأتم دون إحسانه السابغ وجوده المتواتر، بمنه، لا رب غيره.

وكانت وفقكم الله أسوار هذه البلاد لهفةً على ساكنيها، وفتنةً لعامريها وقاطنيها، وسبباً لمحتتهم بكل ناعق يروم الانتزاء والامتناع فيها؛ فَرُبَّ نعمةٍ في طيها نقم، وراحةٍ ينشأ عنها ألمٌ مُلَازِمٌ وَسَقَمٌ، وحالةٌ تُظَنُّ وجودًا وهي في الحقيقة عَدَمٌ. فأَجْع رأيَ الموحدين أعزهم الله على إراحتهم من شرها، وإزاحة مكروها عنها وعنهم وضرها، وتنصيرها في تمهيد أحوال هدنتها، وتوطيد أسباب معيشتها، كسواها من البلاد وغيرها؛ فاقسموا سورها بالقبائل، وصيروه في يوم أو بعض يوم كرجاف من الرمل سائل. وإن من أعظم العِبَر، وآيات هذا الأمر الكريم الكُبر، أن يسر هدمه في المدة المذكورة وما كان يظن ذلك به في أمد متناول؛ والله تعالى يحوط الكافة بنظر هذا الأمر الشامل الكامل. لا رب غيره. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

كُتِبَ في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسة.

الرسالة الثالثة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش أدام الله توفيقهم بتقواه، وأوزعهم شكر ما منحه من فضله وآتاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه؛ ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، والحمد لله الذي رفع بهذا الأمر العزيز قواعد الإسلام ودعائمه، وأبان بإظهاره مناهجه ومراسمه، وعفى بهدايته النيرة، ودعوته المؤيدة المظفرة، رسوم الضلال ومعالمه، وقرن بتأييده المتظاهر، وتسديده المنجز المؤازر، مناجيه وعزائمه، وتحكم في أفئدة الملحدّين، وطلى الفسقة المرتدين، مناصله وصوارمه، وهدى بأيدي أوليائه الموحدين، وأشياعه المناضلين في سبيله المجاهدين، مباني الكفر وقوائمه، وقطع بهم علائقه وشكائمه، وقص بنصرهم أية سلكوا وتأييدهم فيما أخذوا أو تركوا خوافي الشرك وقوادمه، وسكن بهذه الحركة التقويمية مرتج بحر الفتن بهذه الأرجاء الإفريقية ومتلاطمه، وأطفأ من سعيها المحتدمة، ونيرانها الملتهبة الملتطمة، ما أرتت الضلالة وقوده وأججت الغواية جاحمه، وأوطأ بسباسبها اللقاح، وفراقدها التي أنفت التجاوز والطماح، سنابك عرمرمه اللهام ومناسمه، وجعل الجحافل والمقانب، والقبائل الجمّة والكثائب، أنفاله ومغانمه، ونظم في حبل مقاده، وعلى طوع إثارة وحكم مراده، كهة الأبطال، وآساد التزال، وضراغمه، وأفاء على أحزابه المفلحين، وأوليائه المؤيدين المنجحين،

عجائب النفل وعظائمه، ونعمه الحُمر ونعائمه، وذخّر لهم أجوره وأجزل عندهم غنائمه؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أزاح الله به سحاب الكفر وغنائمه، وأذهب بنبوته الخاتمة للنبوءات وشريعته الناسخة للملل والديانات، قوادح الشرك وقواصمه، وأضاء بأنوار حنيفيته السمحة القياد، ونذارته المصلحة المبدأ والمعاد، مسودّ غيبه العمى وفاحمه؛ والرضا على الإمام المعصوم، المهدي العلوم، الذي نظم الله به من روابط العقائد والضائر، ما حلّ الضلال مناظمه، وطحر بهديه عن نواظر القلوب والبصائر، متكاثف زين الهوى ومتراكمه، وجلى بأضوائه المهدية، وعلومه الواضحة الجليلة، مُدْهِم ظلام الجهل وعائمه؛ وعن صاحبه الأهدى، وخليفته الأعدل الأرضى، سيدنا أمير المؤمنين الذي شاركه في نسبه الكريم وقاسمه، وعاونه في تمشية أمر الله تعالى وسأهمه، وأعمل في إعلاء كلمته وتمهيد أمره ودعوته قواضيه ولهاذمه؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الممنوح من الانتهاض بخلافته، والوفاء بعظيم أمانته، خصائص الارتضاء وكرائمه، بنصر تمر له السعود المساعدة، والحدود السامية الصاعدة، متصلة ودائمة، وتأيد لا يزال يكبت مقاومه، ويرغم مراغمه، ويستنجز له من وعد الله الصادق ما يُعرفه تصاحب الفتح المبين في كل مروم وتلازمه.

وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم من مسرات هذا الأمر العزيز ما تملأ بشراه أسماعكم، وتعمر ذكراه أصقاعكم، ويجعل على بث منحه ونشرها، وذكر نعمه التي لا يحصيها العدّ وشكرها، انتظامكم أبداً واجتماعكم، من منزل أبي سعيد يمنه الله ونحن نحمد الله تعالى على ما يسر من محاولات هذه الغزوة السعيدة وسهل، وتمم من أرغابها الحميدة وكمل، وأولى من عوارفه الجسيمة فيها وأجل، حمداً يكون كفاء لما خوّل من إحسانه الأتم وأجزل. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل

بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه.

وكانت وفقكم الله هذه الحركة السعيدة التي آلت بها أمور هذه الأرجاء خير مآلها، وأقرت لها قدوم الكفر بعد تحمطها وصياها، وأذاقت زعماء الكفرة، وصناديد الفسقة الفجرة، وبال أمرها وصائب نكالها، واسترجعت من البلاد المغتصبة، والأقطار المنتهبة المستلبة، ما امتدت الأيدي الظالمة إلى اختلاسها واغتيالها، على ما أعلمناكم به من التجرد فيها لنصرة الدين وحمايته، وإزهاق الباطل وإيادته، وإحياء الإسلام الذاهب بهذه الأصقاع وإعادته، وتحقيق التوكل فيها على إنجاد الله وإعانتة، والثقة بما وعد سبحانه من تبرأ من الحول والقوة إليه من عضده وكفائته، وإرشاده في كل مقصد وهدايته؛ فسئى جلت قدرته فيها من لطفه الخفي، وصنعه الجلي، وفتح السني، من حيث لا يحتسب لأمره العلي، ما تواترت به مخاطبتنا إليكم، وأوردناه على معنى الاقتضاب عليكم، وعرفناكم بما ولاه سبحانه من فتوح تناسق ورودها، وتلاحقت وفودها، وتلاحقت على التيسير والتسهيل قلائدها وعقودها، وأبلغنا لكم بنيد مما كان فيه من الخوارق التي لا شبيه لها، والحقائق المُنبهة لمن تدبرها وتأملها، على أن هذه الطائفة المباركة هي المنصورة المصيبة المفتوح لها التي لا يضرها من خالفها ولا من خذلها. وإن من أعجب العجائب وأغرب الغرائب، وأبدع الأمور التي لم يُعهد مثلها في العصور الذواهب، ولا تعلق بها لبعدها أمل أمل ورغبة راغب، أن كانت الجحافل المجردة في هذه الغزوة السعيدة بعض المغانم، والعساكر الجمة مقودةً بشكائم الغلبة والخزائم، وأهل البسالة والنجدة، والحماسة المشهورة والشدة، مسوقين في ريق الخضوع والنخوع كالثود النواعم؛ وما ذلك إلا يسر الله تعالى في هذا الأمر العزيز أرغم له به شَمَّ المعاطس، وأذل لرهبته وهيبته كل جامع شامس، واستنزل بعزته وسطوته من اعتصم بشمّ البواذخ ونازحات البسابس.

وكنّا وفقكم الله قد عرّفناكم بمن استولي عليه بقابس كلّها الله من الأغزاز
ومن استنزل منهم بقفصة حاطها الله وهُم معنى من كان منهم بهذه الجهات
وأعيانهم، وجماهيرهم وفرسانهم، وأشدّاءهم المشهودون وشجعانهم؛ وقد انتظم
كُلُّ العفو رئيسهم ومرءوسهم، وملك غامر الإحسان، وشامل الامتنان، قلوبهم
واستحق نفوسهم، وظهر من توحيدهم ومتابهم، ورجوعهم عن الغواية وإيابهم، ما
يستدركون به بحول الله تعالى في خدمة الأمر السعيد صلاح حالهم ومآبهم. وقد
اجتمعت منهم كتيبةٌ جأواء، وفيلق شهباء، وجحفل نجباء، ترتعص منه الأباطح
ويفضل منه البضاء، وحصلوا في ملكة هذا الأمر العزيز بكافة أحوالهم، وجميع من
معهم وما عندهم من بنينهم وأهلبيهم وأموالهم، وكلّ منه قد استعبده الأمر العظيم
واسترقه، واستوجهه بالغلبة القاهرة واستحققه، ومنحه بعد الملك، والإشفاء على
الهلك، حياته وعتقه؛ وقد قدموا بين يدي الموحدين أعزهم الله غنماً يروق أهل
المغارب منظره، ومرأى يقصر عن مشاهدة خبره، ودليلاً على عظيم المنّة في التمكين
من نواصبيهم، وكريم المنحة في استنزاهم من صياصبيهم، لا يُطلب بعد عينه أثره،
وأنها لفتوح خرقت المعتاد، وتجاوزت الأمل والمراد، وأربى ميسرها العجيب،
ومسهلها الغريب، على ما يتمنى مُخَيَّر أن يكون وزاد. والحمد لله على نعمة المتواترة
الأطواد، حمداً يمتري التضاعف من فضله والازدياد، ويتجاوز في ترداد ذكرها،
وتعداد شكرها، الغايات البعيدة والآماد، بمنه، لا رب غيره.

ولما أنجح الله مقاصد هذه الحركة الميمونة التي رفع منارها، وحسّن بفضله
ورحمته آثارها، ووقف على إعلاء دينه وتمهيد أمره وتمكينه إيرادها وإصدارها، وكان
فتح قفصة مهدها الله لبنة تمامها، ومسكة ختامها، وأقصى رومها ونهاية إقدامها، ولم
يَبْقَ للفتنة بهذه الجنبات من عين ولا أثر، ولا لغواتها الشقاة استقلالٌ فيها بورد ولا
صدّر، وكمل تمهيدها بعون الله وتوطيدها على أوفى بغية وأتم وطر، رأينا والله

المستعان أن من كمال النعمة على أهل هذه الأرجاء، وتمام ما يُراد لهم من اطراد الأمانة وسكون الدهماء، وتمشي تسديد أحوالها على ما يعود عليهم بانسباط الأمل وامتداد الرجاء، أن يتلوم بها إلى استحصاد زروعها التي آذنت بكمال الرفع والنماء، وحملهم الأمر الشامل، والرأي الكامل على البلوغ إلى غاية الاستكثار منها والانتهاء، وازدعاج جميع محراثهم على الاستيعاب والاستيفاء. وعَيْنًا لهم في خلال ذلك من الطلبة أعزهم الله من رجونا استضلاعه بما أسندنا إليه من أمورهم، وانتهاضه بما نُطنا به من مصالح كافتهم وجهورهم، وقد رنا اكتفاءه بما قلدناه من النظر الشامل لمواسطهم وثغورهم.

ثم استخرنا الله تعالى في الوصول إلى المهديّة حرسها الله لمطالعة أحوالها. وترتيب أشغالها. فكان من بركة قصدها ويمن احتلالها أن أرت السعادة لقبائل عوف والشريد بن سليم وفقهم الله بحياها، وأنشقتهم راحتها العبة وريهاها، وسفرت لهم عن نورها الباهر وسناها؛ فعشوا مستبصرين إلى أضوائها، وهدوا مسترشدين بهديها المنجي من مداحض الفتن وأهوائها، وانخرطوا مسلمين مستسلمين في سلك طائفة هذه الدعوة العلية وأوليائها. ففاز بخير الدنيا والآخرة قدحهم، وأوري بعد الصلود والأكباء قدحهم، وبيّن لهم الحقائق فجرهم المستنير وصبحهم، ولقوا من قبل هذا الأمر العزيز وإقباله، وتأمينه الشامل وإجماله، ما استمرت به عوائده الكريمة لمن تمسك بحباله، وآوى إلى ركنه واستند إلى ظلاله. وهاتان القبيلتان وفقكم الله صذرُ سليم وكاهلهم، وأستهم المذروبة وعواملهم، ومقدموهم على قديم الأيام وأوائلهم؛ وبانقيادها بحول الله ينقاد أبيهم ويستبصر جاهلهم، بمن الله وفضله.

وما زلنا وفقكم الله وهذه الآفاق الإفريقية مطالع العزمات المؤيدة، ومأمٌ

المقاصد الميمنة المسددة، ومجال الفكر المعانة بتوفيق الله المنجدة نلتفت إلى تلکم الأرجاء، ونصرف إليها جانبًا من التهمم والاعتناء، لتأخذ كل جهة بقسطها من النظر النافع، والتقوى العام الجامع، على سواء؛ فعندما أبرأ الله تعالى سقم هذه البلاد واعتلاها، ورأب ثاءها وأصلح اختلاها، وأباد أعداءها ومحق أقتالها، تعيّن النظر لسواها، ووجب تسديد العزائم إلى غير مرماها، واستدعت الأحوال المحاولة، والمصالح المزاولة، أن يعم الالتفات الكريم أقصى بلاد أهل التوحيد بسطها الله وأدناها؛ فاستخرنا الله على أن تعمل إلى الجهات الغربية المطي، ويقرب بصلة التأويب بالإسناد خرقها النطي، وتطوى بأيدي السُّبْق العناجيح، والضمير الهاليج، شقتها البعيدة ومداها القصي.

فاستبشروا - أعزكم الله - بقدوم إخوانكم الموحدين، واشكروا الله تعالى على ما ذخر لهم من نصره الدين، وحمدوه سبحانه على إعلاء كلمته، والحمد لله من أجر هذه الغزوة السعيدة وفخرها كل خصل، وتقلبوا في تضاعيفها من رحمته سبحانه في أسبغ من غامر وطول، وانقلبوا والله المشكور بنعمة منه جلت قدرته وفضل. واعلموا وفقكم الله أنهم وإن أبوا إلى ديارهم، وعادوا إلى محال سكناهم ومواطن استقرارهم، فإن صدورهم معمورة بنية الجهاد، في جهرهم وإسرارهم، وعزماهم مصروفة إلى التأهب له والاستعداد، في إيرادهم وإصدارهم، وأجورهم يمين الله موفورة على ما ينوونه من حسبتهم في مسيله تعالى وإيتجارهم؛ والرب يبلغ الأمل في مكافحة أعدائه، والمنافحة لإعزاز دينه وإعلائه، وإظهار أمره على كل مُعانِد وجاحد وإسائه، بيمته وفضله.

وعرّفناكم وفقكم الله بهذه العوارف الجمّة، والمواهب المستكملة المستمّة، - لتأخذوا بحظكم من المشاركة فيها، وتضربوا بسهمكم في شكر موليا جلت قدرته

ومُسْنِيهَا، وَتَعْتَبِرُوا بِهَا أَظْهَرَ اللَّهِ فِيهَا مِنْ آيَاتِهِ، وَعَرَّفَ مِنْ عَنَائَاتِهِ، وَأَنْجَحَ مِنْ مَقَاصِدِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَزِيزِ وَمَرَامَاتِهِ، وَأَبْدَاهُ سُبْحَانَهُ مِنْ إِعْلَاءِ مَقَامِهِ وَإِبَانَةِ كَرَامَاتِهِ؛ فَأَقْدُرُوهَا حَقَّ قَدْرِهَا، وَأَشْهَدُوا فِي جَمِيعِ نَوَاحِيكُمْ بِوَجِبِ حَمْدِهَا وَشُكْرِهَا، وَخَاطِبُوا بِهَا إِلَى كَافَةِ جَنَابَاتِكُمْ مُعَلِّمِينَ بَيْتِهَا وَنَشْرَهَا، وَاللَّهُ يَعِينُكُمْ مِنْ مَوَالَاةِ حَمْدِهِ، عَلَى مَا يَجْزِلُ حَظُّوْظِكُمْ مِنْ رَفْدِهِ، وَيَهْدِيكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ سَبِيلِ رِضَاهِ وَانْتِهَاجِ قَصْدِهِ، بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَمَجْدِهِ؛ لَا رَبَّ غَيْرِهِ. وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

كُتِبَ فِي الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

الرسالة الرابعة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعاونته إلى الطلبة والموحدين والأعيان والأشياخ والكافة بسبّته أدام الله توفيقهم وكرامتهم بتقواه، ويسر لما يحظي برحمته ويديني من رضاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله. والحمد لله الذي أرغم لهذا الأمر العزيز شَمَّ المعاطس، وألان بأيده قباج الجامح الشامس، وأخضع لعزته وسطوته كل جيد متناول وأخضع كل لحظ مشاوس، وحكم بظهور أمره، واستيلاء غلبته وقهره، على ما توغل في الشوم الشوامخ وتوغل في البید البساس، ويسر له من الفتوح الخارقة للعادة، المقودة بزمامي البركة والسعادة، ما تجاور تقدير المقدّر وقياس القائس؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، المختار من أشرف المحاتد وأطيب المغارس، المسكت بفرقانه المعجز، وبيانه الموجز، كل نافس، والمأحي بنور نبوته الخاتمة للمل، وشريعته الناسخة للأديان والنحل، مظلمات الغياهب ومُدلهمات الحنادس؛ والرضا عن الإمام المعصوم؛ المهدي المعلوم، الذي أحيا الله به من مراسم الإسلام كل دارس، وأبان بظهوره من معالم الإيمان، ومناهج التوحيد والإيقان، كل طاسم طامس، وختم بأن لا نجاة في العاجلة، ولا مفاز في الآجلة، لتتوقف عن طاعته متقاعس؛ وعن خليفته سيّدنا الإمامين أمير المؤمنين

المخصوصين من تمشية أمره، وصلة عضده ونصره، بالمقامات العلية النفائس، المحبوبين من الانتهاض بخلافته، والقيام بعهوده وأمانته، بالكرامات الموقوفة عليهما الحبايس، المظهرين لكلمته العالية، ودعوته المستمرة إلى قيام الساعة الباقية، في أشرف الرؤاء وأفخر الملابس.

وإنا كتبناه إليكم أسمعكم الله من بشر هذا الأمر العزيز ما يفعم أرجاءكم طيبه، ويقوم بأكتافكم خطيبه، ويتمهد لكم في ظلاله غَصْر العيش الأرغد وطيبه، من حضرة إشبيلية حرسها الله تعالى، والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، والتيقن بأن الله تعالى في محاولات هذا الأمر العزيز أسرارًا يُسلم المؤمنون لها، ويتتهج السعداء الموفقون مناهجها اللاحبة وسُبُلها، ويتحقق الصادقون الموقنون أن الخيرة التامة، والمصلحة العامة، لا تعدو مجملها ومفصلها، ثقةً بما أنسوه من أنه سبحانه يوضح لأوليائه المسددين مشكلها، ويفتح مقفلها، ويحملهم على ما يصفى للمسلمين مورد الأمانة ومنهلها، بحيث لا يمسه نصبٌ ولا قدح، ولا ينالهم إكداءٌ ولا كدح، ولا ينيهم نصرٌ ولا يتأخر عنهم فتح؛ والله المحمود على ما أولى من صنعه وآزره عونٌ وظاهره نجاح؛ لا رب غيره.

وكنا وفقكم الله عزمنا في هذه الحركة السعيدة على غزو الكافر بهذه الجزيرة من جميع أرجائه، واستعانت به سبحانه على إبادته وإفناؤه، واستتجاز وعده الكريم في إظهار حزبه وتأيد أوليائه؛ فاستغفروا الموحدين أعزهم الله وإخوانهم العرب وفقهم الله وبعض القبائل من الرعية حاطهم الله فبادر كلهم بنيات صادقة، وعزائم إلى اغتنام الأجور مسابقة، وضمائر لكل مشوب وريب مباينة مفارقة. واستعجلنا النهوض بمن حضر من جميعهم، ولم يقتض البدارُ والانحفاز التلوم لاستدعاء بعيدهم والاستكنار من جموعهم، على أنا وفقكم الله لا نعتد بالكثرة ولا نعتمد

عليها، ولا نسكن إلى الأعداء ولا نركن إليها، ولا نقاتل إلا بالله وحده ولا نُعَوِّل إلا عليه، ولا نطلب النصر والعون إلا من لديه، ولا نستند في إظهار دينه وتمهيد أمره الحق وتمكينه إلا إليه، نيةً استحكمت فيه تعالى بصيرتها، واستمرت على إعلاء كلمته مريرتها، واستوت في الثقة به سبحانه والاعتماد على عونه جلّت قدرته علانياتها وسريرتها؛ فكان مما أظهر الله تعالى في مبادئ هذه الحركة الميمونة، وعرفه من محاولاتها الميسرة وفتوحها المضمونة، أن قذف في قلوب الكفرة رعبها، وقدم إليهم قبل الأطلال عليهم طعنًا وضربها؛ وأعمل فيهم والعوامل لم تسدد والصوارم لم تجرد حدها وغربها، فطارت نفوسهم شعاعًا، ونخبت أفئدتهم ارتياحًا، وصاروا بحمد الله فرقًا مشتهً وأوزاعًا، وتفرى أديم اجتماعهم وانتظامهم فلاً وتعينًا بغلب وانصياعًا؛ فلاذوا بالخضوع، واستخبثوا بالنخوع، وتيقنوا أن أمر الله القاهر لا تعصم منه سابغات الدروع، ووافرات الجموع؛ فكلُّ منهم داخل من يليه من الطلبة أعزهم الله راغبًا في أن يشفع له، وفي أن ينال من الاعتلاق بدمة هذا الأمر العزيز أمله؛ ووصل بعض زعمائهم ورؤسائهم منتظمًا في سلك من استخدمه الأمر العلي واستعمله.

وسارع عظيمهم صاحب قشتالة إلى مخاطبتنا مستأذنا في إرسال رسله إلينا، ليؤدوا عنه رغبته في التمسك بحبل هذا الأمر العظيم وذمته، وحرصه على الانقطاع إلى جنابه والاستناد إلى هضبته، وأنه يخدم الموحدين أعزهم الله بمحاربة أهل جلدته، ومقاطعة أهل ملته؛ فراجعناه بالإذن له في ذلك لنرى رأينا في حربه أو هدنته. وشرع الموحدون أعزهم الله في حركتهم، واستقبلوا سعيدهم، محتسبين لغدوتهم في سبيل الله وروحهم، متوكلين عليه سبحانه في إنجاح سعيهم وتأنيدهم عزمهم، والمسرات تتلقاهم وفودها، والخيرات تتوالى عليهم ورودها، والبشائر يُرَبِّي على سالفها مستأنفها وجديدها؛ والحمد لله على ذلك حمداً يستدرُّ به تضاعف النعم

ومزيدها؛ لا رب غيره..

ولما وصل إلى قصر المجاز يمنه الله وصل إرساله إلى إشييلية حاطها الله ولقوا
الموحدين مع طلبتها أكرمهم الله وأوصلوا خطابه يفصح بأنهم زعماء قومه، الذين
يعتمد عليهم في نقضه وإيرامه، ويشق بهم في أحكام ما يلزمونه وإحكامه، وأنه ألقى
إليهم مقاليد تفويضه في كل ما يربطونه إليه واستسلامه؛ فسمعت مقالتهم،
واستوعبت رسالتهم؛ فأنهم ما حملهم صاحبهم من الإعلام بما عنده، وقدروا
غرضه في خدمة أمر الله وقصده، وذكروا أنه متى استدعى إلى مشاركة بنفسه أو
رجال بهادر إلى اقتفاء ما رسمه الأمر العزيز من ذلك وحده، فرأينا بعد استخارة الله
تعالى أن من النظر العام المصلحة للمسلمين تشتت أعدائهم، وتفرق كلمتهم
واختلاف آرائهم، وأن من أعظم المعونة عليهم تقاطعهم وتباين أهوائهم. فأمضينا
له السلم على ما فيه العزة لله ولأمره، وعلى وجه يؤذن بحول الله بوقم العدو وقهره،
والله المشكور على ما حول من تسهيله وعونه ويسره، لا رب غيره.

وكان ابن عمه ومنازعه في رتبته عند قومه صاحب ليون في مُهادنة؛ فرغب في
تجديدها، وخاطب ضارعا في تقريرها له وتمهيدها؛ فأسعفناه برغبته وقوفاً عند
شروط المصالحة ووفاء بعهودها. وتجرد العزم لغزو عدو الله ابن الريق إذ هو أقرب
داراً، وأصعب جواراً؛ فصرفنا إلى بلاده أعنة القصد، ولفتنا إليها وجه الاعتزام
والصد، ورجونا الله تعالى في استئصال جهته بالاكتماسح وشوكته بالحصد، والله
المحمود على ما أولى من المعونة في ذلك والعصد، لا رب سواه.

واستمر الموحدون أعزهم الله على مسيرهم إلى قرطبة كالأها الله فحطوا بها
أنقاهم وأخذوا منها أزوادهم، وجددوا بها تأهبهم واستعدادهم، وأقاموا فيها أياماً
استوفوا فيها غرضهم من ذلك ومرادهم، ونهضوا منها على بركة الله وعونه،

وتوفيقه ويمنه، والبشرى تطالعهم بقسماتها الوسيمة، ومقدمات الفتوح تؤذّنهم بتائجها الكريمة، وتيسيره سبحانه يعدّهم بما منحهم من منهجة وعاربة جسيمة، لا يقطعون واديًا إلا عظم به أجرهم، وريح عند الله تعالى تجرّهم، وزكا لديه سبحانه عمّلهم وكرم ذخّهم، إلى أن أجازوا وادي تاجو على بركة الله وتوفيقه وعونه جلّت قدرته لهم مصاحب، وصنعه الكريم مؤازر مواكب؛ وقصدوا مزرعة شنترين فتحها الله فانتسفوا زروعها، واستأصلوا بالأخذ والتدمير جميعها، وتناولوا بالإحراق والتخريب منازلها وربوعها. ثم نهّدوا إلى قلعة للأداء تُسمى طرّش على هضبة منيفة المراقب، مسامية للكواكب، قد انقطعت حافاتها، وبعدت قذفتها، من كل الأرجاء والجوانب؛ ولعظمتها ومكانها من نفوسهم أشبّوها بالبناء الشامخ وحصنوها، وألفوا بها جموعهم المؤتسبة ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم واثمنوها واعتدوا قفل بلادهم فخانتهم بحمد الله آمالهم التي أملوها في استقصائه وكذبتهم ظنونهم التي ظنوها. ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام، ولا يُهتضم المتوكل فيها ولا يُستضام، ولا تثبت لمحاربا لوعورة مراقبها وجوانبها الأقدام، لولا سعود هذا الأمر الذي تؤيده الأقدار وتنجده الأيام، والحمد لله على ذلك حمداً تُستتجز به المنن وتُستدام، لا رب سواه. فتازلها الموحدون أعزهم الله أصدق نزال، وصالوا على كفرتها أعظم مصال، وصدقوهم القتال صدقاً أزال من نفوسهم كل زور انخدعوا به في الامتناع وخيال.

وعندما عضتّهم الحرب الضروس بها، وجرعتهم أكّوس مقرها وصاها، وأذنتهم بخلاف أنفسهم الخبيثة وذهابها، مدّوا أيديهم إلى رحمة هذا الأمر الذي لا يتوقف عن مستمطرها واكف سحابها، ولا ينيهم لطالبها وسيع بابها؛ ورغبوا في أن يخرجوا بحشاشتهم ومن معهم من نسائهم وذرياتهم، ويفرجوا للموحدّين أعزهم الله عن كل ما اشتمل عليه حصنهم من أموالهم وأقواتهم؛ فأجبناهم إلى ذلك لما ظهر

فيه من النظر، وليكونوا لقومهم وأهل ملتهم من المثلات والعبر، وليحدثوا من وراءهم بما شاهدوه من عظيم الآيات والنذر؛ فيزيدوهم ذعرًا إلى ذعرهم، ويصدقوهم فيما عاينوه من أمر الله شر نكرهم، ويؤذنوهم بخراب ديارهم وذهاب أمرهم. وألقى الموحدون أعزهم الله فيه عددًا من خيولهم وأسلحتهم، وأموالهم وأمتعتهم، وفتح الله على هذا الوجه الكريم لأوليائه، وقصم بقهره ظهور أعدائه؛ وأشعر الكافر ابن الريق باستباحته من أمامه وورائه. ووجد الموحدون أعزهم الله هذه المدينة المذكورة قد أخذت زخارفها، ولبست من النظرة حللها الرائقة ومطارفها، وتوشحت رباها ووهادها من غروسها وكرومها بما أعجب مبصرها وأعجز واصفها؛ فابتزوها بهجة تلك الملابس، وألحقوها بمغربات المهامه ومفقرات البساسب، وغادروها بلاءً وعفاءً كأن لم تغن بالأمس الدابر الدارس.

ثم توجهوا منها إلى مدينة طمار، وهي من القواعد المنيعة، والبلاد المخصبة المريعة، ذات كروم وثمرات، ومحارث جمة ومزدرعات، وبساط وسيدة ومناظر رائقات. فأعدتها أختها للخراب كالخرباء، وصارت مثلها كالخرة السوداء، واضطربت فيها نار الدمار والتبار من جميع الجوانب والأرجاء. وفي خلال المقام عليها، وأثناء التعفية لأثرها، كانت سرايا الموحدين أعزهم الله تخرج يمينًا وشمالًا، وتجوس من بلاد أعداء الله شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، وتحلُّ بهم القوارع والفوارق إصغارًا لهم وإذلالًا، والكفرة منحجزون في حصونهم الاشبية، ومعاقلهم المستعصبة، يحنون ضلوعهم على جحيم الحسرة المضطربة الملتهبة، لا يستطيعون دفاعًا، ولا يملكون ذبًا عما نزل بهم ولا قراعا، قد صفرت من أقواتهم أيديهم، واكتسحت أنعامهم ومواشيهم، واستعرت بنيران الخراب والتباب أرجاؤهم ونواحيهم، وحلَّ بها من الدروس، والعفاء والطموس، ما يبعد معه استدراكهم لعمارتها وتلافيهم؛ وملكهم ابن الريق بشنترين أعادها الله ملازمًا لانجحاره، مستكنٌ

في وجاره؛ مدرع جلايب خزيه الطويل وعاره، لا يبرز لمقارعة، ولا يظهر لمصاعة، ولا ييدي من جموعه الذليلة، وجنوده الفليلة، أحدًا لمنازلة أو مدافعة، قد ألقى للخذثة بيده، وطأمن أحشائه ذلًا وصغارًا على كمدته، وجعل الاستتار على قريته المحصنة والالتجاء إلى جدره الممنعة أعظم معتمده، في الإبقاء على حشاشته التالفة وأكبر مستنده؛ وقد أقصده جنود الحق وكتائبه، وانتشرت بجهاته المستباحة جحافل ومقانبه، وتدكدكت بوطء العساكر المنصورة، والجيوش الموفورة، أرجاؤه وجوانبه؛ ولو أصحر الكافر لناله إدراكها، وعُلقت به حبال الهلكة وأشراكها، وغشيه سيلها وحطمه عراكها.

وأقام الموحدون أيامًا يدوسون بلاده، وينسفون رغده وثماده، ويحملونه من أوق المضرة، وثقل المخزاة والمعرة، ما لا يستطيع حمله وأوده. والحمد لله رب العالمين، وكنا وفقكم الله بحكم انقطاع ما بين المسلمين والكفرة من البلاد، وحمل الموحدين أعزهم الله من قرطبة كلاًها الله ما يصلحهم من العلف والأزواد، وأخذهم في ذلك بواجب الحزم ومتعين الاستعداد، مشينا بهم على هيئتهم، ولم يتأت الإسراع بحركتهم، وأخذ أعداء الله على غرتهم، والانكماش في المسير الموجب لفجأتهم وبغتهم؛ فطارت الأنباء إليهم قبل أن يدهموا، واتصلت الأخبار بهم فأحكموا حذرهم وأبرموا، واستعجلوا بضم ما أدرك من زروعهم، وبأدروا بالجللاء عن بسائطهم وربوعهم، واستعدوا في حصونهم المؤتشفة بأمدادهم وجموعهم؛ فلم يتسع للموحدين أعزهم الله ما أساروا من طعامهم، ولم تتمكن مع قلة العلف أسباب مقامهم؛ فرأينا وبالله التوفيق أن نقلهم بما نالوا من خيرات عميمة، وأحرزوا من أجور غنيمة، وحازوا من منالات جمة ومفاخر كريمة؛ فإن حركتهم السعيدة أشرقت ابن الريق بريقه، وسدت عليه مسالك نهجه وطريقه، وأرته شجى نفسه، وخزي يومه وأمسه، في حزبه الذميم وفريقه، وقذفت بأمره الدابر، وجمعه

الخاسر، في سعي الهلك وحريقه. فعدنا إلى بلاد المسلمين مهدها الله صدور الركاب،
وثنينا إليها زمام الرجعة والإياب، شاكرين الله تعالى على ما نول من نعمه الجمّة
ومنته الرغاب؛ وانقلب الموحدون أعزهم الله إلى هذه الحضرة حرسها الله بنعمة من
الله وفضل أكرم انقلاب، مستصحيين من عوارفه سبحانه كل نعمة دائمة السمع
هاطلة التسكاب.

وعرّفناكم وفقكم الله بهذه المسرات الكُبرى، والآيات الواضحة الحُجُول والغرر،
لتأخذوا بحظكم من سرورها، وتفيضوا بقدحكم من حمدها وشكورها، وتشاركوا
بشكرها ونشرها في جسيم حظوظها وكريم أجورها؛ والله يجعلكم من المتحدثين
بنعمه، الشاكرين لآلائه وقسمه، المستمدين بحمده سبحانه درور جوده وكرمه، بمنه
وفضله، لا رب غيره. والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كُتِبَ في السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وخمسةائة.

الرسالة الخامسة والثلاثون

وهي من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش:

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بفاس وعملها أدام الله كرامتهم بتقواه، ويسرهم من العمل والشكر لما يتقبله ويرضاه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله الفتاح العليم، المنزه بسبطان العقل عن التلث والتجسيم، حمدًا يكون إلى العوارف سعيًا، الواحد الذي استحال عليه جواز العدد، واتخاذ الصاحبة والولد، فتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، القاذف بالحق على المبطلين، وبالصدق على المكذبين، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً، مُثِيبٌ من توجّه إليه وتوكل عليه فتحاً قريباً ومغانم كثيرة وكان ربك قديراً، ومنجده من السبع الطباقي، بمن يغني عن السمر العوالي والبيض الرقاق، وكفى بملائكة السماء ظهيراً؛ والصلاة على سيدنا محمد نبيه المرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، مطلع الآيات الكُبرى؛ على مراقب السمع والبصر، فطوبى لمن كان سميعاً بصيراً، والمجاهد بجيش القرآن، من دعاهم إلى السجود للرحمن، فقالوا: {أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً} كاسر الصلب والأصنام، ومُعجز فرسان المنطق ورؤساء الكلام، حيث لم تعدم البلاغة لساناً ولا الرمح مديراً؛ وعلى آله وصحبه الذين اتبعوه قولاً وفعلاً، فكان حكمهم فاصلاً، وسيفهم قاصلاً، ولواؤهم منشوراً؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُعيد الحق وقد أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً

مذكوراً، والمنشر بنور هدايته، وظهور رايته، قلوباً سكنت من الجهل قبل القبور
قبوراً، والمحبي بخاصي صفحه وبيانه، نفوساً قابلاً والمهلك بحادي سيفه وسنانه،
قوماً بوراً؛ وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين الذي اختاره الله سجيراً،
وللمؤمنين أميراً، متلقى راية الإمامة في مغرب الشمس والله قد أعد لها في مشرقها
منبراً وسريراً، والكاشف ما دجا من الفتن المدهمة، والخطوب المصمة، وقد أمسى
جَنَحَ ليلها ذابلاً وأصبح شرهاً مستطيراً؛ وعن سيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا
الإمام أمير المؤمنين متقبل آثاره، وباسط أنواره، يقرؤها أثرًا وأثرًا ويبسطها نوراً ونوراً،
والمعطى من الكمال، وشرف الخلال، ما يردُّ الذهن كليلاً ويصرف الطرب حسيراً،
والمعان بالنصر الذي لم يزل النهار مواكباً والليل سميراً.

وإنا كتبناه إليكم وألسن الأقلام، تعجز عن حقيقة الإعلام، لعلمها بأن إلينا في
صنع الله العظيم سبحانه طويلاً، وأن لسان هذه الحال الشريفة أقوم قيلاً وأكبر
تفصيلاً. من حضرة إشبيلية حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل
بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن تعلموا أن الجيوش وإن كثرت جنودها،
وانتشرت ذات اليمين والشمال بتودها، فلا ثقة إلا بالواحد الذي يغلب، والكتائب
الباغية كثيرة الأعداد، والاستظهار إلا بسيفه الذي يضرب، والسيوف في مضاجع
الأغمد، وإلا فما يؤثر الخميس العرمم إذا لم يكن السعد من نفره، وما تغنى شجر
القنى إذا لم يكن العون من شرفه والفتح من ثمره، وما تفيد عيونه الزرق إذا كان
صنع الله محجوباً عن بصره؛ وكلا ولا حول ولا قوة إلا بمن بيده ملكوت كل شيء
وإليه ترجعون، ولا نيل ولا نجعة إلا من وعده لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس
لا يعلمون؛ والحمد لله عوداً بعد بدء على المواهب التي يتلاحق موحّدها ومشاها،
والعطايا التي لو خير الدين في كل أمنية عدا لما تعداها، والمنح التي قد أنبأت بها
الغيوب فلو تنكرت لعرّفت بسيماها.

وإلى ذلكم أوزعكم الله شكر النعمة فإن الله سبحانه لما كسر طاغية الروم الكسرة التي أعزت الحنيفية، وأذلت النصرانية، وفتح من معاقله الأشبة ما فتح، ومنح عباده من أنفاله وأسلابه ما منح، أجفل لعنه الله إلى قشالة فتحها الله إجفال الظليم، وقد أبقي منه سيف الله ما يبقي الصباح من الصريم، والرياح من الهشيم. وفصل الموحدون وشكر الله ملء حقائبهم، وصنعه الكريم حسب رغائبهم، وشرعة العود متمار قناهم وقواضبهم، لا بتمن للقاء العدو، ولا بتصويب إلى مهواة الكبر والعلو، بل بمجرد الافتقار إلى الواحد الذي ينصر من ينصره، ويزيد الإحسان من يشكره، ومحض الثقة بقوله تعالى وهو أصدق القائلين: {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين}. ولم يزل الكافر يرغب في السلم رغبة منخوب الفؤاد، موتور الأمل، مقطوع السبب، وتكررت مخاطباته فردت بالخطوات على أدراجها، مشعرة بأن استخارة الواحد القهار على غزوه بسبيل أجامها على الله وأسراجها وما يصنع بالرغبات المذحولة والخيال الرماثم، وصنع الله الذي عود عباده مقرون بنواصي الغزائم، وجانب الظفر الذي من به سبحانه أشد وأوثق، ونسب القتال في شرف الإسلام وأهله أكرم وأعرق.

وعند ذلك تحرك الموحدون على ما جاءت به السنة الحنيفية من الإعداد والإرهاب، عالمين بأن لا عدة ولا عُدَّة ولا قول ولا صول إلا بما يفيض عليهم من خزائن رحمة ربهم العزيز الوهاب، عائذين بالله من الإعجاب أن يركبوا له طرفاً جامعاً، ويمدوا إليه طرفاً طامحاً، ويوطئوا عقبه نافلاً وراحاً، بل هم القوم يستنجزون ما جاء به الوعد، ويتظرون ما عود الأقبال المتعارف والسعد، ويسلمون في كل مكان وزمان لمن له الأمر من قبل ومن بعد؛ فأول ما مررنا به حصن من أنتش وهو حصن يتلفع بالعنان، ويقتض الطائر بالسنان، ويقذف السجاعة في روع الجبان الهدان، على طود قد سافر في الجو مُقتربا، ولم يرض الجبال أكفاء ولا بالبسيطة

مُنْتَسِبًا؛ فقبل الخلوص إليه من العروج، والنزول عليه من السروج، فتحه الله فتحا
تفائل التوحيد فيها يؤمله، وقال أهله: اللهم اجعله مفتاح كل باب نستقبله.

ثم عمدنا إلى تَرْجَالِهِ قاعدة الشجر الشمالي ترضعه بدرها، وتدربه على شرها،
مدينة لم يخافوا عليها للحوادث ظفرًا ولا نابًا، ولا توهوا أن سيغلقون لها في وجه
منازل بابا؛ فعندما سمعوا بالمرور عليهم نادى فيهم مُنادي الجلاء في ساعة القتل
والسبا؛ فاتبعهم من سرعان الجيوش من قتل مقاتلهم وسبى حريمهم ولم ينبج منهم
إلا من نخطأه جناحُ السيف أو دخل في خفارة الليل.

واقتدى بهم في الفرار أهل شتقروس وهي القلعة الحسبية في الامتناع، المجلوة
على منصة اليفاع، أول حصن بالجهة أُهينت فيه شعائر الله وأُتخذ فيه المسيح وأمه
إلهين من دون الله، منه تفتحت أبوابها، وتوزعت أسلابها، واستُبيح بالغدر حماها،
ورماها الكفر إلى أجل مسمى بالداهية التي رماها. فُشحت ثلاثتها خيلًا ورجلا،
وأترع لها الحزمُ غربًا من النظر الكريم وسجلا، ونقل إليها من أهلها كل من كان
يستسقى لعهدا هطالًا من الديم، ويرى وجدان كل شيء بعدها كالعدم. وكان
يجاورها من معاقل الكفرة ما لم يلحق في المنعة بغايتها، ولا تُصب في الحرب رايةً مثل
رايتها؛ فاقتدح فيها زندُ الاستخارة، على الهدم والعمارة؛ فأخذها الرجفان أخذًا
وبيلا، وصُيرت للفور بإذن الله كشيئًا مهيلًا.

ثم أجزنا وادي تاجو وهو سور الأرض التي كان بالأذان عهدا، وزلزل بالناقوس
غورها ونجدها، بعد أن قيل للموحدين على شاطئيه الإسلامي: ادخلوا عليهم الباب
فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، وعليكم بتجديد
النيات، واستئزال نصر الله تعالى على هذه الرايات. فبايعوا بيعةً سرّت بها في دين الله
المشرقية والقنى، واستنت بها خيل الكلمة الإسلامية في سرف المنى.

ثم سرنا بتغلغلين في أرض الروم إلى مدينة إبلتانسية وكانت مدينة تهالك في إنشائها برهةً من السنين، ونقل إليها من أهل الشمال كل من تلقى راية الحرب باليمن، وحدث فيها نفسه بآمال سبق إليها الفساد قبل الكيان، وانعدام الخبر قبل العيان؛ وإذا بأهلها قد غزاهم من الرعب جيش طارق، وسيف بارق؛ فودعوها وداع من يحسب كل صيحة عليه، ويظن البلاقع والبراقع جيشاً ناهداً إليه، واغتر بقصبتها من كان يُدبر حربها، ويشد بزعمه دربها، وهم جملةٌ كبيرة من الروم فيها زعماء مشهورون ما منهم إلا من كان ذا راية منشورة، وكثيبة مستورة، وفتكة في المسلمين المذكورة؛ فاستولى الموحدون على المدينة يُدمرونها تدميراً، ويُتبرون ما علا منها تتياراً، ويزيحون أهلها تتيماً وتحسيراً؛ وغلبت القصبة على الكفرة فلاذوا ببرج أصيل المنعة، محكم الصنعة، عريض الحافات، باسق الشرفات، فأرسل الله عليهم سحباً دلوحاً من النبال، وقذفاً بضُم كالجبال، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال؛ فلم يلبثوا إلا ليلةً وقد نزلوا على حكم الأسر، باضطرار منهم وباختيار من القهر والقسر، ويدلهم الله بالجبن والخور من تصميمهم وإقدامهم، وصُيرت السيوفُ التي كانت في أيديهم أغلالاً في أعناقهم وقيوداً في أقدامهم؛ ولفقدهم على الكافر أشد من ذهاب البلاد، فإنهم كانوا عند أهل الآراء المسموعة والسيوف الحداد.

ثم عطفت الأعتة على أعمال طليعة فأوسع الله أرضها اعتسافاً، وأقواتها انتسافاً، وعماثرها خراباً، يقول عنده الكافر: يا ليتني كنت ثراباً، ثم جئنا ظاهرها وكانت جنتهم التي يتفيئون ظلالها، ويعتمدون استقلالها، يفرحون بها أوتوا منها، ولا يعرفون لبأس الله حقيقة ولا كُنْها؛ فاستوصلت أشجارها الملتفة أصلاً وفرعاً، وأفنيت حدائقها الأنيقة قضبا وقطعا، وتلاقت عليها عوامل الحديد، ببأسه الشديد، إرغاماً لأنف الكفرة وجدعا. فلما صفرت من الخير، وصارت أوحش من جوف

العير، وذبل روضها الخضل، وخرق حجابها المنسدل، وقالت الكفار بلسان الحال: ودّعوا في جناتي آمالكُم، واندبوا في عرصاتي أحوالكُم، فوّض عنها الموحدون في رحال ثقيلة، ورجال طويلة، يمرون على البلاد مر السيل بالليل لا يُبقي ولا يذر، إلا ما لم يمر بالخاطر ولا وقع عليه البصر، ينزلون على الزرع وقد شابت بها نواصي الوهاد والنجاد، فلم يرحلوا عنها إلا وقد عاد بياضها إلى السواد، ويعمدون إلى القرى الظاهرة، والمدائن الباهرة، فيجدونها بالأقوات راجحة الميزان، كثيرة الحسان، خاوية على عروشها، من قُطانها وجيوشها، قد أسلموها لكلمة الإسلام، وفارقوها قبل سهيل الخيل وخفق الأعلام، وطُرحوا يريدون أقاصي الروم على غير طريق، فتخطقهم الطير أو تهوي بهم الريح في مكان سحيق، فمنهم طريد خوف، وحصيد سيف، ومنهم من أصابته الرماح كسبا، وأخذته السفاح ولكن يُسرّ غصبا، فإذا نزل بساحتها نزلت بعقرتها أمّ الخطوب السود، وأحى أثر نجمها وشجرها من ديوان الوجود، هدمًا خبيرًا، وحريقًا مستطيرًا، وقطعًا استأصل معمورًا ومغمورًا؛ والله يقدم إلى ما يعمل الكافر من عمل فيجعله هبًا مثورًا.

ولم يُعْهَد لعمارة هذه المدائن المذكورة، لما عرض لعمارة ما فتح الله في صدر الحركة المنصورة؛ فإن تلك وبلاد الإسلام كانت متراثية النارين، مُدانية الدارين، يتعارف بينهما أهل الملتين، بالاسم والعين، فقصد بعمارتها طيُّ بسط الكافرين ونشرُ خطة المؤمنين ومشي للناس في مناكب الأرض وأطرافها آمينين وادعين؛ ولم يُلحَخ في بلاد الروم إلا طلبًا للكافر عينه، فيستوفي منه سيف الله بقية دينه، ولو كره المفر، وجره رسن الاغترار كما جر، لورد من أمر الله بحول الله ما أحاط به عِلْمًا، وانطبع في نفسه الخبيثة المردودة نقشا ورقما، ولكن تدكّر فتواري في قشتالة بالجبال، ولف فيها رأسه حياءً من الكفر والضلال، وخلّى البلاد والسيف يحكم فيها كيف شاء، ويبدع الإعدام والتدمير لا الإيجاب ولا الإنشاء، وجهده العُص على يديه وكذلك يفعل

الظالم، ويروم الاعتصام وكيف يعصم ولي الشيطان والله هو العاصم؛ فكل ما عرض لحزب الله في طريقه، ألحق بحزب الشيطان الذي أهلكه الله بالأمس وفريقه.

فلما صارت البلاد كأن لم تُغْنِ، والمعاقِل كأن لم تُبْنِ، وعلم أن من حيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات، أحياء ولكن في عداد الأموات، صوّبنا على طليطلة قاعة الصُّفْر، وأم بلاد الكفر، وجئناها من جهات أبواب قشتالة وهي الجهات التي كانوا يأمنون من اققتها، ولا يسدون باباً يقضي إلى طريقها؛ فأخذهم العذاب وهم لا يشعرون، وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يبصرون، واستقبلتهم العِبر أفواجا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويها وإدلاجاً، إلى أن نزلنا بظاهاها الشمالي ولم بجيوش الإسلام لم تُوقِع بصراً على حدودها، ولا جُرّت صيدة في صعيدها؛ فردّ ما كان يليها منه نفثاً، وقاعاً صفصفاً، بين هدم يستأصل الشأفة، وحريق يلتهم الجهلة، وقطع ينحت الأثلة، ويحصد الشوكة. ثم تظاهر الموحدون ثاني يوم فيما أعطاهم الله تعالى من قوة العدد والعديد، وفاضوا على أعطافها في بحور الخيل وأمواج الحديد، كل قبيلة في شعارها الموسوم، وعلى مدرجها المرسوم، كأنهم من البحر ليجّ موجه متراكب، وأسحاب خريف زعزعت الخائب، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين، وللکفر وأهله الخسران الممين، والعذاب المهين؛ فبرزوا عليها تبريزاً ثوب إن شاء الله لبقعتها بالرضوان، وقرب الأوان، والانتصاف من الكفر الذي نجسها بين أخواتها، وعطّلها من الإيمان، الذي هو حلي أترابها ولداتها، ونادى في المشركين بتقويض الرحال، ورمي الأقصى فالأقصى من أسياف البحار وجزائر الشمال، وأفصح لهم ذلك اليوم بأن الله طالب مدرکها وهو الحق الذي قامت به السموات والأرضون، والمنهاج المبين والدين القيم الذي هم عنه معرضون.

ثم أجزنا وادي تاجو إلى جنبها الإسلامي، وهو منشأ دوحها المائس الأعطاف،

وحدثتها الغلب ذات الألفاف، وجناتها المعرشات وغير المعرشات؛ وفوائدها التي هي عندهم من كمال الدين وقوام الحياة؛ وفيه المنية التي كانت جنة الكافر ومأواه، وحظه من أولاه وأخراه، فكر على الجميع المؤمنون كرامة، فكان انجعافه بإذن الله مرة؛ فلم يكن بين رويتها في حُلَى الحسن والابتهاج، وتضاؤلها في شُعْر مسودة كالليل الداج، إلا بقدر ما غير الله نعمها بالبوس، وبدلها من الأمن والحفظ بالخوف والجوع وهو شرُّ لبوس. وهذا القطر كان عندهم مركز اللواء، وكرسي الاستواء، والحرم الذي يُنفر طيره، ولا يبيد خيره، فالحمد لله الذي أباده، وسرَّ جهاده؛ فلا بُلغة حال، ولا مسحة جمال، ولا أمل يتعلق الكفر بذيله، ونيام ولو غِرَارًا في ليله؛ وأعرض عن قتالها، وقاتل ما تعلق به الكفرة من بعض أعمالها، وإن كان ذلك بالإضافة إلى ما استغرقه الدمار، وأتى عليه البوار، قليل الحساب، ضعيف الجزء في الانتساب، ترفيهاً للموحدين وإجماماً، مع العلم بأن الله سبحانه قد أعطاهم جرأة على كل عزيمة في ذاته وإقداماً؛ ولو أُشير عليهم في قتالها بلحظة، أو أُكدت لهم بلفظة، لما تعذرت عليهم بحول الله أفعالها، ولا غربت عن أيديهم أنفائها، ولكن أراد الله أن يجمع لهم في هذه الغزاة الكريمة بين الفتوح الجليلة، والغنائم الجزيلة، والجهاد المبرور، والانتقال بالعدد الموفور، وترك سيف السطوة في العدو يضرب يميناً وشمالاً، ويتراءى يقظةً وخيالاً، ويبث سرايا الجوع، والرعب المانع من الهجوع، ويُخرج عنها الأضعف، فللأضعف، حتى يرجع المليء عديماً، والمخدوم خديماً، وهناك توجد إن شاء الله بفتحة الأبواب، ميسرة الأسباب، في غير سيف يُسَلَّ، ولا دم لمؤمن بفضل الله يُطَلَّ.

وخلال هذه المحاولات الكريمة كان صاحب ليون، وهو ابن عم هذا الكافر المغرور، قد استجار من أمر الله بذمة، وتوسل إلى المسألة بخدمة، وألقى الله بينهما حرباً، استدعت منها طعناً وضرباً؛ فشغل بالرغبات، أفواه المخاطبات، عسى أن

يُبعث إلى أرضه بجيش من المسلمين يغزون عدوهم وعدوه من جنابه، ويدخلون إلى سرارة أرضه من بابه، وهو بابٌ ما أقدم عهد المسلمين ببابتيه، ويارسال الأعنة في جنبتيه؛ فسبحان المغرب، كل شأٍ مغرب، والمنعم على أهل هذا الزمان، بما كان إلى الاستحالة قبل أقرب منه إلى الإمكان؛ فبعث إلى أرضه جيشٌ من المسلمين هالته شجاعتهم، وبهتته إنابتهم لله وطاعتهم، وألتهته عن كل شيءٍ قدرتهم بالله على العدو واستطاعتهم؛ فحكموا على بلاد الكافر بحكم الكلمة العليا، ونالوا فيها ما شاءوا من دين ودنيا، وتنوعت في عدو الله الرزايا، وأخذت عليه المكارة الأنقاب والثنايا، وصار لا يستطيع دفعا، ولا يملك لمن اتبعه ضرا ولا نفعا؛ ولو يعلم الكافرون أن الكرّة عليهم تجوس الحلال، وتهلك الحي الحلال، وتمحق الكفرة محق الوبا، وتذرو ما جُمع وما عُرس بين مهيب الدبور ومهب الصبا. لاعتاضوا من الإقليم الخامس والسادس بمنقطع الترب، ولم يقنعوا من السابع إلا بمسامة القطب.

ولما كتب العمل الصالح، وحصل المتجر الرابع، واشتمل الغزو على فتوح كثيرة، وأيام على الكافرين عسيرة، وتُركت البلاد عُرضةً لأول طليعةٍ إن شاء الله تُطل، وراية بحول الله تظل، فريسةً بين يدي سيف الخوف والجوع، والأمل المقطوع، وهو سيف الله الذي يدرك ما طلب، ويجهز كلما ضرب، أخذ الموحدون في القفول على ميعاد، من أعمال مستغيثة بكلمة الإسلام وبلاد، ويا له من قفول ما أعزّ أناءه، وأصدق أنباءه، وأكرم حله ورحليه، ومعرسه ومقيله. وعرض في صدر الإياب معقل دار الغارة^(١) على مرحلة من طليلطة، وكان بابها الذي لا ينأى إلا على سده، وظلها الذي لا يُسكن إلا في مطارح مده، والقلعة المسماة ببطربونة، وكانت ركاب الكفار إلى الضرر، وموقد نارهم المتطايرة الشرر، وفيها جملةٌ كبيرةٌ من محاربة

(١) اسم هذا الحصن تحت الشك لكونه غير مضبوط في الأصل المنقول عنه.

الكافرين، وشجعانهم الأفريرين، بقية سيف الله المسلول، ونسالة جيش الصليب المفلول، وكلهم قد عقدوا على الموت حباهم، ووثقوا حيث لا ثقة بقلوبهم وأستهم وظباهم. فلما سلقتهم السنة القتال، وكشف لهم الغطاء عن خيال الضلال، رضوا من الانتصار بالإسار، ومن فائت الرياح بحاصل الخسار؛ فنزلوا مسرعين، ولبوا داعي الرق مهطعين، وحشروا في زمرة أهل دينهم السابقين إلى القيد، المستضعفين ما جاءوا به قبلهم من الكيد. وعُمَّ المعقلان برجال من المؤمنين يقيمون فرض الجهاد، ويهجرون فيه النوم للسهاد، ويرون الوقوف كل حين على طليطة وظيفة دينية، وعزة دنياوية. وطال ما كانت حجرة على النوائب، سلاً على الجيوش الكثيفة والكتائب؛ وما هي اليوم وخيلُ الله تسرح في شعابها آمنة، ورماح المجاهدين تندق في أبوابها طاعنة أسيرة الركب، وقعيدة الخطب، ضعيفة الخيل، ونفي من أرجل الخيل، ليس على جادتها إلى بحر المجاز صليب يُنصب، ولا ناقوس يُضرب، لا إهلال لغير الله، ولا نداء إلا بذكر الله حتى ينجز الله وعده في سنامها، ويفيض نور الملة المحمدية على ظلامها، بحوله وقوته.

فاشكروا الله على نصره الذي يفرح به المؤمنون، وروحه الذي يأيس منه القوم الكافرون، واعلموا أن الله لم يرض لقوم بالكفر إلا ليجعلهم أحاديث ويمزقهم كل ممزق ويفتح عليهم باباً ذا عذاب شديد ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً، ويستقر في نفوسكم أن الأقلام لا تفي بالإيضاح، ولا تستقل بالإفصاح، ولو ركبتم من الإحسان كل سنن، وجاءت من البلاغة بطريقة أهل كل زمن، فصنعُ الله أكبر، وآتاه أشهر، وفعله سبحانه أيسر خبراً، وأبقى على ميسم الأيام أثراً. وقد حضر هذه الغزاة الكريمة رجال من أعيانكم ممن حركه السعد، ولم يقعد به البعد؛ فلتؤخذ منهم الأخبار على نسقها، والأحاديث من طرقها، زيادةً في البيان، واستنامةً إلى مشافهة أهل العيان. اللهم

أوزع شكر هذه الأمة على الزمان، الذي استدار بالفتوح المتناسقة تناسق الجمان،
والرعب الذي ينوب في أعدائهم مناب الخميس الأرجوان، ضاربًا بغير سيف طاعنًا
بغير سنان؛ إنك على كل شيء قدير، وإنك نعم المولى ونعم النصير. والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته.

كُتب في التاسع من شهر رمضان المعظم سنة ثنتين وتسعين وخمسةائة.

الرسالة السادسة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش المذكور:

الحمد لله فاتح الأعلاق، ومانح الأعلاق، تُمدّ هذه الدعوة الإمامية من السبع الطباق، وناصرها في البحار المرتجة الغوارب النازحة الآفاق، الواحد الذي فطر هذه العصاة على التظافر في إعزاز دينه والاتفاق، وأغناهم في كل موطن ومأزق طعن وضرب عن السمر العوالي والبيض الرقاق؛ والصلاة على سيدنا محمد نبيه ورسوله المنشئ في أشرف المناسب وأكرم الأعراق، المنبعث لتغيير السنة الجاهلية ولتتميم مكارم الأخلاق، المصطفى على حين فترة من الرسالة، وعموم من الجهالة والضلالة، بالآيات الساطعة الوضوح النيرة الإشراف، الداعي إلى الله بالمواعظ المستولية على القلوب والسيوف المستعلية على الأعناق؛ وصلى الله عليه وعلى آله ما أرسلت السماء بالوابل الغيداق، ووجبت الغواصي الغر بالإرعاد والإبراق؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الآتي زمانه والدين إليه بالأشواق، المعتز مكانه بالاجتماع النبوي والاصفاق، متلافي الشريعة النبوية من فهوة الابتداع والاختلاق، ومُنقذها من أيدي الرؤساء الجهال وهي تأخر الأرفاق؛ وعن الخلفاء الراشدين المرشدين المحافظين على العهد الإمامي والميثاق، المستترلين من أسرة الطغيان، وضروح الظلم والعدوان، أهل التيجان والأطواق، الظاهرين في كل محاولة يُصادمها وجه الباق، الغالبين في كل حرب مُلتفة الساق بالساق؛ رضي الله عنهم أجمعين ما جرب خير فضائلهم في السياق، وأشرقت الأرض بنورهم إشراق العارض البراق.

وهذا كتابنا إليكم - أسمعكم الله من البشائر أبعدها مطارح، وأبرعها سوارح، وأيمنها خواطر وسوانح، وأرواها قلوبًا ظامئة وجوارح - من حضرة مراکش حرسها الله والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، والعلم بأن هذا الأمر حجة الله التي أفصحت مقاولها، وأظهرت على كل من في قلبه زيغٌ قبائلها المنصورة وقنابلها؛ أطلع الله شمسها والدين غريب، وأفاض نوره والحق ليس له داعٍ ولا مُجيب؛ فكور شمس المحادين، وأظلم ديجور المضادين، بتبليغ أمر الله الذي اكتفه البشير النذير، وصدع به الهدى والكتاب المنير، وتبينه كل من عقد الشيطان على قافية رأسه ولم ينظر لنفسه، بإعمال فكره وحده، معتزًا على من اختصه الله بالآفاقة والعباد، وأمدّه بالجيش للذكر النافعة والسيوف الحداد. ونصب له من القرآن علمًا هاديًا، وجعل له من خوف المقام والوعيد سابقًا وخاديًا، ليمتاز فريق الجنة من فريق السعير، وليتغين البصر الحديد من البصر الحسير؛ فمن يتلق راية النجاة باليمين، ولم ير نفسه أهلًا لأن يكون مع الحق المبين، فقد تعرّض للعذاب الشديد والنكال العتيد، وما ريك بظلام للعبيد، كما أن من نضا عنه أثواب الجهالة، وأسلم من إشراك الغواية والضلالة، فقد سبق له السعد في أم الكتاب، وصار بمفازة من العذاب، وعلى شرف من كرم المآب.

وإلى هذا وفقكم الله، وأوزعكم شكر نعماءه، فقد علمتم أن الله استأصل شر الأنعام، ورُعاء الإبل الصّم البكم أهل اللثام، وطهر منهم المغرّين تطهيرا، وكفر سيئات الأرض التي أقلتهم، والسماء التي أظلتهم، بحسنات هذه الدعوة الإمامية تكفيرا؛ ولم يُبق منهم إلا من كان بجزيرة ميورقة لجئوا إليها، وتعلقوا بياسة ومنورقة جناحيها؛ فكانت في بساط المغرب نُكتًا سودا، وكان أهلها على ما انتشر في الدين من لطائف الحسينيين شهودا، وما زال الخلفاء الراشدون يدعونهم بالذكر الذي هم له غافلون، وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون، تقذف

إليهم في كل حين دُرر المواعظ أمواج البحار، وتطلع الآيات البينات عليهم طلوع النهار، وهم لا يزدادون إلا مريمَ متقاذفة، وعمايَ متكاثفة، وضلالا مازجا، وعملاً عن الحكمة الربانية والسنة النبوية خارجا؛ وكلما وعظتهم الأيام، وخطبتهم السيوف والأقلام، وظهرت لهم الآيات في الآفاق وفي الأنفس، واستمعتهم النذر من حصيد فروعهم الراوية وأطلأهم الدُرُس، أتوا من العداوة بأجحها عنانا، وأصرمها حديثا وعيانا، وأخزاها لهم سيفًا ناصلاً وسنانا.

ثم قض الله يبابسة ومنورقة جناحيهم، وقضى بأخذها من الدائرة السوء ما قضى به عليهم، وظن بأن ستكون لهم وغطاً يسرهم لليسرى، ويلين قلوبهم للذكرى؛ فما أفادهم الوعظ إلا عتوا، وما زادهم وهُم في الحضيض إلا علوا. ثم إنهم قرعوا في وقت باب الأمان، وجعلوا الاعتراف لهدمات سيئاتهم وسيلة إلى الإحسان؛ فبذل الله لهم ما أمَّلوه، وفتح لهم الباب الذي قرعوه، وامتنطوا من الإبقاء صهوة لا تنالها صروف الزمان، ولا تحب نحوها عواصف الحداث، والأقدار في ذلك تسوقهم إلى حينهم، وأحكام الله بالمرصاد لزورهم ومينهم؛ فلم يمر إلا قليل وقد بعثوا ميورقة بقية الخداع، ونازلوها بأشد الحصار والمصاع، مُتقنعين على غير حياء، جاهلين بأن الله عادة في شفاء أمره من كل داء عياء، غير عارفين بأن العهد ما كفر به قومٌ إلا جب الله عاديتهم وسلط عليهم طالبيهم، وحكم فيهم بالعذاب الهون، ورمأهم بسهام الخطوب الجون؛ فلم يتنفقوا منها جؤادا، ولا شربوا ماءها إلا ثمادا، وعادت إلى الموحدين على ما علمتم كأن لم تنلها مضرة، ولا وطأتها من وطأة الفجار معرة.

وعند ذلك تلمظت إليهم حفاظ الموحدين تلمظ المروء، وركبت همهم العالية ركوب هام في السروج قعود، وعلموا أن هذا الزمان هو المؤذن بحربهم، وأن حجة الشرذمة البائسة داحضة عند ربهم. فجهزنا إليهم في أثناء حركتها التي عرّفنا الله فيها

عجائب من السعود، وأفانين من الأمل المنقود والموعود، جيّشي برّ وبحر، وجمعي معونة من الله ونفر، وأمرناهم بالعزم الذي لا تُرجى دون الظفر غواضيه، ولا تكلّ دون الضلوع والهام قناه وقواضيه، وأتبعناهم من الدعاء ما تقتضيه النية للمؤمنين، والطوية في إعلاء الموحدين؛ فسار الجيشان في سمت، وتكفل الله بإقامة كل صعب من المستصعبات وأمت، وركبوا إلى جند الشيطان، بحرًا سَلَسَ القياد والعِنان، وجواري تسبق في الموج سبق الجياد يوم الرهان، من الصاقيات، إلا أن الرياح قوادمها، ومن الطير إلا أن السراع خوافيها الخافقة ومقادمها، قد جالت بين السماء، وبين بسيط الماء، وأقلت من وجوه الجيوش رجالًا كالنجوم، مُرسلين على السور الذميم، وشيطانه الرجيم، إلى أن نزلوا بساحل ميورقة، وأعلام النصر خافقة، وقلوب الموحدين على التظافر متوافقة، وشعارُ العدو المعرة والهون، والهلاك الذي سُبقت به الكاف والنون، ولسان الحال يتلو ما يوقن به الموقنون؛ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتِيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون. فلم يكن بين الحلول بالجزيرة والظفر بجهااتها الأربع، والاستيلاء على شيطانها الرجيم ومقلها الأُمنع، إلا سبع ليالٍ، سخر الله فيها على الأعداء سبع ليالٍ حسوما، ثم هجم الموحدون عليهم في عقر دارهم هجوما؛ وكانت بين الفريقين حرب، ظن فيه الأشقياء أن الزمان كما عهدوه طعنٌ وضرب، ولم يعلموا أن أمر الله في مزيد، وأن سعده من جديد إلى جديد، وأن ستأتي الأيام بما لا يبقى معه من الباطل باق، ولا يقوم به الضلال والمحال على ساق.

ثم أُجِّل ذلك الموطن عن قتل الشقي وأتباعه، ومحو الباطل المموه وأشياعه، وحصول أُسْرته في قبضة الموحدين، ومغالبة أهل الجزيرة مآل الضالين الملحدين، ورفعت أعلام التوحيد في أعالي جدراته، التي لم يكن لها عهدٌ بعز تلكم الأعمال ولا استظهار في قديم وحديث بالحرب المشمر في خدمة الإيمان والإسلام؛ وأقيمت

الخطبة على منبر كان أشعث أغبر، ثم عاد بالقول الصادق والاعتقاد الحق أزهر أنصر، وعرفت الرعايا بأن الله أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأعتقهم من الجور والخوف إلى يوم النفخ في الصور. وإنهم اليوم في رُباب الرأفة يرتعون، وشرائع العدل والإحسان يكرعون؛ وقد طهر الله صقعهم من الأرجاس، وكفاهم حيف كل يد عادية وقلب قاس. وعُجل إلى حضرة الموحدين برأس الشقي الداحض الحجاج، وأعلامه المركوزة الأسته مواضع الزجاج؛ فرأى الناس من أمر انجلت به السنون، وتمته قديمًا القلوب والعيون، وأعملت فيه للخلفاء ضروبٌ من التدبير، وكل شيء بمقدار عند اللطيف الخبير؛ والله سبحانه قد قضى بأن يكون وارث سعودهم، والفائز بإنجاز وعودهم، والمتقاضي ديون آماهم، واللاحق ما عجل دونه ركاب ارتحالهم، والمشرق بهذا الصنع الذي هو فوق أمل الآملين؛ فله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين.

فأبشروا بهذا الفتح العظيم وتوابعه، ولو احقه الجسيمة وجوامعه؛ واعلموا أن هؤلاء الأشرار كانوا يجادلونكم القبلة وهم عنها مدبرون، ويدعون معكم أيانًا بكتب الله وهم عنها معرضون، أولئك شر مكانًا وأضل عن سواء السبيل، أولئك الذين راموا الشحنة العظمى بالتحريف والتبديل. ثم إن الفتح فيهم فتحٌ في النصرانية، وظهورٌ على ممالكها الساحلية؛ ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف وأوحش من القطع بحلول الممات؛ فإنها توجه إما إلى الصغار، وإما إلى الخسار، وتلجئه إلى أخذ الخطتين قسرًا وقهرًا بالرغم والاضطرار. وأما شقيهم الذي هو بالأطراف الأفريقية فقد نُصب له غراب البين، وجاءته القاضية مجيء السيل بالليل، ووترته الفارقة في أهله الأعزین عليه، وجزيرته التي كانت متى حربه حاربٌ نصب عينيه؛ فأخلق بشياطينه الجماع، وأعرابه الأوزاع، أن يلفظوه لفظ النواة ويعدوه من سقط المتاع، وما بقاء الأبعد

الأصول، وما اغتباط أشياع بالأخسرين والرسوم الدارسة والطلول.

وخاطبناكم بهذه النعمى، والمسرة العظمى، والبشائر الكبيرة الحسنى، لتزدادوا علمًا أن الله على كل شيء قدير، وأنه بعباده خير بصير، وأنه سبحانه يملي للظالم فإذا أخذه لم يفله، وأنه جل جلاله تكفل بهذا الأمر العزيز بنصر الراية، وظهور الآية، وتيسير العسير، ونيل الكبير من الفتوح الكبير. ونحن ندعوه بإيدعوه به المخلصون، ونجمده بما يحمده به الشاكرون العارفون. اللهم إنك قد قلدتنا أكبر قلادة، وعودتنا من نصرك ومعرفتك أفضل عادة، وأسرجت لنا في كل مشكلة سراجًا وهاجا، وأوضحت لنا في كل معضلة طريقًا لائحا ومنهاجا؛ فاجعلنا من الشاكرين في أول رجيل، ونحذ بنا في دينك ودنياك على أوضح سبيل، وأمدنا بمواد نصرك التي لا تنقطع، وآتانا من العمل ما يتقبل به الدعاء ويرتفع، بمنك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الرسالة السابعة والثلاثون

وهي أيضًا من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش المذكور:

الحمد لله تَحَقَّقَ الحق بكلماته، ومُبْطِلُ الباطل برغم دُعائه، وتناصر هذا الحزب في حركاته وسكناته، ومُظْهِرُهُ في كل مَآمٍ يؤمّه، وشَعْبٌ يَلْمُهُ، على عُدائِهِ، ومُنْجِدُهُ على كل منوي، قريب أو قَاصِي، بصادق عداته، الواحد الذي قرن النصر المؤزّر، والفتح الميسر، بعزماته، وعَرَفَهُ في كل شأن يرأبهُ، ومذهب يذهبهُ، نزلات اللطف الإلهي وسكناته، وأياس طوائف الملحدّين، وجماهير المفسدين، من قرع صفاته، وغمز قناته، وجعل الليل والنهار والشمس والأقمار، من بعض عتاده وأدائِهِ؛ والصلاة التامة والبركة العامة، على سيدنا محمد نبيه المؤيّد بسواطع آياته، وقواطع معجزاته، ورسوله المظهر على الدين كله والناس بين أزمة الضلال وحدائِهِ، المُبْتَعَث بشيرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، بالبرهان، العائد بالخسران، على نُفائِهِ، والمُرْسَل إلى الأحمر والأسود، والأدنى والأبعد، من حُضُر المعمور ويُدائِهِ، صلى الله عليه وسلم ما أرتل ركبٌ بفلاته، واستقبل البيت العتيق من جميع جهاته؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، بخصائصه الكريمة وصفاته، متلافي الشرع، من تلاف الأصل والفرع، والموت مصرّح فوق شواته، المبشر به الأثر المتداول، والخبر المتناقل على أسنة رواته، العائد وجه الإيمان، بصدعه في ذات الرحمن، إلى أحسن قسماته، وآنق صفحاته؛ وعلى الخلفاء الراشدين المرشدين، والأئمة الهادين المهتدين، ولالة أمره النبوي وهدايته، ومظهره على كل جبار عنيد وشيطان وحماته، والمقتدين به رضي الله عنهم من علمه وعمله وشدائِهِ وأَنائِهِ، الموصولة أيامهم، المنصورة

أعلامهم، براهين الحق الواضح ودلالته.

وهذا كتابنا إليكم أسمعكم الله من البشائر أقومها قبلا، وأعظمها تقسيما وتفصيلا، وعرفكم من الفتوح أصدقها تأميلا، وأعرقها تأسيسا وتأصيلا، وأطلع عليكم من نفائس الأنباء، وحبائس الآلاء، أدلها دليلا، وأقلها في السالف تشبيها وتمثيلا، من منزل الموحدين أعزهم الله، بظاهر المهديّة فتحها الله والذي نرسيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وأن تعلموا أن دعوة الإمام المهدي رضي الله عنه منارٌ لا يضلُّ عليه بصّر سليم، وشعارٌ لا يغبه فتحٌ ممين وصنعٌ كريم، ونهارٌ كلا طرفيه إلى يوم القيامة وضاحٌ وسيم، بها جدد الله تعالى ريعان الحق وهو هشيم، وأنشر ميت الشرع وهو رميم، وأحياء كما أنشأه أول مرة وهو بكل خلق عليم؛ فمن هُدي إلى طريقها، وأسند إلى ذروة نيقها، ولم يزل لدينه ودينه فريقا غير فريقها، وقد عرف عدو الحق من صديقها، وأشرف عقلا وسمعا على أخذها من طليقها، وكان لها مُناصبا، ولحقٌ من حقوقها عاصبا، فقد استحق بالقدر السابق، والوعد الصادق، عذابا واصبا، واستنزل من سماء الكفاح، وسحاب الأسته والصفاح، سافيا وحاصبا، ومن الله النصر الذي لا تُطوى بنوده، ولا تُروى عن قصد السبيل جنوده، ولا تُتوى بسر كيد، ولا بجهر أيد، صعاده وسعوده؛ وبه العيادُ من عاقبة قوم قد ضلوا عن السواء، وحلوا على العنات لأمر الله والنواء، وراموا الرقي بغير درج، ولا منهج، إلى السماء؛ فكانوا جزر العواء، في البیداء والهواء، وخبر اللسان المشرفي والصعدة السمراء. والحمد لله قالبةً بعد ماضية ولا حقةً بعد سالفة على التوحيد الذي نصر أنصاره، وأظهر على سائر العصور أعصاره، وطهر من كل بهتان وعدوان منابره وأمصاره، والتجسيم الذي أطفأ بحوله وقوته ناره، وأذهب بحكمته ونعمته عينه وآثاره، وأنفذ فيه بعدله وفضله وعيده وإنذاره؛ لا إله إلا هو بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

وإلى هذا أوزعكم الله شكر نعماءه فإن خير الفتوح ما وُقِيَ الآمال وأنصفها، وأعجز قدرة الفراعنة وسادة البراهمة أن يصفها، وأراح صدور المشرفية، ومتون السمهرية، وقد شحذها العزمُ وأرهفها، وقضى مقصود هذه الطائفة وقد لواها اعتراض المتن، ما في ذمة السعد من الديون، وسوّفها، وأشرف الصنع الممنوح بما نخت أقلّة الأشقياء نختًا مستأصلاً، وحكّم فيهم ضروب الرزايا، وأنواع المنايا، فأبادتهم جبانًا هِدَانًا وذمّرًا باسلاً، وبذّر هلال أيامهم عن الابدار، وقد كانوا يرونه بعمى البصائر والأبصار، بدرًا كاملاً، وطهرّ منهم البلاد، وكفى شرهم العباد، فلا يرى الناس لهم قائلاً ولا فائلاً.

وقد كنا قدمنا الخطاب إليكم، وأوردنا فيه من المسار ما أوردناه عليكم، وأعلمناكم على التفصيل بما لقي الموحدون في سفرهم من التيسير والتسهيل، واسترجاع تونس والجريد لأول إطلاهم الذي ارتج لهم ما وراء دجلة والنيل. وبشبات العساكر المنصورة لسُليم بن منصور وهلال بن عامر في كل منزل وسبيل، وبالاتفاق، وانعقاد الاصفاق، على اتباع الشقي حيث طرح به خاطر الحرب، وترامت به وبأشياءه ذوات التضبر والخب، وهوت به الاجزاع التي يقطعها، ويفاع الأرض التي يفرعها، من ثنية موطوءة أو حذب، ويبلغ به الفرار من دو وفُساح. وجو تصافح الشمس براح، وأين الفرار وخيلُ الله في الطلب. وكان حيثئذٍ على باب القيروان وقد بقي معه من العجب ذباب، ووشح بينه وبين الدعوى انتساب، وحل عليه صدى من خيالاته المضمحلة وسراب، وظن أن له في تونس منعقاً لا يعدل عنه في ذلك الوقت ركاب؛ وهيئات هيئات من علم ما يطلب لم يُطف به سورٌ ولا باب، ولا هاله أجاج طوق ولا قفر يباب. فلما سُمع بأن العساكر قد طُويت عليه كواسرها، وعُمِلت على قصده ميامنها المنصورة ومياسرها، وتساوى في الصمد إليه والإقدام عليه دارعها الكمي وحاسرها، وتسابقت إلى تكذيب مُحَاله، والبطش

بمحاله، كتائبها الخضر ومناسرها، ودع إفريقية بغير سلام، ومضى يستند ببلاد
الجريد من له منها أو من غيرها بذمام، وقال بأن الجيوش لا تقتحم عليه الصحراء
في هاجرة واحتدام، واستقر بقفصة على طمانينة بزعمه من هيبة الحسام، ووطأة
الجيش اللهام، وأنى يلقي العصا ويسقربه النوى وسيف الإمام المهدي رضي الله عنه
في أعقاب أهل الشام؛ فلم يرعه إلا عطف الموحدين أعتهم على أثره، يسألون في كل
حال وترحال عن مورده الويل ومصدره، وتحقق ألويتهم المظفرة وتُمرع خيولهم
المضمرة بين ضال القفر وسمره، وتُظلمهم السماء بظل سحابها وتسقيهم العين الغدقة
من شرب مطرها. فعند ذلكم التقت عليه حلقتا البطان، وضاحت به ظهور الرعان،
وبطون الطعان، وعلم أنه ولا بد مضطراً إلى الخروج عن الأوطان.

وبقي له بعض أهل بقابس ليطرفها في البيداء، ولما بين الموحدين وبينها من عدم
الزاد والماء، وطول المفاقد التي يهابها راكب الفرس الوجناء، باطن بالفيلق الجأواء؛
فبينما هو يسوم الرعية بها خسفاً، وينسف معايشها وأقواتها نسفاً، ويستدر مكاسبها
القديمة والحديثة ضرعاً فضرعاً وخلفاً فخلفاً، إذا اقتحمنا عليه صحراءه يسر الله
ركوبها، وسهل لحزبه الغالب حرارها ولُوبها، وملاً من ميامنها سجال المجاهدين
وغروبها، وأوجدتهم فيها من يمنه وكرمه صنوف الخيرات وضروبها؛ فيومئذ لم ير
في التمسك طمعاً، ولا وجد لعثرته القاصمة لعا. وقال لنفسه الخبيثة لو أطاعته:

أيها النفسُ أجلي نجزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وما جبال دمرها الله كما فعل عليه وعلى أشياعه، يرثى لحاله البائسة ولأشباباته
وجُماعه، ويصرم الجبال الواهية التي كانت بينه وبين أطماعه، ويضرب للناس الأمثال
الشاردة في لعب الزمان به وأبداعه.

وجئنا نحن قابس وأقمنا بها مدة نُصلح من أحوال أهلها ما فسد، ونُنفق من آمال قومها ما كَسَد، ونُرُدُّ على باديتها وحاضرتها من كان شرده الخوف والجورُ فشرده؛ والبائس أثناء هذا بين دَمَرٍ ونُفُوسٍ بشر حال، يضطرب بين حل وترحال، ويمني فرقة الضالة من الصبر والتجلد بمحال، وكانت المسافة التي بيننا وبينه إذ ذلكم شعبة الفارق، قمّة المرافق، نائية بمجر العوالي ومجرى السوابق، فجهزنا إليه عسكرياً من الموحدين والأغراز والعرب، وأعلمناهم بأنه رذيةٌ من الرذايا ليس من الجنة والناس في حسب، وطال ما كان يتعاطى لقاء الجمهور، ويعماه عن النور، ويقطع لنفسه بالغلب، فلما سمع بدنوهم من جنابه، واقتحامهم عليه من بابه، فر فرار الظليم، وحث النجاء خوفاً مما لحقه من العذاب الأليم، وكان قد أعد بمدينة طرابلس مهماته، واتخذها ملجأ من طوارئ الاغترار وآفاته، والله قد نزهاها لأن تكون عصرة لسيئاته، وعصمةً لهنواته. فبينما نحن في أثناء هذه الحال بظاهر قابس إذا بوجوه قومها يرفعهم التيار المتدافع، ويقدمهم الموج الخافض الدافع، ويلوح للهدى على أسارير كبيرهم وصغيرهم نورٌ ساطع، ويجمع بيننا وبينهم الاهطاع إلى الحق وهو سببٌ جامع؛ فأعلموا أن الطاعة لم تفارقها سرائرهم، وأن النور الذي فاض على إفريقية لم تحرمه أبصارهم ولا بصائرهم، وأنهم وإن بعد مزارهم، وكادت تكون من ديار مصر دارهم، فما زالت تمتد إلى هذا اليوم آمالهم ونواظرهم؛ وعرفوا بأن الشقي الذي كان عندهم مذموماً مدحوراً، وأنهم لم يفارقوا مدينتهم حتى جعلوا بينهم وبينه خندقاً وسوراً، وحتى أقاموا على منبرهم دعوة الحق التي وعدها الله في المشرق والمغرب علواً وظهوراً؛ فكُرمت وفادتهم، وبانت لهم سعادتهم، وأعرب عن حال غائبهم وشاهدتهم غيبهم وشهادتهم، وأمرُوا بطالب من الموحدين وقطعة من الأسطول، وأحسن إليهم بإحسان أهل القرى المبذول، وإلى الواقد المقبول، وبشروا عن النزوح، والهوى الطروح، بالتهم الموصول.

ثم عَيَّنَا عسكريا يقيم بقياس حافظا لجناحها، ومؤتمنا لشعابها، ومانعا للعدو من تولج بابها. وعند ذلكم أنشأنا العزيمة ثانيا، وروأنا الصمد إلى المهدي لا بمرتد أو لا وانيا، وسألنا الله عز وجل في تطهير بقعتها، وتذليل منعتها، أملا صادقا دانيا. ثم استقبلناها بسير يقصر عنه متناول الرعان، ويعلم ذوات القرن والركاب ملاعبة الزمام والعنان، ويشرق البيض والسمر إلى هبر الضراب ونثر الطعان، إلى أن جئناها ونوز بياضها قد غشاه الظلم ظلما، وأحكام أهل التجسيم قد أثقلت كاهلها، وحملت معالمها ومجاهليها، خطوبًا جساما. فبينما نحن نشتغل بمحاولته؛ وننظر في قوام منازلتها، ونعمل على تطهيرها بحول الله من رجس مقابلتها، إذا بالشقي قد طال عليه في الضراء الأمد، وخانه الصبر الذي كان يدعيه والجلد، وأعياء البؤس المدفع الذي كان به والكمد، وتوهم أن بلاد الجريد متلافية لرمقه، وعرضة لتلصصه وسرقه، وأنه سيجد فيها بعض جيران لمنهج أمله وخلقه؛ فجاءها مجيء الخائف المترقب بين صقب النشار وصلقه، فرمته كل مارة بسجيل، وقاتلته قتال من يرى أنه من أخصب طائفة وشر جيل، وأن كل شر جرت به إليه الأيام فهو سبب الجر ورأس التأجيل.

وعند ذلكم استخرنا الله تعالى الذي هو ولي الاستخارة ومُسعدها، وموثق الآراء المدارة ومُسدها، ومُنْفذ العزائم المغارة ومُنْجدها، وعينا لغزوه الشيخ الأجل الأكرم أبا محمد ابن الشيخ الموقر أبي حفص أدام الله كرامته في جيش من الموحدين والأغزاز والأعراب؛ فساروا إليه بسيوف معودة الضراب، وخيول مُلْس البطون لواحق الاقرباء، متوكلين على من عودهم النصر في الهيجاء، واليسر الآراء، والصبر في ملتقى الجليلين وقتل الأعداء، موقنين بأن لا عدد ولا عدة إلا ما ينزل من السماء، معتمدين على الله تعالى لا على الأبيض المشرفي والصعدة السمراء. فلما نذر بهم عدو الله، وهو بحمة مطماطة، ركب الجبال وفارق الزهو والاختيال، وحذر الأمام

والوراء واليمين والشمال، وظن أن الموحدين لا يقدرّون على اتّباعه وما زال يظنّ المحال ويتبع الخيال.

ويلبغ الموحّدون أعزهم الله قابس فجَدّدوا زادهم، واستأنفوا جدّهم وجهادهم، واعتقدوا التفويض إلى الله تعالى سلاحهم الأوفى وعتادهم، وصاروا في أثره برأي عازم، ونظير حازم، ثقة بأن الله لا يسلم الصابرين ولا يُضيع أجر العاملين، وعلمًا بأنه جلّ جلاله لا يُصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين؛ واستمروا على ذلك أيامًا، يمرون على العماثر والشعوب كرامًا، وتُهدي إليهم البشري في كل فج تحيةً وسلامًا. وكان للشقي طمعٌ في رُغبة والشريد حين من سُليم، فمر بهم مرور منافٍ غير هادٍ ومستنصر بمحجوبٍ غير بصير، ومستنجز بغير ولي على الحقيقة ولا نصير؛ فأجابه كلٌّ من دنا أجله، وأورده المصراع الوبيل أمله، وكان عليه لا له سعيه الضال وعمله، فلما التقوا عليه في جيش كأنه لجّ متراكب، أو سحاب خريف زحزحته الخبائب، كرّ راجعا نحو الموحدين، ولسان الحال تالية: أولئك لهم عذابٌ أليم وما لهم من ناصرين؛ فلما نذر به الموحّدون وهُم في منزل يسمى بمنزل أم العافية، زحفوا إليه، وأقدموا إقدام الأسود الطاريئات عليه. فكانت بينهم مضاربة نفق فيها سوق القتال، وازدحمت فيها الرجال على الرجال، والنصال على النصال؛ في كل ذلك لا يمسُّ الموحدين قدح، ولا يتخطى صفقتهم ربح، ولا يعدو ليل هيجانهم صبح. ثم إن الله فتح لهم باب ظهورهم وعلوهم، ومكّنهم أتم تمكين من أكتاف عدوهم، وآواهم بين مستجر القنى عاقبة رواحهم في ذات الله وغدوهم؛ واستحزّ القتل في أهل بيت الشقي ورجاله، ووجوه زعمائه الضالين وأبطاله، وجميع من كان حشد من قبائل سُليم وشرار هلاله، حتى كادت الرماح تغنى بذاتها عن المعاصم، والصفاح لا يبقى منها في الأيدي سوى القوائم. والخيول لا تدرس غير الترائب والجماجم، وهذا يومٌ كان فيه للموحدين موقفُ الأبرار، وأفعالُ الأحرار،

وقَتَالَ المهاجرين والأنصار، وظهور أهل الجنة على أهل النار، وصولُهُ أهل الإقبال على أهل الإدبار.

فلما رأى عدو الله ما هاله فرجِحًا في جريدة من الخيل، وفاض الموحدون على الكراع والسلاح والأهلين والبنين في السيل بالليل، ونالت في ذلك أيديهم، ورماحهم فوق ما عهدته السالف والخالف من العطاء المحسوب والنَّيل، واستبَقُوا الطلبة والموحدين الذين كانوا في إَسَارِ الشقي بحكم السيف الذي لا يصلو به إلا عزيز، وحجته التي فصلها في كل موطن وجيز، ومن أَفَلَتَ من الحمام، وتخطاه في المعترك جناح الحسام، اعتلق ببعض من الموحدين بذمام، حتى لم يَنْجُ الشقي ولات حين نِجاة إلا برأس طِمْره ولجام. فالحمد لله الذي أوهن كيده، وأضعف محاله وأيده، وجعل رأيه الدبير أُحبولته وقيده، والحمد لله الذي أطمعه في صيد ما لا يُصاد فكان فريسته وصيده. وكم ضل ضلَالًا بعيدا، وأضل كافرًا غويًّا وحديدا، وأذاق الجموع الحافلة لشحط المزار، وبعد الأمصار، حربًا ضروسًا وبأسًا وما كان الله ليذر بهتانه وطغيانه أنه كان به كفورًا ولآياته عنيدا.

وهذه إفريقية قد خلعت من الوسواس، ونقيت من الأدناس، وصفت من شوائب الأرجاس، وطهرت من الدعوة المنسوخة دعوة بني العباس، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولم يبق إلا هذه المدينة وما بقاء الفروع بعد انتهاك الأصول، وأي جدى بعد تكسير النصول، وأيُّ أمر يبقى لمن فيها من الأشقياء، وقد رأوا أعلامهم منكوسة تنذرهم بالداهية الدهياء، وتُنْجِيهم ذوائبها بانقطاع الأمل من صاحبهم والرجاء. فانتظروا بشارتها قاطعة بحول الله عرض البيداء، مطلعة عليكم بحمد الله تمام النعماء والسراء. وأما الأعراب فقد دنا قصيها، ودان عصيها، وألقيت بهذا الجنب رجاها وعُصِيَّها. وفي هذا التاريخ قدم أبو سرحان مسعود بن

سلطان بن زمام يرسف في قيد هرمه، ويطلب لمن وراءه من بنيه وأهل بيته ما يقدمون عليه من قبول هذا الأمر العظيم وذممه، وهم الذين كانوا قد أوحشتهم سواف الجرائم والله واسعُ باب عفوه وفضله وكرمه.

فانشروا هذه المسرات، واشكروا الله تعالى على تواتر الأنباء المنشرات، واحمدوه جل جلاله على نفحات رحمته المنشرات. ونحن نقول: اللهم قد فتحت لنا أبواب نصرك، وأعتتنا على ما استحفظنا من أمرك، وأريتنا في عدو الحق أحكام سطوك وقهرك، وأريتنا من آلائك وعوارف نعمائك ما يوجب صلة حمدك وشكرك؛ فتمم علينا النعمة تميمًا، وعرفنا في كل محاولة نصرًا عزيزًا وصنعًا كريها، واجعل طريقتنا في خدمة الديانة، وتحمل الأمانة، طريقًا مستقيمًا، وضاعف لهذه الطائفة من النعم الواكفة ما أنعمت به عليها حديثًا وقديما، واكتب لنا لسان صدق في الشكر والثناء، إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



فهرس تبیین الرسائل

١١	الرسالة الأولى من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة يخبرهم برجوعه إلى حضرته بعد كمال غزوة ويعظهم وينصحهم
١٤	الرسالة الثانية من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج يخبره بوصول رسله إليه ويقبل عذره
١٦	الرسالة الثالثة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة صنهاجة تأسفرت في ٢٧ ربيع الأول سنة ٥٤٣ وفيها بعض الإعلانات والنصائح
١٨	الرسالة الرابعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى الشيخ الأجل أبي زكرياء يحيى بن علي يعني ابن غانية في ٩ ربيع الثاني ٥٤٣ يدعو فيها إلى التوحيد
٢٢	الرسالة الخامسة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة يخبرهم بوصول كتابهم عن غزوة أسطولهم على النصرارى بمدينة المرية
٢٥	الرسالة السادسة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى جماعة المشيخة بقرطبة في ٢ صفر ٥٤٤ يخبرهم بوصول وفدهم إليه ويعظهم

٢٩	الرسالة السابعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى أهل مدينة قسنطينة في ٢٤ جمادى الأولى ٥٤٧ يعظهم ويدعوهم إلى التوحيد
٣٤	الرسالة الثامنة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة تلمسان في ١٠ شعبان ٥٤٧ يعلمهم بفتح قسنطينة وإنابة يحيى بن العزيز صاحب بجاية إلى التوحيد
٣٨	الرسالة التاسعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى الشيخ أبي محمد وسنار وكافة أهل مراكش في أول ربيع الثاني ٥٤٨ يخبرهم بغزوته في البلاد الشرقية وظفر الموحدين على الأعراب بناحية سطيف
٤٥	الرسالة العاشرة لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد يعني ابن مرذنش صاحب شرق الأندلس في ١٦ جمادى الآخرة ٥٤٨ يعظه ويدعوه إلى التوحيد
٤٨	الرسالة الحادية عشرة لعلها من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن وهي عديمة الرأس لبتر وقع في الأصل ونخبة بثورة أخي المهدي بمراكش وقتلها وقتل أصحابها
٥٦	الرسالة الثانية عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة تلمسان يخبرهم بتطوير الموحدين على طبقات ثلاث بحسب قدر كل واحد منهم

٦٣	الرسالة الثالثة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة وطنجة يخبرهم بتقديم ابنه محمد على بلاد إفريقية وولايته عهده
٦٨	الرسالة الرابعة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة في ١٢ ربيع الأول ٥٥١ يعلمهم بولاية بنيه على بعض أقطار مملكته
٧٣	الرسالة الخامسة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة سبتة في ٥ جمادى الآخرة ٥٥١ يعظهم وينصحهم
٧٨	الرسالة السادسة عشرة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بجاية في العشر الأول من شعبان ٥٥٢ يخبرهم بفتح المرية وبباسة وأبذة وموت السليطين أمير النصارى
٨٧	الرسالة السابعة عشرة من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بعض مكنة في ٨ شوال ٥٥٢ يذكر فيها وفود القبائل الذين ببلاد السوس والتماسهم الأمر وتوحيدهم وما انضاف إلى ذلك من الوصول إلى تينملل وزيارة قبر المهدي بن تومرت
٩٧	الرسالة الثامنة عشرة من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول كتابهم في غزواتهم على الروم
٩٩	الرسالة التاسعة عشرة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة غرناطة في ٢٠ قعدة ٥٥٤ يعلمهم ببناء مدينة بجبل الفتح

١٠٢	الرسالة العشرون من إنشاء الكاتب أبي الحكم بن المرخي عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة قرطبة يخبرهم بفتح مدينة قفصة
١١٤	الرسالة الحادية والعشرون من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالمي عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة فاس في ١٤ ربيع الثاني ٥٥٥ يعلمهم بهزيمة عرب إفريقية ودخولهم تحت طاعة الموحدين
١٢١	الرسالة الثانية والعشرون من إنشاء الكاتب أبي القاسم القالمي عن الخليفة عبد المؤمن مخبرًا بهزيمة النصاري في نواحي قرطبة
١٢٦	الرسالة الثالثة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بجاية في ٣ ربيع الثاني ٥٥٦ وهي الرسالة المعروفة برسالة الفصول يوصيهم فيها بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات
١٣٧	الرسالة الرابعة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى أخيه أبي سعيد والشيخ أبي سعيد يخلف بن الحسن يخبرهما ببعث غزوة إلى المرتدين من صنهاجة وإقامة الجيوش لغزو العدو بجزيرة الأندلس
١٤٠	الرسالة الخامسة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى أمير شرق الأندلس وهو أبو عبد الله محمد بن سعد المشهور بابن مرزنيش في أول رمضان ٥٦٤ يدعوه فيها إلى التوحيد
١٤٧	الرسالة السادسة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة قرطبة في نصف شوال ٥٨٦ يخبرهم بارتحال رياح من عرب إفريقية إلى الأندلس برسم الجهاد

١٥٤	الرسالة السابعة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة غرناطة في ٧ جمادى الأولى ٥٨٠ يخبرهم ببيعته ويدعوهم إلى اشتراكهم فيها
١٥٩	الرسالة الثامنة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة إشبيلية في عقب رمضان ٥٨٠ يأمرهم بقطع شرب الرب ويبيعه ودفع زكاة الفطر للقاضي أبي المكارم ليوزعها على الضعفاء
١٦٣	الرسالة التاسعة والعشرون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة إشبيلية في ٥ ربيع الثاني ٥٨١ يخبرهم بغزوة الموحدين على علي بن غانية وفتح مدينة بجاية
١٧٣	الرسالة الثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة مراكش في ١٨ شعبان ٥٨٣ يخبرهم بهزيمة بني غانية بحمة مطماطة ويفتح مدينة قابس
١٨٢	الرسالة الحادية والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة تونس في ٢ رمضان ٥٨٣ يعلمهم بدخول أهل الجريد تحت طاعة الموحدين وبحصار مدينة قفصة
١٨٨	الرسالة الثانية والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة مراكش في ١٣ قعدة ٥٨٣ يعرفهم بفتح مدينة قفصة

١٩٧	الرسالة الثالثة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة مراکش في ١٠ ربيع الأول ٥٨٤ يخبرهم برجوعه من إفريقية إلى المغرب الأقصى
٢٠٤	الرسالة الرابعة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة سبتة في ٢٦ جمادى الآخرة ٥٨٦ يخبرهم بغزوته بغرب الأندلس وأخذ بعض حصون من أيدي النصارى
٢١٢	الرسالة الخامسة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة فاس في ٩ رمضان ٥٩٢ يخبرهم بغزوته على الروم في ثغر الأندلس الشمالي
٢٢٣	الرسالة السادسة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدي مخبراً باستيلاء الموحدين على منورقة ويابسة وميرقة
٢٢٩	الرسالة السابعة والثلاثون من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش عن الأمير محمد الناصر الموحدي مخبراً بغزوته في قبلى إفريقية وحضاره للمهدية